النص الكامل

الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي



قَضيّة سْتَايْلز الغامِضَة

1

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

Agatha Christie

أغاثا
كريستي

قضيَّة ستَايْلز الغَامضة

بسم الله الرحمن الرحيم

أغاثا كريستي

قضيَّة سْتَايْلز الغَامِضة

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٢٠

ترجمة: محمود الخطيب

مراجعة الترجمة: مَيّ العَاني

تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيَال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب
وهي تضم النصّ الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٢٠ بعنوان

The Mysterious Affair at Styles

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الأولى
٢٠٠٧

التوزيع في دول الخليج العربي
Pioneer House

دبي ٢٨٢٦٠٠٥ الكويت ٢٤٦٦٩٤٢ مسقط ٢٤٧٩٦٤١٤
قطر ٤٨٦٢١٢١ البحرين ٧٢٩٣٦٢٩

الفصل الأول

ذاهب إلى ستايلز

ضَعُفَ اهتمام الناس الآن بعض الشيء بما كان معروفاً في حينه باسم «قضية ستايلز». ومع ذلك، ونظراً إلى الشهرة العالمية الواسعة لتلك القضية، فقد طلب مني صديقي بوارو وأفراد العائلة أنفسهم أن أدوّن القصة كلها، ونحن واثقون أن ذلك سوف يُسكِت الإشاعات التي دارت حول الموضوع.

سوف أبدأ بذكر الظروف التي أدت إلى صلتي بالموضوع. تمّ إعفائي من الخدمة العسكرية على الجبهة لظروف مَرَضية، وبعد قضاء بضعة أشهر في مَصَحّ كئيب للنقاهة مُنِحتُ إجازة مرضية لمدة شهر واحد. وحيث إنني كنت بلا أقارب أو أصدقاء حميمين فقد رحت أفكر محاولاً أن أقرر ماذا أصنع، وعندها التقيت بجون كافيندش الذي لم أكن قد رأيته منذ سنين. وفي الحقيقة لم أكن أعرفه جيداً، فقد كان يكبرني بخمسة عشر عاماً (وإن كان لا يبدو في الخامسة والأربعين). أما معرفتي به فتعود إلى طفولتي، فعندما كنت صغيراً كنت كثيراً ما أقيم في «ستايلز»، قصر والدته في إيسكس.

تبادلنا حديثاً طيباً حول الأيام الماضية، وانتهى ذلك بدعوته لي لزيارة «ستايلز» لقضاء إجازتي المَرَضية هناك. وأضاف قائلاً: سوف تُسَرّ أمي لرؤيتك مرة أخرى بعد كل هذه السنوات.

سألته: هل أمك بخير؟

قال: نعم، وأظن أنك تعرف أنها تزوجت مرة أخرى؟

أخشى أنني قد أبديت دهشتي بصراحة واضحة، فالسيدة كافيندش (التي كانت قد تزوجت والد جون عندما كان أرملاً وله ولدان) كانت امرأة وسيمة في وسط العمر حسبما أتذكرها، ولذلك فعمرها الآن لا يمكن أن يقلّ عن سبعين سنة! تذكرتها امرأةً ذات شخصية حيوية استبدادية، تميل بعض الشيء إلى الشهرة في أوساط العمل الاجتماعي والخيري، مع حبها الشديد لافتتاح الأسواق الخيرية ولعب دور السيدة السخية. كانت من أكثر النساء كرماً وكانت تملك ثروة كبيرة.

كان السيد كافيندش قد اشترى البيت الريفي المعروف باسم قصر «ستايلز» بعد زواجهما بوقت قصير، وكان واقعاً تحت هيمنة زوجته إلى حد أنه أوصى لها بالقصر حين وفاته لتستفيد منه طوال حياتها، بالإضافة إلى الجزء الأكبر من دخله، وهو إجراء مجحف في حق ولدَيه. ومع ذلك فقد كانت زوجة أبيهما كريمة دائماً معهما، وفي الحقيقة فقد كانا صغيرَين جداً عندما تزوج أبوهما مرة أخرى بحيث كانا يعتقدان أنها أمهما الحقيقية.

كان لورنس (وهو الولد الأصغر) شاباً رقيقاً، وقد حصل على شهادة الطب، ولكنه اعتزل الطب مبكراً وقبع في بيته ليتابع طموحاته الأدبية، رغم أن أشعاره لم يحالفها أي نجاح ملحوظ.

أما جون فقد عمل محامياً لبعض الوقت، ولكنه استقرّ في النهاية في نمط العيش الأكثر ملاءمة له كمالك ريفي. وقد تزوج منذ سنتين واصطحب زوجته للإقامة في «ستايلز». وانتابني شك بأنه كان سيفضّل أن تزيد أمه من مخصصاته بما يمكّنه من اتخاذ مسكن مستقل له، إلا أن السيدة كافيندش كانت من النوع الذي يحب أن يرسم الخطط ويتوقع أن ينساق الآخرون معها، وفي هذه الحالة كانت لها اليد الطولى بالتأكيد؛ أعني: السيطرة على المال.

لاحظ جون دهشتي عند سماعي خبر زواج أمه مرة أخرى، وتبسم بحزن ثم قال بغضب: وقد تزوجت رجلاً نصّاباً أيضاً! أستطيع أن أخبرك -يا هيستنغز- أن ذلك يجعل الحياة صعبة جداً بالنسبة لنا، وبالنسبة لإيفي... هل تذكر إيفي؟

- لا.

- آه، أظن أنها جاءت بعدك. إنها خادمة أمي ومرافقتها، وهي صالحة لكل الأعمال وتتحلى بروح رياضية، ومع أنها ليست صغيرة ولا جميلة إلا أنها في غاية الشجاعة.

- كنت تريد أن تقول...

- آه، هذا الرجل! ظهر من العدم بحجة أنه ابن عم إيفي من الدرجة الثانية أو أحد أقربائها، على الرغم من أنها لم تُبدِ حرصاً على إقرار صلة القرابة. إنه دخيل تماماً وأي شخص يمكنه إدراك ذلك. له لحية كثيفة سوداء وينتعل حذاء من الجلد الصقيل في جميع الفصول! ولكن أمي أُعجبت به في الحال وعيّنته سكرتيراً لها، فأنت تعلم كيف أنها تدير دوماً أكثر من مئة جمعية؟

هززت رأسي بالإيجاب.

قال: حسناً، وقد حوّلت الحرب المئات إلى آلاف. وبلا شك فقد كان الرجل مفيداً جداً لها، لكننا صُدمنا عندما أعلنت فجأة قبل ثلاثة أشهر خطوبتها لهذا الرجل، ألفريد! لا بد أن يكون أصغر منها بعشرين سنة على الأقل! هذا -ببساطة- اصطياد ثروة مكشوف. ولكنها سيدة نفسها، وقد تزوجته.

- لا بد أن يكون ذلك وضعاً صعباً بالنسبة لكم جميعاً.

- صعب؟ إنه فظيع!

* * *

هكذا سارت الأمور، وبعد ثلاثة أيام نزلت من القطار في محطة «ستايلز سينت ميري»، وهي محطة صغيرة لا يوجد سبب واضح لوجودها، تقبع في وسط الحقول الخضراء والطرق الريفية. كان جون كافيندش ينتظر على الرصيف، وقادني إلى السيارة في الخارج معلّقاً: لا زالت لديّ بضع قطرات من الوَقود، وكل ذلك بسبب أنشطة الأم.

كانت قرية ستايلز سينت ميري تقع على بعد ميلين تقريباً من المحطة الصغيرة، أما قصر «ستايلز» فيقع بعد ميل واحد إلى الجانب الآخر من المحطة.

كان يوماً حاراً في بداية تموز (يوليو)، وبدا من المستحيل تقريباً على مَن يرى ريف إيسكس المنبسط تحت أشعة شمس ما بعد الظهيرة بخضرته وسكونه أن يصدّق أن حرباً عظمى تجري في مسارها المرسوم في مكان ليس بالبعيد، وشعرت أنني قد

أخطأت طريقي فجأة إلى عالم آخر.

وبينما كنا نعبر بوابة البيت قال جون: أخشى أنك ستجد المكان هادئاً جداً هنا يا هيستنغز.

- يا صديقي العزيز، هذا هو ما أريده تماماً.

- آه، إذا كنت تريد أن تعيش حياة خاملة فسيكون هذا ممتعاً. أنا أتدرّب مع المتطوعين مرتين في الأسبوع وأعمل في مساعدة المزارعين، وزوجتي تعمل بانتظام في الأرض؛ إنها تستيقظ في الساعة الخامسة كل صباح لتحلب الأبقار وتواظب على العمل بثبات حتى وقت الغداء.

ثم أكمل قائلاً: إنها حياة جميلة جداً بكل اعتبار لو لم يكن ذلك الرجل، ألفريد إنغلثورب، موجوداً.

ثم أوقف السيارة فجأة ونظر إلى ساعته قائلاً: لا أعرف إذا كان لدينا الوقت لأخذ سينثيا. لا، ستكون قد غادرت المستشفى الآن.

- سينثيا؟ إنها ليست زوجتك، أليس كذلك؟

- ليست كذلك. إن سينثيا هذه تحت رعاية أمي، وهي ابنة زميلتها القديمة في المدرسة التي تزوجت بمحام نذل فشل في عمله، وأصبحت البنت يتيمة ومعدومة بعد وفاته، فجاءت أمي إلى الإنقاذ وأخذت سينثيا التي صارت تعيش معنا منذ قرابة السنتين. وهي تعمل الآن في مستشفى الصليب الأحمر في تادمينستر الذي يبعد سبعة أميال عن هذا المكان.

وبينما كان يتفوه بالكلمات الأخيرة توقفنا أمام واجهة البيت الجميل القديم، وحين تقدمنا اعتدلت سيدة تلبس تنّورة صوفية واسعة لملاقاتنا، وكانت تنحني على حوض للأزهار. قال جون: مرحباً إيفي، ها هو بطلنا المصاب، السيد هيستنغز. هذه هي الآنسة هاوارد.

مدت الآنسة هاوارد يدها مصافِحةً بحرارة مؤلمة نوعاً ما، ورأيتُ انطباعاً عن عيون بالغة الزرقة في وجه لوحته الشمس. كانت امرِأة في نحو الأربعين ذات صوت عميق كصوت رجل بنبرته الجَهْوَرية، ولها جسم كبير وقدمان كبيرتان تناسبان ذلك الجسم، وكانت تنتعل جزمة سميكة جيدة.

وسرعان ما وجدت أن حديثها كان مصاغاً بنفس أسلوب البرقيات؛ قالت: الأعشاب الضارة تنمو بسرعة هنا. لا نستطيع مجاراتها. سوف تضغط عليك. الأفضل أن تكون حريصاً.

أجبتها: سأكون مسروراً جداً إذا استطعت أن أكون مفيداً.

- لا تقل ذلك، لا تفعل أبداً. ستتمنى أن لا تكون قد قلت ذلك فيما بعد.

قال جون وهو يضحك: إنك متهكمة يا إيفي. أين سنتناول الشاي اليوم، في الداخل أم في الخارج؟

- في الخارج. هذا يوم أجمل من أن نحبس فيه أنفسنا داخل البيت.

قال جون: إذن ادخلي فقد عملتِ بما فيه الكفاية في الحديقة اليوم، والعامل يستحق أجره! تعالي وروّحي عن نفسك.

قالت الآنسة هاوارد وهي تخلع قفازات العمل: "حسناً، إنني أميل إلى موافقتك". ثم سارت أمامنا حول البيت إلى حيث وُضع الشاي تحت ظل شجرة الجمّيز الكبيرة.

نهضت امرأة عن أحد الكراسي وتقدمت بضع خطوات لتقابلنا. قال جون: هذه زوجتي يا هيستنغز.

لن أنسى أبداً نظرتي الأولى إلى ماري كافيندش؛ كان قوامها الطويل الرقيق يبدو مؤطَّراً في خلفية الضوء الساطع مانحاً إحساساً بطاقة كامنة تبدو وكأنها لا تجد لها متنَفَّساً إلا في عينيها الخضراوين الجميلتين، عينين لافتتين للنظر تختلفان عن عيني أية امرأة أخرى قابلتها في حياتي.

حيّتني ببضع كلمات من الترحيب اللطيف بصوت منخفض واضح، ثم قدّمت لي الشاي، وقد عزّزَت ملاحظاتُها القليلة الهادئة انطباعي الأول عنها كامرأة ساحرة جذّابة. وبما أن المستمع المقدِّر يشجّع على الحديث فقد وصفت بطريقة ساخرة بعض الأحداث التي وقعت لي في دار النقاهة بطريقة أمتعت بها مضيفتي بشكل كبير.

وفي تلك اللحظة وصل صوت أتذكره جيداً من خلال الباب الزجاجي المفتوح بالقرب مني، سمعت الصوت يقول: إذن فسوف تكتب للأميرة بعد تناول الشاي يا ألفريد، أليس كذلك؟ سوف أكتب بنفسي للسيدة تادمينستر بخصوص اليوم الثاني، أم يجب علينا الانتظار ريثما نسمع من الأميرة؟ في حالة رفضها يمكن للسيدة تادمينستر أن تفتتحه في اليوم الأول، والسيدة غروسبي في اليوم الثاني. وبخصوص مهرجان المدرسة...

كان هناك همس بصوت رجل، وبعد ذلك قالت السيدة إنغلثورب مجيبة: نعم، بالتأكيد، سيكون الوقت مناسباً بعد تناول الشاي. إنك حسن الانتباه يا عزيزي ألفريد.

فُتح الباب أكثر وخرجت منه إلى ممشى الحديقة سيدة أنيقة كبيرة في السن ذات شعر أبيض وهيئة مسيطرة بعض الشيء، تبعها رجل يعطي انطباعاً ببعض التبجيل في أسلوبه. حيّتني السيدة إنغلثورب بأسلوب رقيق قائلة: جميل جداً أن نراك ثانية يا سيد هيستنغز، بعد كل هذه السنوات. عزيزي ألفريد، أقدم لك السيد هيستنغز... أعرّفك بزوجي ألفريد.

نظرت بفضول إلى «العزيز ألفريد»، وبالتأكيد فقد كان يمثل نغمة ناشزة. لم أتعجب من اعتراض جون على لحيته، فقد كانت أطول لحية أراها في حياتي وأكثرها سواداً. كان يضع نظارة ذات إطار ذهبي وكانت ملامحه ذات جمود غريب. وقفزت إلى ذهني فكرة أنه يمكن أن يبدو طبيعياً على المسرح ولكنه غير ذلك تماماً في الحياة الواقعية! كان صوته عميقاً ومتملقاً، وصافحني بتكلف وهو يقول: أنا سعيد بلقائك يا سيد هيستنغز.

ثم التفت إلى زوجته قائلاً: عزيزتي إيميلي، أظن أن تلك الوسادة رطبة نوعاً ما.

نظرَت إليه بلهفة بينما كان يستبدل بالوسادة واحدة أخرى متظاهراً بحرصه الشديد على راحتها. كان افتتاناً غريباً من تلك المرأة العاقلة!

وبوجود السيد إنغلثورب استقر بين أفراد المجموعة شعور بالتكلّف والعداوة المبطَّنة؛ فالآنسة هاوارد بشكل خاص لم تبذل

جهداً كبيراً في إخفاء مشاعرها، ولكن لم يَبدُ على السيدة إنغلثورب أنها تلاحظ شيئاً غير عادي، ولم يخفّ هَذرها الذي عرفتُه فيها منذ زمن بعد مرور كل هذه السنين، فقد صبّت عليّ سيلاً متصلاً من الحديث، ولا سيما حول البازار القادم الذي كانت تنظّمه وكانت على وشك افتتاحه. وبين فترة وأخرى كانت ترجع إلى زوجها في تساؤل عن الأيام والتواريخ، أما هو فلم يتغير أسلوبه في المراقبة والاهتمام بها.

لقد اتخذتُ تجاهه موقف الكراهية العميقة والراسخة منذ البداية، أنا الذي طالما هنّأت نفسي بأن أحكامي على الأشياء من النظرة الأولى كانت دائماً حصيفة للغاية!

التفتت السيدة إنغلثورب لتوجّه إلى إيفيلين هاوارد بعض التعليمات حول رسائلها، فخاطبني زوجها بصوته المجهد: هل الجندية هي مهنتك يا سيد هيستنغز؟

- لا؛ فقد كنت أعمل قبل الحرب في شركة لويد للتأمين.

- وهل ستعود إليها بعد انتهاء الحرب؟

- ربما. إما أن يكون الأمر كذلك وإما بداية جديدة بالكامل.

مالت ماري كافيندش إلى الأمام قائلة: ماذا ستختار كمهنة تميل إليها اذا كان الاختيار وفقاً لما تفضّله فقط؟

- حسناً، الأمر يعتمد.

- ألا يوجد لديك هواية سرّية؟ قل لي: هل أنت منجذب

إلى شيء ما؟ كل واحد لديه في العادة شيء سخيف ومضحك.

قلت: سوف تهزئين بي.

ابتسمت وقالت: ربما.

- حسناً، إن لديّ دائماً رغبة دفينة في أن أكون رجلَ تحرٍّ.

- في الشرطة أم مثل شيرلوك هولمز؟

- آه، بل مثل شيرلوك هولمز بالتأكيد. أنا في الحقيقة، وبجِدّ كامل، منجذب لتلك المهنة إلى أبعد حد. لقد صادفت ذات يوم رجلاً في بلجيكا، إنه رجل تحرّ مشهور جداً، وقد أثار حماستي كثيراً. كان رجلاً ضئيلاً رائعاً، اعتادَ أن يقول إن كل أعمال التحري هي مسألة منهج فقط. وطريقتي تعتمد على طريقته، على الرغم من أنني تقدمت فيها أكثر. كان رجلاً ضئيلاً وممتعاً، شخصاً أنيقاً جداً ولكنه ذكي بشكل مذهل.

علّقت الآنسة هاوارد: أحب قصص التحري الجيدة، لكن فيها الكثير من الكلام التافه. يتمّ اكتشاف المجرم في الفصل الأخير فقط، وكل شخص يُفاجَأ. لو كانت جريمة حقيقية فسوف تعرفها في الحال.

قلت مجادلاً: هناك الكثير من الجرائم غير المكتشَفة.

- لا أعني الشرطة، ولكن الناس الذين يعيشون في خِضَمّها... العائلة؛ إنك لن تستطيع فعلياً أن تخدعهم فسوف يعرفون.

قلت متعجّباً: إذن تعتقدين أنك إذا وجدتِ نفسك في خضمّ

جريمة ما (ولنقل جريمة قتل) فسوف تكونين قادرة على تحديد المجرم بسرعة؟

أجابت: بالطبع أستطيع. قد لا أكون قادرة على إثبات ذلك عملياً، ولكني متأكدة من أنني سوف أعرف مَن هو المجرم. سأستشعر المجرم بأطراف أصابعي وأحسّ به إذا اقترب مني.

قلت معلّقاً: قد تكون «مجرمة».

قالت: من الممكن ذلك، ولكن القتل جريمة عنف ترتبط بالرجال أكثر من النساء.

- ليس في حالة دس السم.

أجفلني الصوت الصافي للسيدة ماري كافيندش وهي تقول: بالأمس كان الدكتور بورشتاين يقول إنه -وبسبب الجهل العام في مهنة الطب بالسموم غير المشهورة- فمن المحتمَل أن كثيراً من الوَفَيات التي نشأت من حالات تسمّم لم يتمّ اكتشافها.

صاحت السيدة إنغلثورب: ما هذا يا ماري؟ يا له من حديث مخيف! إنه يُشعرني كما لو أن وَزّة تمشي فوق قبري! آه، ها هي سينثيا.

جاءت فتاة شابة بلباس ممرّضة تمشي بخفة عبر العشب.

- لقد تأخرت اليوم كثيراً يا سينثيا. هذا هو السيد هيستنغز... أقدّم لك الآنسة سينثيا.

كانت سينثيا شابة ممتلئة بالحياة والحيوية. وخلعت قبعة التمريض فأعجبت بشعرها الكستنائي ذي الخصلات الطليقة

ويدها الصغيرة البيضاء التي مدتها لتأخذ كأس الشاي، ولو كانت لها عينان داكنتان ورموش سوداء لبدت من أجمل الجميلات.

طرحت نفسها على الأرض بجانب جون وابتسمت لي بينما كنت أناولها طبق الشطائر. قالت تخاطبني: اجلس هنا على العشب فهو ألطف بكثير.

أطعتها وجلست على العشب، ثم سألتها: إنك تعملين في تادمينستر، أليس كذلك يا آنسة؟

هزت رأسها بالإيجاب قائلة: بلى، لسوء الحظ.

سألتها وأنا أبتسم: وهل يتعالَون عليك هناك؟

صاحت سينثيا بكبرياء: فليحاولوا ذلك!

علّقت قائلاً: لي ابنة عم ممرِّضة، وهي تحس بالرعب من رئيسات الممرضات.

- أنا لا أتعجب من ذلك يا سيد هيستنغز؛ إنهن مرعبات، إنهن كذلك بكل بساطة! أنت لا تعرف. ولكنني لست ممرضة والحمد لله، أنا أعمل في الصيدلية.

سألتها وأنا أبتسم: كم شخصاً سمّمتِ؟

ابتسمت سينثيا أيضاً وهي تقول: آه، المئات!

نادت السيدة إنغلثورب: سينثيا، هل يمكنك أن تكتبي لي بعض الملاحظات؟

- بالتأكيد يا عمتي إيميلي.

قفزت واقفة في الحال، وذكّرني شيء ما في طريقة تصرفها بأنها فتاة تعتمد على غيرها في حياتها، وأن السيدة إنغلثورب -مهما كانت عطوفة عموماً- لا تسمح لها بنسيان فضلها عليها.

التفتت مضيفتي إليّ وقالت: سوف يريك جون غرفتك. العشاء في الساعة السابعة والنصف، وقد تخلينا عن العشاء الثاني منذ فترة. السيدة تادمينستر زوجة ممثّلنا في البرلمان (وهي ابنة اللورد أبوتسبيري) فعلت الشيء نفسه. إنها توافقني على أننا يجب أن نضرب المثل في الاقتصاد. إننا أسرة حرب بمعنى الكلمة، لا شيء يُرمَى هنا، حتى الأوراق المستعمَلة يتم تجميعها وترسَل في أكياس لتتم الاستفادة منها.

عبّرت عن تقديري، ثم أخذني جون داخل البيت صعوداً على الدرج العريض الذي يتفرع يميناً وشمالاً إلى الأجنحة المختلفة في المبنى، وكانت غرفتي في الجناح الشمالي تطلّ على الحديقة.

تركني جون، وبعد دقائق قليلة رأيته من نافذتي وهو يمشي ببطء على العشب متأبطاً ذراع سينثيا. سمعت السيدة إنغلثورب تنادي سينثيا بنفاد صبر فجفلت الفتاة وأسرعت بالعودة إلى البيت، وفي اللحظة نفسها ظهر رجل من خلف شجرة وسار ببطء في نفس الاتجاه. بدا في الأربعين من عمره تقريباً، أسمر اللون، ذا وجه حليق كئيب جداً، وبدا كما لو أن مشاعر عنيفة هي التي تحرّكه. نظر إلى الأعلى باتجاه نافذتي بينما كان يمر، وعرفته على الرغم من أنه قد تغير كثيراً خلال الأعوام الخمسة عشر التي مرّت منذ التقينا آخر مرة. لقد كان أخا جون الأصغر، لورنس كافيندش. وتساءلت في نفسي عن الشيء الذي سبّب ذلك

التعبير الغريب على وجهه، ثم صرفته من تفكيري وعدت بعقلي إلى أموري الخاصة.

* * *

مرّ المساء بصورة ممتعة، ثم أشرق الصباح التالي مضيئاً مشمساً، وكنت ممتلئاً بتوقعاتي بقضاء إجازة جميلة. لم أرَ السيدة كافيندش حتى وقت الغداء عندما تطوّعَت لاصطحابي للتمشّي، وقد قضينا وقتاً ممتعاً بعد الظهر ونحن نتجول في الغابات ثم عدنا إلى البيت بحلول الخامسة مساء، وبينما نحن ندخل البهو الكبير أشار إلينا جون للدخول إلى غرفة التدخين. رأيت في الحال من خلال تعبيرات وجهه أن شيئاً مزعجاً قد حدث، وتبعناه إلى داخل الغرفة فأغلق الباب خلفنا.

قال جون: ماري، لقد تشاجرت إيفي مع ألفريد إنغلثورب وقررت الرحيل.

- إيفي راحلة؟

هز جون رأسه بالإيجاب وهو عابس وقال: نعم، لقد ذهبت إلى الأم و... آه، ها هي إيفي قادمة بنفسها.

دخلت الآنسة هاوارد وهي تزمّ شفتيها بشدة. كانت تحمل حقيبة صغيرة وبدت مهتاجة ومصمّمة، وفي موقف دفاعي نوعاً ما أخذت في الكلام فجأة وبعنف: مهما يكن الأمر فقد قلتُ ما في نفسي.

صاحت ماري كافيندش: عزيزتي إيفلين، لا يمكن أن يكون هذا حقيقة!

أومأت الآنسة هاوارد برأسها بتجهّم وقالت: إنه حقيقة بما فيه الكفاية! أخشى أنني قد قلت لإيميلي أشياء لن تنساها أو تغفرها بسرعة. ولا أبالي إذا ما دخل بعضها فقط إلى فهمها كماء منزلق عن ظهر بطّة! لقد قلت لها بصراحة: "إنك امرأة كبيرة السن يا إيميلي ولا يوجد أحمق كالأحمق العجوز. إن الرجل يصغرك بعشرين عاماً فلا تخادعي نفسك. من أجل ماذا تزوجك؟ من أجل المال! حسناً، لا تدعيه يأخذ الكثير منه. إن للمزارع رايكس زوجة صغيرة وجميلة جداً. فقط اسألي ألفريد كم من الوقت يقضي هناك". من الطبيعي أنها غضبت جداً، فاسترسلتُ قائلة: "سأُحذّرك سواء أحببتِ ذلك أم لا. إن ذلك الرجل سيقتلك في سريرك بنفس سهولة النظر إليك. إنه سيء جداً. يمكنك أن تقولي لي ما تشائين، ولكن تذكّري ما قلته لك... إنه سيء جداً".

سألتها السيدة كافيندش: وماذا قالت لك؟

كشّرت الآنسة هاوارد بطريقة معبّرة وقالت: لقد قالت: "حبيبي ألفريد... عزيزي ألفريد... افتراءات فظيعة... أكاذيب فظيعة... امرأة شريرة". كل ذلك لأنني اتهمت «زوجها العزيز»! كلما أسرعتُ بمغادرة بيتها كان ذلك أفضل، ولذلك فإنني ذاهبة.

- ولكن ليس الآن.

- بل في هذه اللحظة.

جلسنا نحدّق إليها لحظة، وفي النهاية بعد أن وجد جون أن محاولات إقناعها بالبقاء غير مجدية ذهب ليستفسر عن القطارات، وتبعته زوجته وهي تتمتم بشأن محاولة الحديث مع السيدة إنغلثورب في هذا الموضوع. وحين غادرَت الغرفة تغير

وجه الآنسة هاوارد؛ مالت ناحيتي بلهفة قائلة: سيد هيستنغز، إنك رجل شريف. هل يمكنني أن أثق بك؟

دُهِشتُ بعض الشيء، فقد وضعت يدها على ذراعي وخفضت صوتها وهمست قائلة: اعتن بها يا سيد هيستنغز، اعتنِ بإيميلي المسكينة. هناك الكثير من أسماك القرش حولها، كلهم. آه، إنني أعرف عن أي شيء أتحدث، فلا يوجد واحد منهم غير مُعسِر ولا يحاول الحصول على المال منها. لقد حميتها بقدر استطاعتي، وأنا الآن خارج الموضوع. سوف يستغلّونها!

قلتُ: بالطبع يا آنسة هاوارد، سوف أفعل ما بوسعي، ولكنني متأكد أنك متوترة وثائرة الأعصاب.

قاطعتني وهي تهزّ سبابتها ببطء: أيها الشاب، ثق بي. لقد عشت في هذا العالم أكثر منك. كل ما أطلبه منك هو أن تُبقي عينيك مفتوحتين، وسوف ترى ما أعنيه.

جاء صوت محرك السيارة من خلال النافذة المفتوحة، فنهضت الآنسة هاوارد واتجهت نحو الباب، وكان جون ينادي في الخارج. أومأت إليّ برأسها ويدها على مقبض الباب وقالت: راقب ذلك الشيطان زوجها أكثر من أي شخص!

لم يكن هناك وقت لقول المزيد، فقد تاهت الآنسة هاوارد في خِضَمّ كلمات الاحتجاج والتوديع، أما السيد والسيدة إنغلثورب فلم يظهرا. وبينما كانت السيارة تتحرك بعيداً تركَت ماري كافيندش المجموعةَ فجأة وسارت باتجاه الطريق لتستقبل رجلاً طويلاً ملتحياً كان يبدو بوضوح أنه متجه نحو القصر، واحمرّت وجنتاها وهي تمدّ يدَها إليه.

سألتُ بحدّة لأنني ارتبت فيه تلقائياً: من ذلك الرجل؟

أجاب جون باختصار: إنه الدكتور بورشتاين.

- ومن هو الدكتور بورشتاين هذا؟

- إنه يقيم في القرية ويقضي فترة راحة بعد إصابته بانهيار عصبي شديد. إنه اختصاصي من لندن، رجل ذكي جداً، وهو أحد أعظم الخبراء في السموم على ما أظن.

تدخلت سينثيا باندفاع قائلة: كما أنه صديق حميم لماري.

قطب جون كافيندش حاجبيه وغيّر الموضوع قائلاً: تعال نتجول يا هيستنغز، إن ذلك الموقف من الأمور البغيضة. كان لسانها لاذعاً دائماً، ولكن لا يوجد صديق مخلص في إنكلترا أكثر من إيفيلين هاوارد.

سرنا في طريق خلال المزرعة، ومضينا إلى القرية عبر الغابات التي كانت تحدّ أحدَ جوانب أملاك القصر. وبينما كنا نمر عبر إحدى البوابات في طريق العودة جاءت امرأة شابة جميلة لها ملامح غجرية من الاتجاه المعاكس، انحنت وابتسمت. أعجبتُ بها قائلاً: إنها فتاة جميلة.

عبس جون وقال: إنها السيدة رايكس.

- تلك التي ذكرتها السيدة هاوارد...

قال جون بفظاظة غير ضرورية: تماماً.

وفكرّتُ بالسيدة العجوز ذات الشعر الأبيض في القصر الكبير وبذلك الوجه الصغير الذي يشعّ حيوية والذي ابتسم لنا

قبل قليل، وانتابني شعور غامض بالتشاؤم، لكنني أبعدت هذا الخاطر جانباً عن تفكيري. قلت لجون: إن «ستايلز» مكان قديم وساحر بالفعل.

هزّ رأسه وقال هو عابس: نعم، إنه مكان جميل. سوف يكون لي في يوم من الأيام. كان سيكون لي الآن على وجه الحق، فقط لو أن والدي كتب وصية أصولية، وحينها ما كنتُ لأكون مُعسراً كما أنا الآن.

- هل أنت معسر حقاً؟

- يا عزيزي هيستنغز، لا أخفي عليك أنني مفلس تماماً.

- ألا يستطيع أخوك مساعدتك؟

- لورنس؟ لقد صرف كل ما كان يملكه في نشر أشعاره البائسة بطبعات فاخرة. لا، إننا جمعٌ معدَمٌ جداً. يجب أن أعترف بأن أمي كانت دائماً طيبة جداً معنا... حتى الآن بالطبع، فمنذ زواجها...

وتوقف فجأة عابساً. ولأول مرة شعرت أن شيئاً في جو المنزل يتعذّر تحديده قد ذهب بذهاب إيفيلين هاوارد. ربما كان وجودها يشكّل عامل أمان، أما الآن فإن ذلك الأمان قد زال وبدا الجو حافلاً بالشكوك. وتراءى لي الوجه الشرير للدكتور بورشتاين بصورة غير مفرحة، وامتلأ عقلي بالريبة من كل شيء وكل شخص. وللحظة تولّد لديّ هاجسٌ داخلي باقتراب الشر.

* * *

الفصل الثاني
يوما السادس عشر والسابع عشر من الشهر

لقد وصلتُ إلى «ستايلز» في الخامس من تمّوز (يوليو)، وسوف أروي الآن أحداث يومَي السادس عشر والسابع عشر من ذلك الشهر. ومن أجل راحة القارئ فسوف ألخّص أحداثَ هذين اليومين بطريقة دقيقة قدر المستطاع، وقد رتّبتُها معتمداً على الإفادات الطويلة والمملّة الواردة في المحاكمة.

تلقيت رسالة من إيفيلين بعد يومين من مغادرتها تخبرني فيها بأنها تعمل ممرّضة في المستشفى الكبير في مِدْلاينهام (وهي بلدة صناعية تبعد نحو خمسة عشر ميلاً) وتتوسل إليّ إعلامها إذا كانت السيدة إنغلثورب قد أبدت أي رغبة في المصالحة معها.

كان الشيء الوحيد المزعج في أيامي الهادئة هو سلوك ماري كافيندش غير العادي وغير المبرَّر (من وجهة نظري) في تفضيلها رفقةَ الدكتور بورشتاين. لم أستطع تصوّر ما الذي أعجبها في هذا الرجل، ولكنها كانت دائماً تطلب منه الحضور إلى البيت وغالباً ما كانت تسير معه فترات طويلة، وأعترف بأنني لم أكن قادراً على فهم سرّ جاذبيته.

كان يوم الإثنين السادس عشر من تموز (يوليو) مليئاً بالعمل والاضطراب؛ كان البازار المشهور قد أُقيم يوم السبت، وكان مقرَّراً للحفلة التي لها علاقة بنفس النشاط الخيري والتي كان على السيدة إنغلثورب قراءة شعر عن الحرب فيها، كان مقرَّراً لها أن تُقام في تلك الليلة. وقد شُغِلنا جميعاً في أثناء الصباح في إعداد وترتيب القاعة في القرية، والتي كان مقرراً إقامة الحفلة فيها. تناولنا غداء متأخراً وقضينا فترة ما بعد الظهر في الحديقة للراحة، ولاحظت أن تصرف جون كان غيرَ عادي نوعاً ما، فقد بدا قلقاً ومرتبكاً.

بعد تناول الشاي ذهبَت السيدة إنغلثورب لترتاح قبل أن تقوم بأعمالها وأنشطتها في المساء، وقد تحدّيتُ ماري كافيندش في مباراة في التنس. وفي نحو الساعة السابعة إلا ربعاً نادتنا السيدة إنغلثورب قائلة إن العشاء سيكون مبكراً في تلك الليلة. تدافعنا لنكون مستعدين في الوقت المحدد، وقبل انتهائنا من العشاء كانت السيارة تنتظر في الخارج.

كانت الحفلة ناجحة جداً ولقيت القراءة الشعرية للسيدة إنغلثورب تصفيقاً حاراً من الحضور، وكان هناك أيضاً مشهد تمثيلي قامت سينثيا بأداء دور فيه، ولم تعد معنا لأنها دُعيت إلى حفلة عشاء ثم لقضاء الليلة مع بعض صديقاتها اللاتي اشتركنَ معها في التمثيلية.

بقيت السيدة إنغلثورب في الصباح التالي في سريرها، وتناولت إفطارها فيه حيث كانت مجهَدة، ولكنها ظهرت في مزاجها المنتعش في نحو الساعة الثانية عشرة والنصف، وأخذتنا

-أنا ولورنس- إلى حفلة غداء. قالت: إنها دعوة سارّة من السيدة روليستون، أخت السيدة تادمينستر. لقد جاءت عائلة روليستون مع وليَم الفاتح، وهي إحدى أقدم عائلاتنا.

اعتذرت ماري عن الذهاب معنا بحجة ارتباطها بالدكتور بورشتاين. واستمتعنا بالغداء، وبينما كنا عائدين اقترح لورنس أن نسلك اتجاه تادمينستر الذي كان يبعد نحو الميل عن طريقنا، وذلك لزيارة سينثيا في صيدليتها. أجابت السيدة إنغلثورب بأن الاقتراح كان ممتازاً، ولكن بما أن عليها كتابة عدة رسائل فإنها ستُنزلنا هناك ثم نعود مع سينثيا بالعربة ذات الحصان.

بقينا موضع شك العامل في المستشفى إلى أن جاءت سينثيا لتكفَلنا، وبدت هادئة وجميلة بمعطفها الأبيض الطويل. صعدت بنا إلى مُعتكَفها وقدّمتنا إلى زميلتها الصيدلانية، وهي امرأة تثير الرهبة تناديها سينثيا بمرح باسم «نيبس». وبينما كانت عيناي تدوران حول الغرفة الصغيرة تعجّبت قائلاً: يا لها من زجاجات كثيرة! هل تعرفين محتوياتها جميعاً بحق؟

تأوهت سينثيا قائلة: آه، قل شيئاً جديداً. إن كل شخص يدخل هنا يقول هذا الكلام، حتى لقد بتنا نفكر في تخصيص جائزة لأول شخص لا يقول: "يا لها من زجاجات كثيرة"! كما أنني أعرف أن الشيء التالي الذي ستقوله هو: "كم شخصاً سمّمتِ؟".

دافعت عن نفسي بالضحك، فأضافت: لو عرفتُم فقط كم من السهل تسميم إنسان وقتله بالخطأ لما ضحكتم بسبب ذلك. حسناً، تعالوا لتناول الشاي، فلدينا جميع أنواع المخازن السرية في

هذه الخزانة. لا يا لورنس، تلك خزانة السموم... نعم، الخزانة الكبيرة.

شربنا الشاي في جوّ مرح، وساعدنا سينثيا في غسل الأكواب بعد ذلك، وكنا نعيد آخر ملعقة شاي إلى موضعها عندما سمعنا طرقاً على الباب، وفجأة تصلّبت ملامح وجهَي سينثيا ونيبس معطية تعبيراً صارماً، وقالت سينثيا بصوت حاد متمرس: ادخل.

ظهرت ممرضة شابة عليها ملامح الخوف وهي تحمل زجاجة وقدّمتها إلى نيبس، التي أشارت بدورها إلى سينثيا مدمدمة بملاحظة مبهَمة بعض الشيء، قائلة: في الحقيقة أنا لا أعمل اليوم هنا.

أخذت سينثيا الزجاجة وفحصتها بصرامة قاضٍ ثم قالت بلهجة الحسم: كان يجب أن تُرسَل هذه إلينا في الصباح.

قالت الممرضة: رئيسة الممرضات آسفة جداً، لقد نسيَت.

ردّت سينثيا: يجب على رئيسة الممرضات قراءة التعليمات المعلَّقة على الباب من الخارج.

خمّنتُ من تعبير وجه الممرضة الصغيرة أنها ليست لديها الجرأة لتبليغ هذه الرسالة إلى رئيسة الممرضات المرعبة. وأنهت سينثيا قائلة: لذلك لن تكون جاهزة حتى الغد.

قالت الممرضة: ألا تظنين أن بإمكانك تجهيزها هذه الليلة؟

قالت سينثيا بهدوء: حسناً، إن العمل كثير جداً، ولكن إذا

بقي لدينا وقت فسوف نجهّزها.

خرجَت الممرضة الصغيرة، وفي الحال تناولت سينثيا قارورة عن الرف وأعادت تعبئة الزجاجة ووضعتها على الطاولة. ضحكتُ قائلاً: يجب المحافظة على النظام والانضباط؟

قالت: تماماً. تعالوا لنخرج إلى شرفتنا الصغيرة، فمنها يمكنكم رؤية جميع الأجنحة الخارجية في المستشفى.

تبعتُ سينثيا وزميلتها فأشارا إلى الأجنحة المختلفة، وبقي لورنس خلفنا في الداخل، وبعد بضع دقائق نادته سينثيا دون أن تلتفت ليأتي وينضمّ إلينا، ثم نظرَت إلى ساعتها وقالت: هل يوجد شيء آخر نعمله يا نيبس؟

- لا.

- حسناً، بإمكاننا أن نغلق الصيدلية ونذهب إذن.

* * *

في ذلك المساء رأيت لورنس مبتهجاً على غير عادته. لقد كان -مقارَنةً بجون- شخصاً غامضاً من الصعب معرفته؛ كان بعكس أخيه في كل سلوك تقريباً، حيث كان خَجولاً ومتحفظاً بصورة غير عادية. ومع ذلك كان له أسلوب ساحر بالتأكيد، وبتصوري فإن أي شخص يعرفه معرفة حقيقية سوف يحبه حباً عميقاً. وقد لاحظت دائماً أن سلوكه نحو سينثيا كان متحفّظاً، أما هي فقد كانت تميل إلى الابتعاد عنه. ولكنهما كانا مبتهجَين ذلك المساء وثرثرا معاً كأنهما طفلان.

وبينما كنا نسير في اتجاه القرية تذكّرت أنني بحاجة إلى بعض الطوابع، فتوجّهنا نحو مكتب البريد. وبينما كنت خارجاً من المكتب اصطدمت برجل ضئيل كان داخلاً لتوّه. ابتعدت عنه واعتذرت، وفجأة عانقني وقبّلني بحرارة مع صيحة تعجب قائلاً: صديقي هيستنغز! هذا أنت فعلاً يا صديقي هيستنغز!

هتفت: بوارو!

عدت إلى العربة وقلت: إنه لقاء مُفرح يا آنسة سينثيا. هذا صديقي القديم السيد بوارو الذي لم أرَه منذ سنوات.

قالت سينثيا بابتهاج: آه، إننا نعرف السيد بوارو، ولكني لم أكن أعرف أنه صديقك.

قال بوارو باهتمام: نعم، فعلاً؛ أنا أعرف الآنسة سينثيا. إنني هنا نتيجة عمل خيري لتلك السيدة الطيبة إنغلثورب.

ثم أضاف إذ نظرت إليه متسائلاً: نعم يا صديقي، لقد غمرَت بكرمها سبعة من أبناء بلدي الذين لجؤوا -للأسف- إلى هنا هرباً من بلدهم الأصلي. نحن البلجيكيين سوف نتذكرها دائماً بكل امتنان.

كان بوارو رجلاً ضئيلاً غريب الشكل بصورة غير عادية؛ فطوله لا يتجاوز مئة وستين سنتمتراً، ولكنه يتحرك بمنتهى الكرامة، وشكل رأسه يشبه البيضة تماماً، وهو يميل به جانباً على الدوام، وكان شاربه صُلباً عسكريّ الشكل، أما أناقة ملابسه فلا تُصدَّق، وأظن أن ذرّة من الغبار يمكن أن تسبب له ألماً أكثر من إصابته برصاصة! ومع ذلك، فان هذا الرجل الطريف الضئيل

ذا الأناقة المفرطة -الذي أحزنني أن أراه قد أصبح يعرج بعض الشيء- قد كان في وقت ما أحدَ أشهر رجال الشرطة في بلجيكا. كانت حاسته غيرَ عادية كرجل تحرّ، وقد حقق نجاحات في الكشف عن بعض أكثر القضايا تعقيداً في ذلك الوقت.

أشار إلى بيته الصغير الذي يسكنه مع زملائه البلجيكيين، وقد وعدته بالزيارة في أقرب فرصة. ثم رفع قبعته محيّياً سينثيا وسرنا مبتعدين.

قالت سينثيا: إنه رجل محبوب، لم تكن لديّ فكرة أنك تعرفه.

- لقد كنت تستمتعين بالحديث مع شخص مشهور من غير أن تعرفي.

وهكذا، وفي بقية الطريق ونحن عائدون إلى البيت رحت أسرد قصص الانتصارات والأعمال البطولية لهيركيول بوارو. وعدنا بمزاج مرح جداً، وبينما كنا ندخل البهو خرجت السيدة إنغلثورب من حجرة جلوسها. بدت منزعجة وكان وجهها محتقناً، وقالت: آه، لقد أتيتم؟

قالت سينثيا: هل بكِ شيء يا عمة إيميلي؟

أجابت السيدة إنغلثورب بحدة: بالتأكيد لا، ماذا يمكن أن يكون بي؟

ثم نادت الخادمة دوركاس -عندما لمحتها وهي ذاهبة إلى غرفة الطعام- وطلبت منها إحضار بعض الطوابع إلى حجرة جلوسها. قالت الخادمة العجوز: نعم يا سيدتي. ثم أضافت بعد

تردد قليل: ألا تعتقدين يا سيدتي أن من الأفضل أن تذهبي إلى الفراش؟ إنك تبدين متعبَة جداً.

قالت السيدة إنغلثورب: لعلك على صواب يا دوركاس، لكن لا، ليس الآن؛ فلديّ بعض الرسائل التي يجب إكمالها قبل موعد إرسال البريد. هل أشعلت نار المدفأة في غرفتي كما قلت لك؟

- نعم يا سيدتي.

- إذن فسوف أذهب إلى النوم بعد تناول العشاء مباشرة.

ثم عادت إلى حجرة جلوسها. حدّقت سينثيا إليها وهي ذاهبة وقالت للورنس: يا إلهي! لا أعرف ماذا حصل لها؟

بدا وكأنه لم يسمعها، فقد دار على عقبيه وخرج من البيت دون أن يتفوّه بكلمة واحدة.

اقترحتُ على سينثيا أن نلعب شوطاً سريعاً في التنس قبل موعد العشاء فوافقت. ركضتُ إلى غرفتي لأحضر المضارب، وقابلت ماري كافيندش وهي تنزل الدرج. قد أكون واهماً، ولكنها أيضاً بدت قلقة وغريبة الشكل. قلت لها محاولاً قدر الإمكان أن لا أظهر اهتمامي: هل تمتعت بنزهة جيّدة مع الدكتور بورشتاين؟

أجابت بحدّة: لم أذهب معه. أين السيدة إنغلثورب؟

- في حجرة جلوسها.

قبضت يدها بشدّة على درابزين الدرج، وبدَت وكأنها

تُعِدّ نفسها للقاء عاصف، ثم ذهبَت مُسرِعةً إلى الأسفل باتجاه حجرة الجلوس حيث أغلقت الباب وراءها. وبينما كنت خارجاً إلى ملعب التنس بعد دقائق معدودة كان عليّ أن أمرّ بجانب نافذة الحجرة المفتوحة، وكنت قادراً على سماع جزء من الحوار التالي. كانت ماري كافيندش تقول بصوت امرأة تسعى يائسة للسيطرة على نفسها: إذن فأنت لن تطلعيني عليها؟

أجابتها السيدة إنغلثورب: عزيزتي ماري، ليس لها علاقة بتلك المسألة.

- إذن أريني إياها.

- أقول لك إنها ليست الشيء الذي تتصورينه، إنها لا تعنيك بأي شيء.

أجابتها ماري بمرارة ظاهرة: بالطبع، كان يجب أن أعرف أنك سوف تتسترين عليه.

كانت سينثيا تنتظرني وحيّتني بلهفة قائلة: هل تعرف؟ لقد حصل شجار عنيف. علمت بذلك كله من دوركاس.

- أيَّ شجار تعنين؟

- بين العمة إيميلي وبينه. أرجو أن تكتشفه في النهاية!

- إذن هل كانت دوركاس هناك؟

- بالطبع لا، لقد «تصادف» أن كانت بجانب الباب. لقد كان شجاراً حقيقياً أصيلاً. أتمنى لو أنني عرفت سبب هذا الشجار.

فكرت بوجه السيدة رايكس الغجري وتحذيرات إيفيلين

هاوارد، ولكنني قررت أن أحافظ على هدوئي، بينما استنفدت سينثيا كل افتراض ممكن، وكانت تأمل بأن "تطرده العمة إيميلي ولا تتكلم معه أبداً مرة أخرى".

كنت متلهفاً للانفراد بجون ولكنه لم يكن موجوداً في أي مكان، فمن الواضح أن شيئاً خطيراً قد وقع ذلك المساء. حاولت أن أنسى تلك الكلمات القليلة التي سمعتها، ولكنني لم أستطع طردها من عقلي بالكامل مهما حاولت. ما الذي كان يهمّ ماري كافيندش في تلك المسألة؟

كان السيد إنغلثورب في صالة الاستقبال عندما نزلت لتناول العشاء. كان وجهه جامداً كالعادة، وقد صدمني التفكير مجدداً بعدم الواقعية الغريبة لهذا الرجل. وأخيراً نزلت السيدة إنغلثورب. كانت ما تزال تبدو مستثارة، وفي أثناء الطعام سادَ شيء من الصمت المتوتر. كان إنغلثورب هادئاً بشكل غير مألوف؛ ففي العادة كان يحيط زوجته ببعض الاهتمام (كوضع وسادة خلف ظهرها ولعب دور الزوج المخلص معها) لكنه لم يصنع شيئاً من ذلك في تلك الليلة.

وفور تناول العشاء عادت السيدة إنغلثورب إلى حجرتها مرة أخرى، ونادت قائلة: أرسلي لي القهوة هنا يا ماري، لديّ خمس دقائق فقط قبل موعد استلام البريد.

ذهبت أنا وسينثيا وجلسنا في صالة الاستقبال بجانب النافذة المفتوحة. أحضرَت ماري كافيندش القهوة لنا وكانت تبدو مستثارة أيضاً، ثم سألتنا: هل تحبون الأضواء أيها الشباب أم أنكم تستمتعون برؤية الشفق؟ هلا تأخذين قهوة السيدة إنغلثورب إليها

يا سينثيا؟ سوف أصبّها لها.

قال السيد إنغلثورب: لا تنشغلي يا ماري، سوف آخذها إلى إيميلي بنفسي.

صبّ القهوة ثم خرج من الغرفة وهو يحملها بحرص، وتبعه لورنس، وجلست ماري بجانبنا. جلسنا نحن الثلاثة صامتين لبعض الوقت. كانت ليلة رائعة، حارة وهادئة، وكانت ماري تُهَوّي نفسها برفق بمِروَحة من سعف النخيل، ثم قالت بصوت منخفض: الجو حار جداً؛ سوف تقع عاصفة رعدية.

للأسف لا يمكن للحظات الهدوء أن تدوم؛ فقد جاء من البهو صوت معروف جيداً وغير محبوب بالنسبة لي فأفسد استرخائي. قالت سينثيا متعجبة: دكتور بورشتاين؟ يا له من وقت غريب لتأتي فيه!

نظرت إلى ماري كافيندش لكنّ أي قلق لم يظهر عليها، ولم يتغير الشحوب الخفيف في خدّيها. وبعد لحظات جاء بورشتاين فأدخله ألفريد إنغلثورب، وكان يضحك ويحتجّ بأنه لم يكن في وضع مناسب للدخول إلى غرفة استقبال. وفي الحقيقة كان منظره سيئاً وملابسه ملطخة بالوحل، وهتفت ماري كافيندش: ماذا كنت تفعل يا دكتور؟

قال: لا بد أن أعتذر منكم، فلم أكن أريد أن أدخل ولكن السيد إنغلثورب ألحّ عليّ.

قال جون وهو يدخل من البهو: حسناً يا بورشتاين، إنك في ورطة! خذ بعضاً من القهوة وأخبرنا ما الذي كنتَ تفعله.

قال: شكراً لك، سوف أفعل.

ضحك بكآبة وهو يصف كيف اكتشف صنفاً نادراً جداً من السّرخَس في مكان يتعذر الوصول إليه، وكيف زلّت قدمه في أثناء محاولة الحصول عليه فوقع في بركة قريبة بطريقة مخزية. ثم أضاف: سرعان ما جفّت ملابسي في الشمس، ولكنني أخشى أن يكون مظهري غيرَ لائق.

في تلك اللحظة نادت السيدة إنغلثورب سينثيا فخرجت الفتاة مسرعة. قالت لها: أريدك فقط أن تحملي حقيبة رسائلي إلى الأعلى يا عزيزتي، فأنا ذاهبة إلى النوم.

كان الباب المؤدّي إلى القاعة واسعاً. وكنت قد نهضت عندما نهضَت سينثيا، وكان جون قريباً بجانبي، ولذلك كان هنالك ثلاثة شهود يمكن أن يقسموا على أن السيدة إنغلثورب كانت تحمل قهوتها بيدها رغم أنها لم تتذوقها بعد.

كانت أمسيتي قد فسدت تماماً بوجود الدكتور بورشتاين، فقد بدا لي أن الرجل لن يذهب أبداً! ومع ذلك فقد نهض في النهاية، فتنفّست الصعداء.

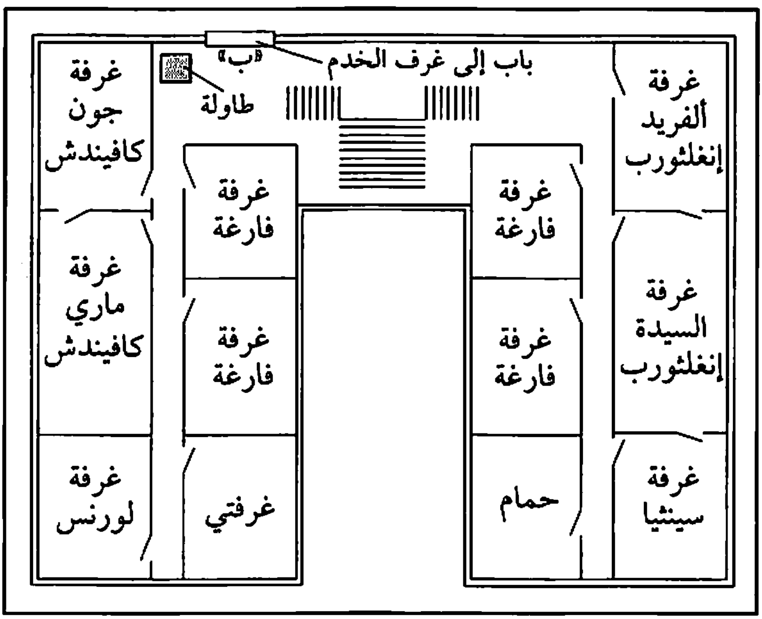
قال السيد إنغلثورب: "سأذهب معك إلى القرية لأرى وكيلنا بخصوص حسابات تلك الأملاك". ثم التفت إلى جون وقال: لا حاجة لأن ينتظرني أحد منكم، فسوف آخذ مفتاح الباب الخارجي معي.

* * *

الفصل الثالث

ليلة المأساة

حتى أوضّح هذا الجزء من القصة أرفق المخطط التالي للطابق الأول لقصر «ستايلز». يمكن الوصول إلى غرف الخدم من خلال الباب «ب»، ولا يوجد لهم اتصال بالجناح الأيمن حيث توجد غرفتا السيد والسيدة إنغلثورب.



بدا وكأن الوقت كان نحو منتصف الليل عندما أيقظني لورنس كافيندش. كان يحمل شمعة في يده، وعرفت فوراً من وجهه المنفعل أن شيئاً خطيراً قد حصل. سألته وأنا أجلس وأحاول تجميع أفكاري: ما الأمر؟

أجاب: أخشى أن أمي مريضة بشدة. يبدو أنها تعاني من نوبة ما، وللأسف فقد أوصدت الباب على نفسها.

قلت: سوف آتي في الحال.

وقفزت من السرير فارتديت رداء النوم، وتبعته عبر الممر ثم البهو إلى الجناح الأيمن للبيت. وانضمّ إلينا جون كافيندش، وكان اثنان من الخدم يقفان أمامنا في حالة دهشة ورعب. وقال لورنس لأخيه: ماذا يجب أن نفعل برأيك؟

فكّرت بأن شخصيته المترددة لم تكن يوماً أوضح مما هي عليه الآن. أدار جون مقبض باب غرفة السيدة إنغلثورب بقوة ولكن بلا نتيجة، وكان واضحاً أنه مقفل أو موصَد بالمِزلاج من الداخل. وفي هذا الوقت كان جميع مَن في البيت قد استيقظ، وكانت أصوات استغاثة مُقلِقة تُسمَع من داخل الغرفة. وبدا بوضوح أن شيئاً يجب أن يُفعَل.

صرخت دوركاس: حاول أن تدخل عبر غرفة السيد إنغلثورب يا سيدي. يا لسيدتي المسكينة!

وفجأة أدركت أن ألفريد إنغلثورب لم يكن موجوداً معنا وأنه الوحيد الذي لم يُعلَن عن حضوره. فتح جون باب غرفة ألفريد، وكانت مظلمة جداً ولكن لورنس تبعه بالشمعة، وعلى

ضوئها الضعيف رأينا أن السرير لم ينَم عليه أحد، ولم تكن هناك إشارة على استعمال الغرفة في تلك الليلة.

ذهبنا مباشرة إلى الباب الداخلي فوجدناه أيضاً مقفلاً أو موصداً بالمزلاج من الداخل. ما الذي يجب عمله؟ صرخت دوركاس وهي تعصر يديها: آه، سيدي العزيز! ماذا سنفعل الآن؟

قال جون: أظن أننا يجب أن نحاول كسر الباب، مع أن ذلك سيكون عملاً قاسياً. دعوا واحدة من الخادمات تهبط لتوقظ بيلي وتطلب منه الذهاب لاستدعاء الدكتور ويلكنز في الحال. والآن سنحاول كسر الباب... ولكن، لحظة من فضلكم؛ ألا يوجد باب يؤدّي إلى الغرفة من داخل غرفة سينثيا؟

أجابت دوركاس: نعم يا سيدي، ولكنه أيضاً موصَد بالمزلاج دائماً. إنه لم يُفتَح أبداً.

- حسناً، يجب علينا أن نتأكد.

ركض بسرعة إلى الممر باتجاه غرفة سينثيا. وكانت ماري كافيندش هناك وهي تهزّ الفتاة (التي يبدو أنها كانت من أصحاب النوم العميق) مُحاوِلةً إيقاظها. وخلال لحظة أو اثنتين عاد جون وهو يقول: لا فائدة؛ إنه مقفل أيضاً. يجب أن نكسر الباب. أظن أنه أقل صلابة من الباب الذي في الممر.

تعاوَنّا جميعاً في دفع الباب. كان إطار الباب الخشبي صلباً وقاوم جهودنا المضنية لفترة طويلة، ولكننا شعرنا أخيراً بأنه قد بدأ يستسلم تحت ضغطنا، وفي النهاية انفتح الباب محدثاً صوتاً مزعجاً.

دخلنا جميعاً معاً، وكان لورنس لا يزال يحمل شمعته. كانت السيدة إنغلثورب ممدَّدة على سريرها وجسمها يتلوى بسبب التشنّجات العنيفة، وبدا وكأنها قد قَلَبت الطاولةَ الموضوعة بجانب سريرها خلال واحدة من هذه التشنّجات. وبينما كنا ندخل كانت أطرافها قد ارتخت وسقطت على الفراش.

أسرع جون فأضاء مصباحاً نفطياً كان في الغرفة، ثم عاد إلى آني (وهي إحدى الخادمات) وأرسلها لتنزل إلى غرفة الطعام لإحضار عصير الليمون، ثم أسرع إلى أمه بينما قمتُ بفتح الباب المؤدي إلى الممر. والتفَتُّ إلى لورنس لأقترح أن أتركهم الآن حيث لم تعد حاجة لخدماتي، ولكن الكلمات تجمدت على شفتيّ.

إنني لم أرَ قط مثل تلك النظرة الشاحبة على وجه رجل من قبل! كان وجهه أبيض بلون الطباشير، والشمعة التي يحملها بيده المرتجفة تنساب قطراتها الذائبة على السجّادة، وعيناه المليئتان بالرعب (أو بعاطفة مشابهة أخرى) قد تسمّرتا على موقع فوق رأسي على الجدار البعيد وكأنه رأى شيئاً جمّده وحوّله إلى صخرة! وغريزياً تتبعت اتجاه عينيه، ولكنني لم أرَ أي شيء غير عادي؛ كانت بقايا النار الواهنة لا تزال تشعّ نوراً خافتاً في الموقد، ولم يَبدُ صفّ التماثيل الصغيرة على رفّ الموقد مُخيفاً أبداً.

يبدو أن العنف الذي صاحَبَ نوبة السيدة إنغلثورب قد مضى، فقد باتت قادرة على الكلام في لُهاث قصير. كانت تقول: أنا الآن أفضل... أمر مفاجئ جداً... كان غباء مني أن أقفل الباب على نفسي...

سقط ظل على السرير، وعندما نظرت إلى صاحبه رأيت ماري كافيندش تقف بجانب الباب وذراعها حول سينثيا. كان يبدو أنها تسند الفتاة التي ظهرت مذهولة للغاية وعلى غير عادتها؛ كان وجهها متورداً جداً وهي تتثاءب باستمرار، وقالت السيدة كافيندش بصوت واضح ومنخفض: إن سينثيا المسكينة خائفة جداً.

لاحظت أن ماري نفسها كانت ترتدي ملابس العمل؛ إذن كان الوقت متأخراً أكثر مما توقعت ولم نكن في منتصف الليل. ورأيت شعاعاً باهتاً من ضوء النهار من خلال الستائر، وكانت الساعة الموجودة على رف الموقد تشير إلى نحو الخامسة صباحاً.

أجفلتني صرخة مخنوقة من السرير؛ كانت نوبة جديدة من الألم تداهم السيدة الكبيرة المسكينة، وكانت التشنّجات عنيفة ومرعبة ولا يمكن مشاهدتها. كل شيء بدا في فوضى، وتزاحمنا حولها ولا حيلة لنا لمساعدتها أو التخفيف عنها، ثم رفعتها النوبة الأخيرة عن سريرها حتى بدت وكأنها تستند على رأسها وكعبيها فقط، وتقوّس جسمها بطريقة غير عادية.

حاول كل من ماري وجون عبثاً تقديم مزيد من العصير لها. ومضت اللحظات سريعة، وتقوّس الجسد على نفسه مرة أخرى بتلك الطريقة الغريبة. وفي تلك اللحظة شق الدكتور بورشتاين طريقه بحزم داخل الغرفة. وقف جامداً للحظة وهو يحدّق إلى الشخص الممدد على السرير، وفي نفس اللحظة صرخت السيدة إنغلثورب بصوت مخنوق وعيناها على الدكتور: ألفريد، ألفريد...

ثم سقطت على الفراش بلا حراك.

وصل الطبيب إلى السرير بخطوة سريعة وأمسك بذراعيها ليحرّكها بقوة وهو يقوم بما ظهر لي وكأنه عملية التنفس الاصطناعي، وأصدر بعض الأوامر الحادة المختصرة إلى الخدم، وقد أجبرتنا حركة متعجرفة من يده على الابتعاد جميعاً نحو الباب.

راقبناه مذهولين، رغم ظنّي أننا كنا نحسّ بأن الوقت قد فات وأنه لا يمكن عمل شيء الآن. وكان التعبير على وجهه هو الآخر يعكس ضآلة أمله، وأخيراً توقف عن مهمته وهو يهزّ رأسه بأسى. وفي تلك اللحظة سمعنا في الخارج وقع خطوات الدكتور ويلكنز، وهو الطبيب الخاص للسيدة إنغلثورب، وكان رجلاً بديناً صغير الجسم سريع الغضب. أوضح له الدكتور بورشتاين بكلمات قليلة كيف تصادف مروره خارج البوابة عندما خرجت السيارة لتحضر الطبيب، ولذلك ركض إلى البيت بسرعة بينما أكملت السيارة طريقها لتحضر الدكتور ويلكنز. وبإيماءة باهتة من يده أشار إلى الجسد المسجّى على السرير.

همهم الدكتور ويلكنز قائلاً: إن هذا محزن جداً، محزن جداً. كانت السيدة المسكينة دائماً تعمل فوق طاقتها، الكثير فوق طاقتها، على الرغم من نصيحتي لها. لقد حذّرتها وطلبت منها أن تتروّى، ولكن حماستها للعمل الطيب كانت كبيرة جداً. لقد ثارت الطبيعة... ثارت الطبيعة!

كان الدكتور بورشتاين -كما لاحظت- يراقب الطبيب المحلّي بتمعّن، وبقيت عيناه مثبتتين عليه وهو يتكلم. قال له: إن

التشنجات كانت غريبة في عنفها يا دكتور ويلكنز. أنا آسف لأنك لم تكن هنا في الوقت المناسب لتشهد ذلك. كانت تشنجات شبيهة بتلك التي تصاحب مرض الكُزاز.

قال الدكتور ويلكنز بهدوء: آه!

قال الدكتور بورشتاين: أريد أن أتحدث معك على انفراد.

ثم التفت إلى جون وقال: إذا كنت لا تمانع؟

رد جون: بالتأكيد لا مانع.

خرجنا جميعاً إلى الممر تاركين الطبيبَين وحدهما، وسمعت الباب وهو يُقفل بالمفتاح خلفنا، ثم نزلنا إلى الأسفل ببطء. كنت منفعلاً بشدة، فإن لديّ مقدرة أكيدة على الاستنتاج، وقد ولّد أسلوب الدكتور بورشتاين طائفة من الشكوك الجامحة في عقلي. وضعت ماري كافيندش يدها على ذراعي وقالت: ما الأمر؟ لماذا بدا الدكتور بورشتاين غريباً جداً؟

نظرت إليها قائلاً: هل تعلمين بماذا أفكر؟

- بماذا؟

قلت لها وأنا أنظر حولي والجميع بعيد عن مجال السمع: استمعي! وخفضت صوتي إلى الهمس قائلاً: أعتقد أنها قد سُمِّمَت! أنا متأكد أن الدكتور بورشتاين يشك في ذلك.

فتراجعت بظهرها إلى الجدار وتوسعت عيناها بشكل غريب وقالت: "ماذا؟"، ثم هتفت بصرخة مفاجئة أجفلتني: لا، لا، لا يمكن، لا يمكن!

ثم ابتعدت عني واندفعت صاعدةً الدرج. تبعتها خائفاً من أن تفقد الوعي فوجدتها ترتكز على درابزين الدرج وهي شاحبة جداً. أشاحت بعيداً بنفاد صبر قائلة: لا، لا، اتركني، أريد أن أكون وحدي. دعني فقط لدقيقة أو دقيقتين واذهب إلى الآخرين.

أطعتها على مضض. كان جون ولورنس في غرفة الطعام فانضممت إليهما. كنا جميعنا صامتين، ولكنني أعتقد بأنني قد عبرّت عن أفكارنا جميعاً عندما قطعت حاجز الصمت وقلت: أين السيد إنغلثورب؟

هزّ جون رأسه قائلاً: إنه ليس في البيت.

والتقت عيوننا. أين ألفريد إنغلثورب؟ كان غيابه غريباً وصعب التبرير. وتذكرتُ كلمات السيدة إنغلثورب وهي تحتضر. تُرى ماذا يوجد خلف تلك الكلمات؟ ماذا كان يمكن أن تخبرنا أيضاً لو كان لديها الوقت؟

وأخيراً سمعنا الطبيبين ينزلان الدرج. بدا الدكتور ويلكنز منشغلاً ومنتبهاً وهو يحاول إخفاء اهتياجه الداخلي تحت ستار من الهدوء المحتشم، فيما بقي الدكتور بورشتاين في خلفية الموقف ووجهه ذو اللحية الكئيبة لا ينم عن شيء. كان الدكتور ويلكنز هو الناطق باسم الاثنين، فتقدّم مخاطباً جون: سيد كافيندش، أريد موافقتك على تشريح الجثة.

فسأل جون بحزن: هل هذا ضروري؟

واكتسى وجهه بمظاهر الألم، فقال الدكتور بورشتاين: بلا شك.

- أتقصد بقولك هذا أن...؟

- لا أنا ولا الدكتور بورشتاين نستطيع إعطاء شهادة وفاة في ظل هذه الظروف.

خفض جون رأسه وقال: في هذه الحالة ليس لديّ خيار إلا الموافقة.

قال الدكتور ويلكنز بحزم: شكراً لك. نقترح أن يتم فحص الجثة في الغد، أو ربما هذه الليلة.

ثم نظر إلى ضوء النهار قائلاً: في هذه الظروف أخشى أنه لا يمكن تجنب إجراء التحقيق. هذه إجراءات ضرورية، ولكني أرجو أن لا تكدرّوا أنفسكم.

ران الصمت لفترة، ثم أخرج الدكتور بورشتاين مفتاحين من جيبه وسلّمهما إلى جون قائلاً: هذان مفتاحا الغرفتين. لقد أقفلتهما، وبرأيي فمن الأفضل أن تظلاّ مقفلتَين في الوقت الحالي.

ثم غادرا البيت.

* * *

كنت أقلّب فكرة في ذهني، وشعرت أن اللحظة قد جاءت الآن لأطرقها. ورغم ذلك كنت حَذِراً من فعل ذلك بعض الشيء، فقد كنت أعرف بأن جون يخاف من أي نوع من الدعاية. كان متفائلاً بهدوء ويفضل عدم مواجهة المشكلات في منتصف الطريق، وقد يكون من الصعب إقناعه بجدوى خطتي. وشعرت

بأن لورنس يمكن أن يكون حليفاً لي، فهو أقل تمسكاً بالتقاليد وله خيال أوسع. لم يكن هنالك شك في أن اللحظة قد حانت لأخذ المبادرة.

قلت: جون، سأطلب منك شيئاً.

- حسناً؟

- هل تذكر حديثي عن صديقي بوارو، الرجل البلجيكي الموجود هنا؟ لقد كان شرطياً سرياً مشهوراً جداً.

- نعم، أذكره.

- أريدك أن تسمح لي باستدعائه هنا للتحقيق في هذه المسألة.

- ماذا؟ الآن؟ وقبل فحص الجثة؟

- نعم، إن الوقت ذو فائدة إذا... إذا كانت هنالك حادثة بشعة.

صرخ لورنس بغضب: يا للسخف! برأيي فإن كل شيء كان من بنات أفكار بورشتاين، فلم يكن لدى ويلكنز أي فكرة حول هذا الموضوع إلى أن وضع بورشتاين الفكرة في رأسه. ولكنه مثل كل الاختصاصيين، فقد استحوذت عليه تلك الفكرة. إن السموم هي هوايته، لذلك فهو يراها في كل مكان بالطبع.

أعترف بأنني فوجئت بموقف لورنس، فقد كان نادراً ما يتحمس لأي شيء. وتردّد جون، وأخيراً قال: أنا لا أشعر بمثل ما تشعر به يا لورنس، وإنني أميل لإعطاء هيستنغز الحرية

في العمل... رغم أنني كنت أفضّل الانتظار لبعض الوقت، فنحن لا نريد أية فضيحة غير ضرورية.

صرخت بلهفة: لا، لا تخف من ذلك؛ إن بوارو هو السرية عينها.

قال جون: حسناً إذن؛ تدبّر المسألة بطريقتك فإنني أضعها بين يديك، رغم أن الموضوع سيكون قضية واضحة إذا كان كما نشكّ. فليغفر لي الله إذا كنت أتهمه بغير وجه حق!

نظرت إلى ساعتي، وكانت السادسة صباحاً. وقررت أن لا أضيّع الوقت، ومع ذلك فقد سمحت لنفسي بالتأخر خمس دقائق قضيتُها في تفتيش المكتبة إلى أن اكتشفت كتاباً طبياً يحتوي على وصف لمادة الإستركنين السامة.

* * *

الفصل الرابع
بوارو يحقّق

كان البيت الذي يسكنه البلجيكيون في القرية قريباً جداً من بوّابات الحديقة، وكان يمكن للمرء أن يختصر الوقت إذا سلك طريقاً ضيقاً فوق الأعشاب الطويلة يقطع الطريق المتعرّج، وهكذا سلكت ذلك الطريق.

كنت قد قاربت الوصول إلى البيت عندما تعلّق انتباهي برجل يركض باتجاهي. إنه السيد إنغلثورب. أين كان؟ وكيف سيفسّر غيابه عن البيت؟ لكنه بادرني بالقول متلهفاً: يا إلهي، إن هذا مفزع! زوجتي المسكينة، لقد سمعت الخبر لتوّي.

سألته: أين كنت؟

- لقد أخّرني دينبي الليلةَ الماضية. كانت الساعة الواحدة قبل أن ننتهي، ثم تذكرت أنني قد نسيت المفتاح الخارجي بعد كل ذلك، ولم أُرِد أن أوقظ أهل الدار فنمت مع دينبي.

- وكيف سمعت بالأخبار؟

- أيقظ الدكتور ويلكنز دينبي ليخبره بما حدث. مسكينة

إيميلي! لقد كانت تضحّي بنفسها كثيراً. إنها شخصية نبيلة... كانت ترهق نفسها كثيراً.

غمرتني موجة من الاشمئزاز. أي نوع من المنافقين هذا الرجل؟! قلت: "لا بد أن أسرع". وحمدت الله أنه لم يسألني عن المكان الذي كنت ذاهباً إليه. وفي بضع دقائق كنت أطرق باب كوخ ليستويز، وعندما لم ألقَ جواباً أعدت الطرق بنفاد صبر. فتح شخصٌ النافذةَ فوق رأسي بحذر وأطلّ بوارو بنفسه منها، وهتف بتعجب ودهشة لرؤيتي. وببضع كلمات مختصَرة شرحت له المأساة التي حدثت طالباً مساعدته، فقال: انتظر يا صديقي، سوف أُدخلك وتعيد عليّ القصة بينما أرتدي ملابسي.

وخلال لحظات كان قد فتح الباب وتبعته إلى غرفته، وهناك أجلسني على كرسي وقصصت عليه القصة الكاملة، فلم أترك شيئاً أو أحذف أي تفصيل مهما كان تافهاً، فيما كان هو منهمكاً في ارتداء ملابسه بعناية متمهلة.

أخبرته عن استيقاظي من النوم، وعن كلمات السيدة إنغلثورب وهي تحتضر، وعن غياب زوجها، وعن المشاجرة التي حدثت في اليوم السابق، وعن أجزاء المحادثة بين ماري وحماتها التي سمعتها بأذني، وعن المشاجرة السابقة بين السيدة إنغلثورب وإيفيلين هاوارد وتلميحات تلك الأخيرة...

حاولت بصعوبة أن أكون واضحاً بقدر ما أستطيع وكررت حديثي عدة مرات، وبين فترة وأخرى كنت أضطر إلى العودة إلى بعض التفصيلات التي نسيتها.

تبسّم لي بوارو بلطف وقال: إن ذهنك مرتبك، أليس

كذلك؟ خذ وقتك يا صديقي، فإنك مصدوم ومنفعل، وإنها لمسألة طبيعية. عندما نكون أميل إلى الهدوء سنرتّب الحقائق بدقة؛ كل حقيقة في موقعها الصحيح. سوف نختبرها ونطرح بعضها جانباً، فنضع الأحداث المهمة في جانب واحد وننفخ غير المهمة لتطير في الهواء لتطير هكذا! (وكوّر وجهَه الطفولي ثم نفخ بصورة كوميدية).

فاعترضت قائلاً: كل هذا جميل جداً، ولكن كيف ستميز الحقائق المهمة من غيرها؟ هذا ما كان يبدو دائماً صعباً بالنسبة لي.

هز بوارو رأسه بقوة، ورتّب شاربه بعناية شديدة ثم قال: الأمر ليس كذلك يا صديقي؛ فكل حقيقة تقود إلى أخرى، وهكذا نستمر. هل الحقيقة التالية تناسب هذه؟ نعم؟ جيد. وهكذا نستطيع أن نتابع: والحقيقة الصغيرة التالية؟ لا؟ آه، هذا غريب! ثمة شيء مفقود، حلقة مفقودة في السلسلة. نجرّب ونبحث، وتلك الحقيقة المثيرة بعض الشيء، تلك المعلومة الصغيرة التافهة التي لا تتطابق مع الحدث نضعها هنا!

وحرّك يده بأسلوب مبالَغ فيه، ثم تابع: إنها لحقيقة ذات أهمية، إنها لحقيقة عظيمة!

- نعم...

وهزّ بوارو سبابته نحوي بقوة جعلتني أجفل أمامها، وقال: آه، احذر! من الخطر على رجل التحري أن يقول: "إنها لحقيقة صغيرة جداً، إنها لا تهمّ، إنها لا تتوافق. سوف أنساها"؛ ففي هذا الأسلوب تكمن الفوضى! إن كل شيء يهمّ.

أجبتُ: أعرف، إنك تقول ليْ هذا دائماً، ولذلك أخبرتك بكل التفصيلات بشأن هذا الموضوع سواء بدت لي ذات علاقة أم لا.

- وأنا مسرور منك. إن لديك ذاكرة جيدة، كما أنك أعطيتني الحقائق بإخلاص. بالنسبة للترتيب الذي قدمتها به لا أستطيع أن أقول شيئاً لأنه يبعث على الأسى! ولكني ألتمس لك العذر لأنك مضطرب، ولهذا السبب فقد حذفتَ حقيقة ذات أهمية كبيرة.

سألته: وما هي؟

قال: لم تخبرني إذا كانت السيدة إنغلثورب قد أكلت جيداً في الليلة الماضية.

حدقت إلى وجهه بتمعن؛ بالتأكيد إن الحرب قد أثرت في عقل هذا الرجل الضئيل! كان مشغولاً بحرص في تنظيف ردائه قبل ارتدائه وبدا منهمكاً تماماً في هذا العمل، فقلت: لا أستطيع أن أتذكر، وعلى أي حال لا أرى...

خاطبني مقاطعاً: لا ترى؟ لكنها ذات أهمية قاطعة.

قلت وأنا مغتاظ: لا أفهم لماذا هي مهمة، وعلى حسب ما أذكر فإنها لم تأكل كثيراً. لقد كانت منزعجة بصورة واضحة، وذلك قلّل من شهيتها. إنه لأمر طبيعي.

قال بوارو متفكراً: نعم، كانت مسألة طبيعية فقط.

فتح درجه فتناول منه حقيبة صغيرة، ثم التفت إليّ قائلاً: الآن أنا مستعد، سنذهب إلى القصر وندرس الأحداث ميدانياً.

اسمح لي يا صديقي، فقد لبست ملابسك على عجل. إن ربطتك مائلة، اسمح لي.

وبحركة رشيقة أعاد ربطتي إلى وضعها الصحيح ثم قال: هيا، هل نبدأ العمل الآن؟

❊ ❊ ❊

أسرعنا عبر القرية ودرنا نحو بوّابات القصر. توقف بوارو للحظة ونظر بحزن إلى الحديقة الجميلة التي تغتسل بندى الصباح، ثم قال: إنها جميلة جداً، جميلة جداً، ورغم ذلك غرقت الأسرة المسكينة في الحزن وقهرها الأسى.

كان ينظر إليّ بحدّة وهو يتكلم، وكنت مدركاً أن وجهي قد احمرّ بسبب نظرته الطويلة. هل غرقت الأسرة في الحزن فعلاً؟ هل كانت اللوعة بسبب وفاة السيدة إنغلثورب كبيرة؟ لقد أدركت أن هناك نقصاً عاطفياً، فلم يكن لدى السيدة المتوفّاة القدرة على كسب حب الآخرين. لقد كانت وفاتها صدمة ومأساة، ولكن لن يتم افتقادها عاطفياً.

بدا وكأن بوارو يتابع أفكاري، وهزّ رأسه بحزن قائلاً: نعم، إنك على حق؛ فلا وجود لرابطة الدم. لقد كانت لطيفة وكريمة تجاه ابنَي كافيندش ولكنها لم تكن أمهما الحقيقية. إن الدم هو الذي يكشف الحقيقة. تذكّر ذلك دائماً: الدم هو الذي يكشف الحقيقة.

قلت: بوارو! كنت أحب أن تخبرني لماذا أردت أن تعرف إن كانت السيدة إنغلثورب قد أكلت جيداً الليلة الماضية أم لم

تفعل؟ لقد كنتُ أقلّب السؤال في ذهني ولكني لم أستطع أن أفهم كيف يكون له علاقة بالمسألة.

بقي صامتاً لدقيقة أو اثنتين بينما كنا نسير، وأخيراً قال: لا أجد ما يمنعني من أن أخبرك، على الرغم من أنه ليس من عادتي أن أشرح شيئاً إلى حين الوصول إلى النهاية كما تعرف. إن الرأي الحالي هو أن السيدة إنغلثورب قد ماتت بسبب سم الإستركنين المفترَض أن يكون قد وُضع لها في قهوتها؟

قلت: نعم.

- وفي أي وقت قُدِّمت لها القهوة؟

- في نحو الساعة الثامنة مساء.

- إذن فقد شربَتها ما بين الثامنة والثامنة والنصف، بالتأكيد ليس بعد ذلك. حسناً، إن الإستركنين سم سريع المفعول، فيمكن أن تحس بتأثيره بسرعة بالغة، ربما خلال ساعة واحدة. أما في حالة السيدة إنغلثورب فلم تظهر الأعراض حتى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي؛ بعد تسع ساعات! إن وجبة ثقيلة يتم تناولها في نفس الوقت مع السم يمكن أن تؤخّر مفعوله، وإن لم يكن من المحتمَل تأخيره كل تلك الفترة، ومع ذلك فهو احتمال جدير بأن يؤخَذ بعين الاعتبار. ولكن حسبما تقول فقد أكلَت طعاماً قليلاً على العشاء، ومع ذلك لم تظهر الأعراض حتى الصباح الباكر في اليوم التالي! هذه حالة تثير التساؤل يا صديقي. قد يظهر شيء يوضّح ذلك من خلال تشريح الجثة، وإلى أن يحين ذلك الوقت تذكّر ذلك.

وبينما كنا نقترب من البيت خرج جون لمقابلتنا، وكان وجهه يبدو كئيباً ومنهكاً. قال: إنه لَعَمل بغيض يا سيد بوارو. لا بد وأن هيستنغز قد شرح لك أننا قلقون ومهتمّون بعدم إشاعة خبر الحادثة؟

فأجابه: إنني أدرك ذلك تماماً.

- أنت تعرف أن هذا مجرّد شك حتى الآن، فليس لدينا دليل نستند إليه.

أجابه بوارو: بالضبط؛ إنها مسألة إجراء وقائي فقط.

التفت جون إليّ وقال: هل عرفت أن ذلك الرجل إنغلثورب قد عاد؟

أجبته: نعم، لقد لقيته في الطريق.

قال: من الصعب معرفة الأسلوب المناسب لمعاملته.

فعلّق بوارو قائلاً بهدوء: هذه الصعوبة لن تستمر طويلاً.

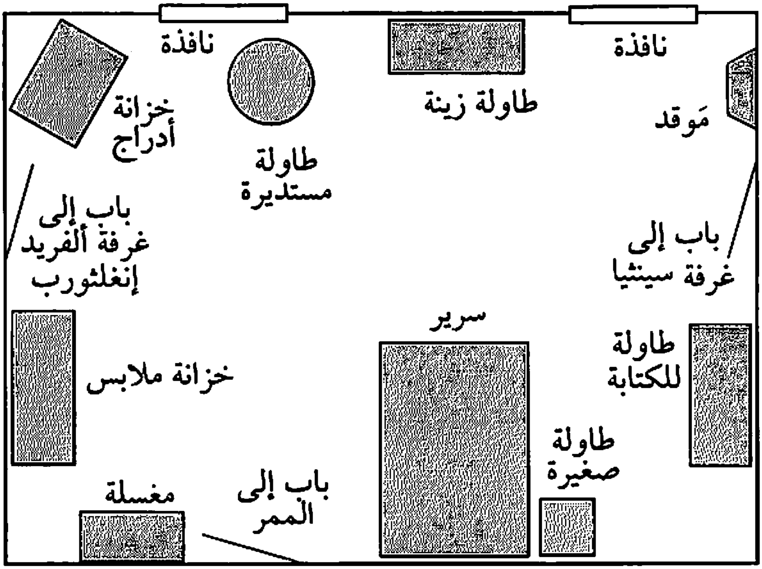
بدا جون متحيّراً لأنه لم يفهم هذا الكلام المبهَم تماماً، وأعطاني المفتاحين اللذين أخذهما من الدكتور بورشتاين وهو يقول: دع السيد بوارو يرى كل شيء يريد رؤيته.

سأل بوارو: هل الغرف مقفلة بالمفتاح؟

قال جون: الدكتور بورشتاين اعتبر ذلك أمراً مستحسَناً.

فهزّ بوارو رأسه متأملاً وقال: إذن فإنه متأكد جداً. حسناً، إن هذا يبسّط الأمور بالنسبة لنا.

صعدنا معاً إلى غرفة المأساة. ومن أجل التوضيح فقد رسمت مخططاً للغرفة والمواد الرئيسية والأثاث الموجود فيها.



أغلق بوارو الباب من الداخل وبدأ بفحص دقيق للغرفة. كان يتحرك بسرعة من هدف إلى آخر بخفّة الجنادب، وبقيت بجانب الباب خوفاً من إتلاف الأدلة. ولكن بوارو لم يَبدُ ممتنّاً لصبري ووقوفي، فقد صرخ: ماذا دهاك يا صديقي؟ إنك ما تزال واقفاً في مكانك مثل... كيف تقولونها؟

أوضحت له أنني كنت خائفاً من إتلاف أية آثار أقدام، فقال: آثار أقدام؟ أية فكرة هذه! لقد كان هنا في هذه الغرفة جيش من الناس! ما هي آثار الأقدام التي من الممكن أن نكتشفها؟ تعال هنا وساعدني في بحثي. سأضع حقيبتي الصغيرة هنا لحين حاجتي إليها.

ووضع الحقيبة على الطاولة المستديرة بجانب النافذة، ولكنه كان عملاً غير موفَّق لأن سطحها لم يكن ثابتاً، لذلك وقعت الطاولة وسقطت معها حقيبة الأوراق على الأرض. صرخ بوارو: طاولة غبية! آه يا صديقي؛ يمكن للمرء أن يعيش في بيت كبير ومع ذلك لا يحظى بأية راحة.

ثم تابع بحثه بعد عبارته المعنوية تلك، وانصبّ اهتمامه لبعض الوقت على حقيبة أوراق صغيرة حمراء كان مفتاحها موجوداً في القفل على طاولة الكتابة، فأخرج المفتاح من الحقيبة وأعطاه لي لأتفحصه. لكنني لم أرَ به شيئاً غريباً ؛ لقد كان مفتاحاً عادياً مربوطاً بسلك صغير.

ثم فحص إطار الباب الذي عبرنا منه بعد اقتحامه ليتأكد بنفسه من أن المزلاج كان مغلقاً بالفعل، وبعد ذلك ذهب إلى الباب المقابل الذي يؤدّي إلى غرفة سينثيا. كان الباب أيضاً مغلقاً بالمزلاج كما قلت له من قبل، ومع ذلك سحب المزلاج وأغلقه عدة مرات، وقد فعل ذلك بحذر شديد بحيث لا يصدر عنه أي صوت. وفجأة لفت انتباهَه شيء ما في المزلاج نفسه، ففحصه بحرص، ثم استخرج بسرعة ملقطاً صغيراً من حقيبته وسحب شيئاً دقيقاً من المزلاج فوضعه بحرص في مظروف صغير.

وعلى خزانة الأدراج كانت صينية وموقد نفطي عليه وعاء صغير. كانت هناك كمية صغيرة من سائل داكن متبقية في الوعاء، وبجانبها فنجان فارغ مع صحنه وقد تم استعمالهما. تعجّبت كيف أني لم ألاحظ ذلك من قبل؛ فهنا يوجد دليل يستحق الدراسة. وضع بوارو إصبعه بحذر في السائل وتذوقه بحذر أيضاً، ثم قال:

كاكاو على ما أظن.

ثم سار باتجاه الأغراض المبعثَرة على الأرض حيث قُلبت الطاولة التي كانت بجانب السرير. كان هنالك مصباح قراءة، وبعض الكتب، وأعواد ثقاب، ومجموعة مفاتيح، وأجزاء فنجان القهوة المحطم مبعثرة في المكان.

قال بوارو: آه، إن هذا مدهش.

قلت: يجب أن أعترف بأنني لا أرى شيئاً مدهشاً في ذلك.

قال: ألا ترى؟ لاحظ المصباح؛ إن زجاج المصباح مكسور في مكانين، لكن القطعتين موجودتان في مكانهما كما سقطتا. ولكن انظر، إن فنجان القهوة قد تحطم وأصبح كأنه غبار.

قلت بضجر: حسناً، أعتقد أن شخصاً ما قد داس عليه بقدمه وطحنه.

قال بوارو بصوت غريب: تماماً؛ شخصٌ ما داس عليه.

ثم نهض واقفاً فمشى ببطء نحو رفّ الموقد حيث وقف يتلمّس بأصابعه بشرود التحفَ الموضوعة ويصفّها في خط مستقيم، وهي حركة يقوم بها عندما يكون منزعجاً. قال وهو يدور ناحيتي: يا عزيزي، شخص ما داس ذلك الفنجان وطحنه ليصبح مثل الغبار، وهو قام بذلك لسبب محدد؛ إما لأن الفنجان كان يحتوي على سم الإستركنين أو -وهو الأمر الأكثر أهمية- لأنه لم يكن يحتوي على الإستركنين!

لم أجبه، فقد كنت متحيّراً، ولكني كنت أعرف عدم جدوى الطلب منه أن يشرح ما يقول. وبعد لحظة أو اثنتين استجمع نفسه

وتابع الفحص. التقط مجموعة المفاتيح عن الأرض وتفحصها واحداً واحداً، وفي النهاية اختار أحدها (وكان لامعاً وجديداً) وحاول فتح حقيبة الأوراق الحمراء. كان المفتاح مناسباً ففتح الحقيبة، ولكنه أقفلها مرة أخرى بعد لحظة من التردد ووضع مجموعة المفاتيح كلها، بالإضافة إلى المفتاح الذي كان في الحقيبة، في جيبه وقال: لا أملك الصلاحية لفحص الأوراق التي في الحقيبة، ولكن يجب فحصها بسرعة.

ثم فحص بحذر شديد الأدراجَ الموجودة تحت المغسلة، وسار في الغرفة إلى النافذة التي تقع ناحية اليسار، فاستوقفته بقعة دائرية يمكن ملاحظتها على السجّادة بصعوبة بسبب لونها البني القاتم، وبدا أن لها أهمية خاصة. نزل على ركبتيه وهو يتفحص البقعة بدقة، حتى إنه ذهب أبعد من ذلك وتشمّمها، وفي النهاية صبّ بعض قطرات الكاكاو في أنبوبة اختبار وأغلقها بحذر.

كان عمله التالي هو إخراج دفتر ملاحظات صغير. كان يقول وهو يكتب: وجدنا في هذه الغرفة ست نقاط مثيرة. هل أعددها أنا أم تفعل أنت؟

رددت بسرعة: بل أنت.

تابع: حسناً؛ هذه النقاط هي: أولاً: فنجان قهوة ساقط على الأرض ومطحون كأنه غبار. ثانياً: حقيبة أوراق ومفتاح في قفلها. ثالثاً: بقعة على الأرض.

قاطعته قائلاً: والتي يمكن أن تكون قد حدثت منذ وقت طويل.

- لا، لأنها ما زالت رطبة ورائحتها تُظهر أنها قهوة. رابعاً: جزء من قطعة قماش خضراء داكنة، خيط واحد أو اثنان فقط ولكن يمكن التعرف عليها.

صرخت: آه، إن ذلك هو ما وضعتَه داخل المظروف.

- نعم، ويمكن أن تكون قطعة من أحد أثواب السيدة إنغلثورب فلا تكون مهمة إطلاقاً. سوف نرى. وخامساً: هذه!

وبإيماءة درامية أشار إلى بقعة كبيرة من مادة دهن الشمع على الأرض بجانب طاولة الكتابة. قال: لا يمكن أن تكون هذه البقعة قد نشأت قبل يوم أمس، وإلا لكانت الخادمة قد أزالتها في الحال بورق النشّاف والمكواة الحارة. لقد حدث يوماً أن واحدة من أفضل قبعاتي... ولكن هذا ليس موضوعنا.

قلت: من المرجَّح أنها حدثت ليلة أمس؛ لقد كنا مرتبكين جداً، أو من المحتمل أن تكون السيدة إنغلثورب نفسها قد أسقطت شمعتها على الأرض.

- لقد أحضرتم شمعة واحدة فقط إلى الغرفة، أليس كذلك؟

قلت: بلى؛ كان لورنس كافيندش يحملها ولكنه كان منزعجاً جداً، فقد لاحظ شيئاً هنا... وأشرت إلى رفّ الموقد ثم تابعت: وقد شلّه ذلك عن الحركة تماماً.

ردّ بوارو بسرعة: هذا مثير للاهتمام، وهو يوحي بشيء ما. كانت عيناه تتحركان على طول الجدار، ثم قال: ولكن

شمعته ليست هي التي سبّبت هذه البقعة الكبيرة من الشمع، لأن هذا شمع أبيض كما تلاحظ، بينما كانت شمعة السيد لورنس وردية وهي ما تزال موجودة على طاولة الزينة. ومن ناحية أخرى لا يوجد لدى السيدة إنغلثورب حامل شمع في الغرفة بل مصباح قراءة فقط.

قلت: إذن ماذا تستنتج؟

لم يُجِبْ صديقي إلا بعبارة تثير الغيظ، حيث كان يلحّ عليّ بأن أستخدم قدراتي الطبيعية. سألته: والنقطة السادسة؟ أظن أنها عينة الكاكاو.

قال بوارو بتفكّر: لا، يمكن أن أضمّ ذلك إلى رقم ستة ولكني لن أفعل. لا، سأحتفظ بالنقطة السادسة لنفسي في الوقت الحاضر.

ونظر بسرعة حول الغرفة ثم قال: لا شيء آخر نفعله هنا حسب ظني، ما لم...

ثم حدّق طويلاً إلى الرماد الموجود في الموقد، وقال: إن النار تحرق وتتلف، ولكن ببعض الحظ يمكن أن يوجد... دعنا ننظر.

وبرشاقة جثا على ركبتيه وبدأ يفرز الرماد من الموقد إلى حاجز الموقد ويحمله بحذر كبير، وفجأة أظهر علامة تعجب. قال: أعطني الملقط يا هيستنغز.

وبسرعة أعطيته الملقط فأخرج بمهارة ورقة صغيرة نصف محترقة، ثم صرخ: انظر هنا يا عزيزي! ماذا تقول عنها؟

دققت النظر في القصاصة، فرأيت أنها كانت سميكة بصورة غير عادية على خلاف ورق الملاحظات العادي، وفجأة خطرت فكرة ببالي. صرخت: بوارو، إن هذه جزء من وصية!

قال: تماماً.

نظرت إليه بحدة وقلت: لا تبدو عليك الدهشة؟

قال بحزن: نعم، فقد توقعت ذلك.

أعدت إليه الورقة وراقبته وهو يضعها في حقيبته بنفس العناية التي كان يُسبغها على كل شيء. كان عقلي في دوّامة؛ ما هذا التعقيد الذي ظهر بخصوص الوصية؟ من الذي أتلفها؟ أهو الشخص الذي ترك الشمع على الأرض؟ يبدو هذا واضحاً، ولكن كيف دخل أي شخص إلى الغرفة وجميع الأبواب كانت مغلقة بالمزلاج من الداخل؟

قال بوارو بنشاط: والآن يا صديقي سوف نذهب. أودّ أن أوجه بعض الأسئلة إلى خادمة الاستقبال دوركاس. هذا هو اسمها، أليس كذلك؟

انتقلنا إلى غرفة السيد إنغلثورب عبر الباب الفاصل بين الغرفتين، وقضى فيها بوارو وقتاً مناسباً ليقوم بتفتيش مختصر وشامل لها. ثم خرجنا من ذلك الباب وأغلقناه مع باب غرفة السيدة إنغلثورب كما كانا في السابق. بعد ذلك اصطحبت بوارو بناء على رغبته إلى الأسفل حيث حجرة جلوس الضحية، وذهبت أنا أبحث عن دوركاس. وعندما عدت معها كانت حجرة الجلوس خالية. صحت: بوارو، أين أنت؟

- أنا هنا يا صديقي.

كان قد خرج من الباب الزجاجي الكبير المؤدي إلى الحديقة ووقف متأملاً بإعجاب أمام أحواض الأزهار المختلفة الأشكال. قال بصوت منخفض: مثير للإعجاب، مثير للإعجاب؛ يا له من تناسق! لاحظ تلك الأشكال المربّعة... إن ترتيبها يسرّ الناظرين، كما أن المسافات بين النباتات أيضاً مناسبة جداً. لقد تم عملها مؤخراً، أليس كذلك؟

قلت: بلى، أظن أنها قد رُتِّبت أمس بعد الظهر. ولكن تعال وادخل، إن دوركاس هنا.

قال: حسناً، حسناً. لا تبخل عليّ بلحظة لأمتع نظري.

قلت: نعم، ولكن هذه المسألة أكثر أهمية.

قال: وكيف عرفت أن هذه النباتات الجميلة ليست لها نفس الأهمية؟

هززت كتفي، فلم يكن بالإمكان الجدال معه إذا اختار هذا الأسلوب في الحديث. قال: أنت لا توافقني، ولكن مثل هذه الأشياء لها أهميتها. حسناً، سندخل ونقابل دوركاس الشجاعة.

كانت دوركاس تقف في حجرة الجلوس ويداها معقودتان أمامها وشعرها الأشيب يظهر من تحت طاقيتها البيضاء. كانت تمثل الصورة والنموذج الصحيح للخادمة الطيبة التقليدية. كانت متشككة في موقفها تجاه بوارو، ولكنه سرعان ما أحبط دفاعاتها. سحب كرسياً إلى الأمام وقال: تفضلي واجلسي يا آنسة.

- شكراً لك يا سيدي.

- لقد كنت مع سيدتك لعدة سنوات، أليس كذلك؟

- عشر سنوات يا سيدي.

- إنه لوقت طويل وخدمة مخلصة جداً. لقد كنتِ وثيقة الصلة بها، أليس كذلك؟

- لقد كانت سيدة طيبة جداً معي يا سيدي.

- إذن فأنت لا تمانعين في الإجابة عن بعض الأسئلة، وأنا أوجّه هذه الأسئلة لك بعد أخذ موافقة السيد كافيندش الكاملة.

- آه، بالتأكيد يا سيدي.

- إذن سوف أبدأ بسؤالك عن أحداث مساء أمس. لقد تشاجرت سيدتك؟

قالت دوركاس مترددة: نعم يا سيدي، ولكنني لا أعرف إذا كان يجب عليّ...

نظر إليها بوارو بجِدّ وقال: أيتها الطيبة دوركاس، من الضروري أن أعرف كل تفصيلات تلك المشاجرة بالكامل قدر الإمكان. لا تظني أنك تخونين أسرار سيدتك. إن سيدتك قد ماتت ومن الضروري أن نعرف كل شيء إذا أردنا أن نثأر لها. لا شيء يستطيع أن يعيدها إلى الحياة، ولكننا نأمل أن نرسل القاتل إلى العدالة إذا كانت هناك جريمة.

قالت دوركاس بقوة: بالتأكيد. ومن غير أن أذكر أسماء، هناك شخص في هذا البيت لا يتحمله أي واحد منا أبداً! لقد كان

يوماً تعيساً عندما خطا على عتبة بيتنا أول مرة.

انتظر بوارو حتى هدأت نقمتها ثم استأنف كلامه بنبرة عملية؛ سأل: والآن بالنسبة لهذه المشاجرة؟ ما هو أول شيء سمعته فيها؟

- حسناً يا سيدي، لقد تصادف أن كنت أسير خارج البهو أمس...

- في أي وقت كان ذلك؟

- لا أستطيع أن أقول أي وقت بالضبط يا سيدي، ولكنه قبل موعد تناول الشاي بوقت طويل. ربما كانت الساعة الرابعة أو بعدها بقليل. حسناً يا سيدي، كما قلت: تصادف أن كنت أمر في الخارج عندما سمعت أصواتاً عالية جداً وغاضبة هنا. لم أكن أنوي التنصّت بالضبط، ولكن... حسناً، كنت كذلك، فتوقفت. كان الباب مغلقاً ولكن السيدة كانت تتكلم بصوت حاد جداً وواضح، وسمعت ما قالته بوضوح تام. قالت: "لقد كذبتَ علي وخدعتني". ولم أسمع بماذا أجابها السيد إنغلثورب. لقد كان يتكلم بصوت أخفض من صوتها، ولكنها أجابته: "كيف تجرؤ على ذلك؟ لقد آويتك وألبستك وأطعمتك! إنك تدين لي بكل شيء! هل هكذا تردّ لي الإحسان؟ بجلب العار لاسمنا؟". ومرة ثانية لم أسمع ما قاله ولكنها أكملت: "لا شيء يمكنُ أن تقوله سوف يغير الأمر. إنني أفهم واجبي بوضوح وقد حزمت أمري. لا حاجة لتعتقد أن الخوف من شيوع الخبر أو من الفضيحة بين زوج وزوجته يمكن أن يعيقني..."، ثم اعتقدت أنني سمعتهما وهما يخرجان فابتعدت مسرعة.

قال السيد بوارو: هل أنت متأكدة أنه كان صوت السيد إنغلثورب ذلك الذي سمعتِه؟

- نعم يا سيدي، صوت من يكون إذن؟

- حسناً، ماذا حصل بعدها؟

قالت: بعدها عدت إلى البهو، وكان البيت هادئاً تماماً. وفي الساعة الخامسة قرعت السيدة إنغلثورب الجرس وطلبت مني أن أحضر لها فنجاناً من الشاي إلى حجرة الجلوس، ولم تطلب طعاماً. لقد كانت تبدو مخيفة؛ شاحبة جداً ومنزعجة. قالت: "دوركاس، لقد صُدِمت جداً". قلت لها: "أنا آسفة جداً لذلك يا سيدتي، سوف تتحسنين بعد تناول فنجان من الشاي الحار الرائع يا سيدتي". كانت تحمل في يدها شيئاً ما؛ لا أعرف إذا كانت رسالة أو مجرد قطعة من الورق، ولكن كانت عليها كتابة، وكانت تمعن النظر إليها باستمرار كما لو أنها لا تكاد تصدّق ما كان مكتوباً فيها. همسَت لنفسها وكأنها نسيت أنني كنت أمامها، قالت: "هذه الكلمات القليلة، وكل شيء قد تغير". ثم قالت لي: "لا تثقي برجل أبداً يا دوركاس، إنهم لا يستحقون ذلك"! بعد ذلك أسرعت وأحضرت لها فنجاناً من الشاي الثقيل، فشكرتني وقالت إنها ستشعر بتحسن عندما تشربه. قالت: "لا أعرف ماذا أفعل، إن الفضيحة بين زوج وزوجته شيء مفزع يا دوركاس. سوف أمنعها من الذيوع لو استطعت". ثم جاءت السيدة كافيندش بعدها مباشرة، لذلك لم تقل أي شيء آخر.

قال بوارو: هل كانت لا تزال تحمل تلك الرسالة أو الورقة في يدها؟

- نعم يا سيدي.

- وماذا يُحتمَل أن تكون قد فعلت بها بعد ذلك؟

- حسناً، لا أعرف يا سيدي. أتوقع أن تكون قد وضعتها في حقيبة أوراقها الحمراء.

- أهذا المكان هو الذي تحتفظ فيه عادة بالأوراق المهمة؟

أجابت: نعم يا سيدي، كانت تحملها معها كل صباح عندما تنزل من غرفتها وتأخذها معها إلى الغرفة كل ليلة.

- ومتى أضاعت مفتاحها؟

- لقد افتقدته أمس وقت الغداء يا سيدي، وطلبت مني أن أبحث عنه بعناية. لقد كانت منزعجة جداً.

- ولكن كان عندها نسخة أخرى؟

- آه، نعم يا سيدي.

كانت دوركاس تنظر إليه بغرابة، وفي الحقيقة كنت أنا كذلك أيضاً. ما هذا الكلام عن مفتاح ضائع؟ تبسّم بوارو وتابع: لا تؤاخذيني يا دوركاس، إن عملي هو معرفة الأشياء. هل هذا المفتاح هو الضائع؟

وأخرج من جيبه المفتاح الذي وجده في قفل الحقيبة داخل الغرفة. بدت عينا دوركاس كأنهما ستخرجان من رأسها قائلة: إنه هو تماماً يا سيدي. ولكن أين وجدته؟ لقد بحثت عنه في كل مكان.

أجاب: آه، اعلمي أنه لم يكن اليوم موجوداً في نفس المكان الذي كان فيه بالأمس. والآن نريد أن ننتقل إلى موضوع آخر: هل يوجد لدى سيدتك في خزانة ثيابها ثوب لونه أخضر غامق؟

جفلت دوركاس من هذا السؤال غير المتوقَّع وقالت: لا يا سيدي.

- هل أنت متأكدة تماماً؟

- نعم يا سيدي.

- هل يوجد أحد آخر في البيت عنده ثوب أخضر؟

أجابت دوركاس: الآنسة سينثيا عندها ثوب سهرة أخضر.

- هل هو أخضر غامق أم فاتح؟

- أخضر فاتح يا سيدي، ثوب شيفون كما يسمّونه.

- آه، لا أريد هذا. ولا يوجد أحد آخر عنده أي شيء أخضر؟

- ليس على حد علمي يا سيدي.

لم تظهر على وجه بوارو أية علامة تدل على ما إذا كان قد خاب ظنه أو العكس. فقط أبدى ملاحظة قائلاً: جيد، لسوف نترك هذا وننتقل إلى الذي بعده. هل يوجد لديك أي سبب للاعتقاد بأنه من المحتمَل أن تكون سيدتك قد تناولت مسحوقاً منوِّماً الليلة الماضية؟

- ليس الليلة الماضية يا سيدي، أنا أعرف أنها لم تتناوله.

- ولماذا أنت متأكدة من كلامك؟

- لأن العلبة كانت فارغة. لقد أخذت آخر جرعة قبل يومين، ولم يتم تحضير وجبة أخرى لها.

- هل أنت متأكدة من ذلك تماماً؟

- قطعاً يا سيدي.

- إذن هذه المسألة حُسِمت! على فكرة، ألم تطلب منك سيدتك توقيع أي ورقة بالأمس؟

- التوقيع على ورقة؟ لا يا سيدي.

- عندما دخل السيد هيستنغز والسيد لورنس مساء أمس وجدا سيدتك مشغولة بكتابة الرسائل. أفترضُ أنه ليس بإمكانك إعطائي فكرة عن الأشخاص الذين كانت سترسل لهم هذه الرسائل؟

- أخشى أنني لا أستطيع إخبارك يا سيدي. لقد كنت خارج المنزل في المساء. من الممكن أن تخبرك آني بذلك، رغم أنها فتاة مهملة. إنها لم ترفع فناجين القهوة الليلة الماضية، وذلك ما يحدث عندما لا أكون هنا لأعتني بالأشياء.

رفع بوارو يده قائلاً: بما أنها قد تُركت هنا فاتركيها وقتاً أطول أرجوك، فإنني أريد أن أتفحصها.

- حسناً يا سيدي.

- متى خرجتِ من البيت مساء أمس؟

- في نحو الساعة السادسة يا سيدي.

- شكراً لك يا دوركاس؛ هذا هو كل ما أردت أن أسألك عنه.

ثم وقف ومشى إلى النافذة قائلاً: إنني معجب بهذه الورود. على فكرة، كم بستانياً يعمل هنا؟

قالت دوركاس: ثلاثة فقط الآن يا سيدي. كان لدينا خمسة قبل الحرب حيث كانت الحديقة كما ينبغي أن تكون في منزل سيد نبيل، أتمنى لو أنك رأيتها حينذاك يا سيدي، كان لها شكل رائع. الآن يوجد مانِنْغ العجوز ووليَم الصغير، وامرأة ترتدي وهي تعمل الملابس الحديثة والبنطال وأمثال ذلك. آه، إن هذه أوقات عصيبة!

قال بوارو: سوف تعود الأوقات الجيدة ثانية يا دوركاس، على الأقل نحن نأمل ذلك. والآن هل يمكن أن ترسلي لي آني هنا؟

- نعم يا سيدي، شكراً لك.

سألتُه بلهفة بينما كانت دوركاس تغادر الغرفة: كيف عرفت أن السيدة إنغلثورب أخذت مسحوقاً منوماً؟ والمفتاح الضائع والنسخة؟

أجاب: واحدة واحدة. بالنسبة للمسحوق المنوِّم عرفت من هذا.

وفجأة أظهر علبة كرتون صغيرة كالتي يستخدمها الصيادلة.

فسألته: أين وجدتها؟

أجاب: في أدراج الخزانة الموجودة تحت المغسلة في غرفة نوم السيدة إنغلثورب. لقد كانت رقم «٦» في دفتر ملاحظاتي.

قلت: ولكن -كما أظن- بما أن آخر جرعة قد أُخذت قبل يومين فإن هذه لن تكون مهمة جداً؟

- من المحتمل أن لا تكون مهمة، ولكن هل تلاحظ أي شيء غريب يمكن أن يشدّك بخصوص هذه العلبة؟

تفحصتها من قرب وقلت: لا، لا أستطيع أن ألاحظ شيئاً.

قال: انظر إلى الملصَق على العلبة.

قرأت الملصق بحرص، كان مكتوباً عليه: «جرعة واحدة تؤخَذ وقت النوم، عند الحاجة، السيدة إنغلثورب». قلت: لا، لا أرى أي شيء غير عادي.

- ولا حتى عدم وجود اسم الصيدلي عليها؟

تعجبت قائلاً: آه، بالتأكيد إن هذا غريب.

- هل عرفت صيدلانياً في حياتك يرسل علبة مثل هذه دون أن يكون اسمه مطبوعاً عليها؟

- لا، لا يوجد.

بدأت أتحمس تماماً، ولكن بوارو أخمد حماستي عندما قال: ورغم ذلك فإن التفسير بسيط جداً، لذلك لا تشغل نفسك يا صديقي.

سمعت خطوات آني وهي تقترب، لذلك لم يكن لديّ وقت للإجابة. كانت آني فتاة جميلة طويلة، وكان يبدو عليها أنها تتحرك بتأثير الانفعال الشديد الممزوج بنوع من الاستمتاع الشرير بالمأساة. دخل بوارو في الموضوع في الحال وبنبرة عمل حادّة، قال: لقد أرسلت في طلبك يا آني لأنني أظن أن باستطاعتك أن تخبريني شيئاً عن الرسائل التي كتبَتها السيدة إنغلثورب الليلة الماضية. كم كان عددها؟ وهل يمكنك أن تخبريني عن أسماء وعناوين الأشخاص الذين أرسلت إليهم؟

فكرت آني وقالت: كانت هناك أربع رسائل يا سيدي، واحدة كانت للآنسة هاوارد، وواحدة للسيد ويلز المحامي، والباقيتان لا أظن أنني أتذكرهما يا سيدي. آه، نعم تذكرت، واحدة كانت لشركة روس، وهم متعهّدو تقديم الطعام في الحفلات في تادمينستر، والرسالة الأخيرة لا أتذكرها.

ألحّ عليها بوارو قائلاً: فكّري!

أرهقت آني تفكيرها عبثاً وهي تتذكر ثم قالت: أنا آسفة يا سيدي، لقد ذهبت من رأسي، لا أظن أنني لاحظتها.

قال بوارو وهو لا يبدي أي علامة خيبة أمل: لا يهم. والآن أريد أن أسألك عن بعض الأشياء الأخرى: يوجد وعاء صغير في غرفة السيدة إنغلثورب وفي داخله بعض الكاكاو. هل كانت تتناول ذلك كل ليلة؟

قالت: نعم يا سيدي، كان يوضع في غرفتها كل مساء وكانت تسخّنه عندما كانت ترغب بشربه خلال الليل.

- وماذا كان فيه؟ هل كان الكاكاو فقط؟

- نعم يا سيدي، الكاكاو بالحليب مع ملعقة من السكر.

- ومن الذي يأخذه إلى غرفتها؟

- أنا يا سيدي.

- دائماً؟

- نعم يا سيدي.

- في أي وقت؟

- عندما كنت أذهب لأسدل الستائر عادة يا سيدي.

- هل أحضرته مباشرة من المطبخ؟

- لا يا سيدي، فحيث إنه لا يوجد متسع من المكان على موقد الغاز فقد اعتاد الطاهي على عمل الكاكاو مبكراً قبل طبخ الخضار الخاصة بالعشاء، ثم كنت آخذه إلى الأعلى وأضعه على الطاولة بجانب الباب الدوار، ثم آخذه إلى غرفتها فيما بعد.

- والباب الدوار موجود في الجناح الأيسر من البيت؟

- نعم يا سيدي.

- والطاولة، هل هي على هذا الجانب من الباب أم على الجانب الأبعد، جانب الخدم؟

- إنها في هذا الجانب يا سيدي.

- وفي أي وقت أخذته إلى الأعلى الليلة الماضية؟

- بحدود الساعة السابعة والربع، حسب ظني يا سيدي.

- ومتى أخذته إلى غرفة السيدة إنغلثورب؟

- عندما ذهبت لأغلق الستائر يا سيدي، في نحو الساعة الثامنة مساء. وقد جاءت السيدة إنغلثورب إلى السرير قبل أن أنتهي من عملي في غرفتها.

- ثم بين الساعة السابعة والربع والثامنة كان الكاكاو على الطاولة في الجناح الأيسر؟

- نعم يا سيدي.

كان وجه آني يزداد احمراراً، والآن انفجرت على نحو غير متوقَّع قائلة: وإذا كان فيه ملح يا سيدي فإنه ليس مني... أنا لم أضع الملح بجانبه أبداً.

سأل بوارو: ما الذي جعلك تعتقدين أن في داخله ملحاً؟

- لأنني رأيته على الصينية يا سيدي.

- هل رأيت بعض الملح على الصينية؟

- نعم، كان يبدو أنه ملح طعام خشن. لم ألاحظه عندما أخذت الصينية إلى أعلى، ولكن عندما جئت لأخذها إلى غرفة السيدة لاحظته في الحال، وكان من الواجب عليّ أن أعيدها إلى المطبخ مرة أخرى وأطلب عمل كاكاو طازج، ولكني كنت مستعجلة لأن دوركاس كانت في الخارج، كما أنني اعتقدت أن الكاكاو نفسه لا يوجد فيه شيء وأن الملح انسكب على الصينية فقط، لذلك مسحت الصينية بمريلتي وأخذتها إلى الغرفة.

كنت أجد صعوبة بالغة في السيطرة على انفعالي؛ فبدون أن تعلم آني زوّدَتنا بجزء مهم من الدليل. كيف سيكون شعورها إذا علمت أن هذا الذي تظنه ملحَ طعام خشناً كان سم الإستركنين، أحد أفتك أنواع السموم التي عرفها الإنسان. دُهِشتُ لهدوء بوارو؛ لقد كانت سيطرته على نفسه مدهشة. انتظرت سؤاله التالي بنفاد صبر ولكنه خيّب ظني، سألها: عندما دخلتِ إلى غرفة السيدة إنغلثورب هل كان الباب الذي يؤدي إلى غرفة الآنسة سينثيا مغلقاً بالمزلاج؟

- آه، نعم؛ لقد كان دائماً كذلك، لم يكن يُفتَح أبداً.

- والباب الذي يؤدي إلى غرفة السيد إنغلثورب؟ هل لاحظت إذا كان موصَداً بالمزلاج أيضاً؟

ترددت آني: لا أستطيع الجزم بذلك يا سيدي، لقد كان مغلقاً ولكني لا أستطيع أن أقول إذا كان موصَداً بالمزلاج أم لا.

- عندما غادرتِ الغرفة أخيراً، هل أغلقَت السيدة إنغلثورب الباب بعدك بالمزلاج؟

- لا يا سيدي، ليس بعد خروجي مباشرة، ولكني أتوقع أنها أغلقته بالمزلاج فيما بعد. إنها تغلقه في الليل عادة، أقصد الباب الذي يؤدي إلى الممر.

- هل لاحظت أي أثر لدهن شمعة على الأرض عندما رتبت الغرفة بالأمس؟

- دهن شمعة؟ آه، لا يا سيدي. لم يكن لدى السيدة إنغلثورب شمعة في غرفتها، فقط مصباح قراءة.

- إذن لو كانت هناك بقعة كبيرة من دهن الشمع على الأرض هل تعتقدين أنك كنت ستلاحظينها؟

- نعم يا سيدي، وكان يمكن أن أزيلها بورق النشاف والمكواة الحارة.

ثم كرر بوارو السؤال الذي وجهه إلى دوركاس: هل كان لدى سيدتك ثوب أخضر؟

- لا يا سيدي.

- ولا معطف أو كاب أو... ماذا تسمونه؟ معطف رياضي؟

- ليس أخضر يا سيدي.

- ولا أي واحد آخر في البيت؟

فكرت آني ثم قالت: لا يا سيدي.

- هل أنت متأكدة من ذلك؟

- متأكدة تماماً.

- حسناً؛ هذا هو كل ما أردت معرفته. شكراً جزيلاً لك.

وبضحكة عصبية خرجت آني من الغرفة مسرعة، وبعدها انفجرت دهشتي المكبوتة فصرخت: بوارو، أهنئك! إن هذا اكتشاف عظيم.

قال: ما هو هذا الاكتشاف العظيم؟

قلت: الكاكاو هو الذي سُمِمَ وليس القهوة. إن هذا يوضح

كل شيء! بالطبع تأخر تأثير السم لحين الصباح الباكر طالما أن الضحية شربت الكاكاو في منتصف الليل.

رد قائلاً: وهكذا فأنت تعتقد أنه الكاكاو؟ لاحظ جيداً ما أقول يا هيستنغز: **الكاكاو** كان يحتوي على الإستركنين؟

أجبت: بالطبع! ذلك الملح على الصينية، ما الذي يمكن أن يكونه غير ذلك؟

قال بوارو بهدوء: من الممكن أن يكون ملحاً بالفعل.

هززت كتفي استهجاناً، فإذا كان يريد أن يأخذ المسألة بهذه الطريقة فليس من المجدي مجادلته. مرت بذهني فكرة، ليس لأول مرة، وهي أن بوارو العجوز المسكين كان يشيخ! وفي داخلي اعتقدت أنه كان محظوظاً لأنه ضم إليه شخصاً آخر له عقل أكثر تفتّحاً من عقله.

كان بوارو ينظر إليّ بهدوء وبعيون لامعة، ثم قال: أنت لست مسروراً مني يا صديقي؟

قلت ببرود: عزيزي بوارو، ليس لي أن أملي عليك ما تفعله. إن لك الحق في تكوين رأي خاص كما أن لي مثل هذا الحق أيضاً.

قال بوارو ملاحظاً وهو يقف فجأة: هذه عاطفة محمودة جداً. لقد انتهيت الآن من هذه الغرفة. على فكرة، لمن هذا المكتب الصغير الموجود في الزاوية؟

قلت: للسيد إنغلثورب.

حاول فتح دُرْج المكتب ثم قال: إنه مقفل، ولكن قد يفتحه واحد من مفاتيح السيدة إنغلثورب.

جرب عدة مفاتيح وهو يديرها ويلفها بيد مجرّبة، وفي النهاية صدرت عنه علامة رضا وقال: ذاك هو! إنه ليس المفتاح الأصلي ولكنه سوف يفتحه عند الاضطرار.

رفع الغطاء المنزلق للمكتب وألقى نظرة سريعة على الأوراق المرتبة في الدُّرْج، ولدهشتي لم يفحصها، بل لاحظها فقط باستحسان بينما كان يعيد إغلاق المكتب وقال: بلا شك، إنه لرجل صاحب أسلوب ذلك السيد إنغلثورب!

وفي تقييم بوارو فإن رجلاً «صاحب أسلوب» تعتبر أكبر مديح يمكن أن يوصف به أي شخص. شعرت أن صديقي لم يكن كما كان سابقاً بينما كان يتحدث بطريقة غير مترابطة ويقول: لا توجد في درجه طوابع. ولكن كان يمكن أن تكون موجودة يا صديقي، كان يمكن... نعم.

وجال بنظره في الغرفة ثم قال: لا يوجد شيء آخر يمكن أن تخبرنا به حجرة الجلوس هذه. إنها لم تعطِنا الكثير، هذا فقط.

وسحب مظروفاً متجعداً من جيبه وقذفه نحوي. لقد كانت وثيقة تثير التساؤل؛ مظروفاً قديماً عادياً يبدو متسخاً مع بعض كلمات مخربَشة ومكتوبة بطريقة عشوائية على ما يبدو.

* * *

الفصل الخامس
هل هو سم الإستركنين؟

سألت بوارو بلهفة: أين وجدت هذا؟

قال: في سلة المهملات. هل تعرف خط مَن هذا؟

- نعم، إنه خط السيدة إنغلثورب. ولكن ماذا يعني؟

هز بوارو كتفيه قائلاً: لا أستطيع أن أجيب، ولكنه يوحي بشيء ما.

لمعت في ذهني فكرة جامحة. هل كان من الممكن أن يكون عقل السيدة إنغلثورب مشوشاً؟ وإذا كان الأمر كذلك ألم يكن من الممكن أيضاً أنها قد انتحرت؟

كنت على وشك التصريح بهذه النظريات لبوارو عندما صرفَت كلماته انتباهي؛ قال: تعال، نريد الآن أن نفحص فناجين القهوة.

قلت له: عزيزي بوارو! ما فائدة ذلك طالما أننا نعرف الآن عن الكاكاو؟

صرخ بوارو بوقاحة: آه، ذلك الكاكاو التعيس!

وضحك بمتعة واضحة رافعاً يديه إلى السماء بيأس زائف، بطريقة اعتبرتها أسوأ ذوق من الممكن أن يصدر عنه. قلت ببرودة زائدة: وعلى أية حال، وبما أن السيدة إنغلثورب أخذت قهوتها معها إلى غرفتها فإنني لا أفهم ماذا تأمُل أن تجد، ما لم يكن لديك احتمال أننا سنجد علبة إستركنين على صينية القهوة!

تنبه بوارو في الحال، وقال وهو يتأبط ذراعي: تعال، تعال يا صديقي؛ إننا لم نأتِ إلى هنا لنتخاصم. اسمح لي أن أمتع نفسي بفنجانَي قهوتي وسوف أحترم كاكاوك. هل نعتبر ذلك صفقة؟

كان ساخراً بطريقة طريفة مما دفعني إلى الضحك، وذهبنا إلى صالة الاستقبال حيث كانت فناجين القهوة والصينية على وضعها الذي تركناها فيه. طلب مني بوارو أن أعيد باختصار مشهد الليلة الماضية، وكان يستمع بحرص شديد ويتأكد من موضع الفناجين المختلفة. قال: وهكذا وقفت السيدة كافيندش بجانب الصينية وصبت القهوة. نعم، ثم جاءت إلى جهة النافذة حيث جلستَ أنت والآنسة سينثيا. نعم، ها هي الفناجين الثلاثة، وذاك الفنجان الموجود على رف الموقد وهو مملوء إلى النصف من المحتمَل أن يكون للسيد لورنس كافيندش، وذلك الفنجان الموجود على الصينية؟

قلت: لجون كافيندش، لقد رأيته وهو يضعه هناك.

- حسناً. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة. ولكن أين فنجان السيد إنغلثورب؟

قلت: إنه لا يشرب القهوة.

- إذن فعدد جميع الفناجين محسوب ودقيق. لحظة واحدة يا عزيزي.

أخذ قطرة أو اثنتين من قاع كل فنجان بعناية شديدة فوضع كل واحدة منها في أنبوب اختبار منفصل، وتذوق كل واحد تباعاً. وتغيرت ملامح وجهه بطريقة مثيرة للتساؤل، وظهر عليه انطباع لا يمكنني وصفه إلاّ بأنه نصف حائر ونصف مرتاح. وأخيراً قال: جيد، إن هذا واضح! كانت لديّ فكرة ولكني كنت مخطئاً بلا شك. نعم، كنت مخطئاً بكل ما في الكلمة من معنى. ورغم ذلك فإنها مسألة غريبة. ولكن لا يهم!

ثم وبحركة مميزة من كتفيه صرف من عقله كل ما كان يقلقه. كان يمكنني أن أخبره من البداية أن هذا الهاجس الذي انطبع في ذهنه حول القهوة كان سينتهي إلى طريق مظلم، ولكني حبست لساني. فقبل كل شيء، وعلى الرغم من أنه كان كبيراً في السن، إلا أنه كان رجلاً عظيماً في زمانه.

قال جون كافيندش وهو يدخل من البهو: الإفطار جاهز. هل ستتناول طعام الإفطار معنا يا سيد بوارو؟

وافق بوارو. ولاحظت جون؛ لقد عاد إلى وضعه الطبيعي تقريباً، فصدمة الأحداث التي وقعت الليلة الماضية أزعجته مؤقتاً ولكن توازنه عاد إلى وضعه الطبيعي. كان رجلاً ذا خيال محدود وعلى نقيض حادّ مع أخيه الذي ربما يكون لديه خيال أوسع من اللزوم.

منذ ساعات الصباح الأولى كان جون يعمل بجِدّ؛ يرسل البرقيات (وقد ذهبت إحدى أوائلها إلى إيفيلين هاوارد) ويكتب النشرات والإعلانات للصحف، ويشغل نفسه عموماً بالواجبات الكئيبة التي تتطلبها الوفاة.

قال: هل لي أن أسأل كيف تسير الأمور؟ هل أشارت تحقيقاتكم إلى أن وفاة والدتي كانت طبيعية أم... أم أنه يجب علينا تهيئة أنفسنا للأسوأ؟

قال بوارو بحزن: أعتقد يا سيد كافيندش أنه من الأفضل لك أن لا تشغل نفسك بأية آمال زائفة. هل يمكنك أن تخبرني عن آراء أفراد الأسرة الآخرين؟

قال جون: أخي لورنس مقتنع بأننا نثير ضجة من غير سبب، وهو يقول إن كل شيء يشير إلى أنها حالة بسيطة من السكتة القلبية.

همهم بوارو بصوت هادئ: إذن فهو مقتنع بذلك؟ إن هذا مدهش، مدهش جداً. وماذا تقول السيدة كافيندش؟

مرت غمامة باهتة من أمام وجه جون وقال: لا يوجد لديّ أدنى فكرة عن رأي زوجتي عن هذا الموضوع.

حمل الجواب قسوة خاطفة في آخره. وقطع جون الصمت المربك بقوله بمجهود هادئ: هل قلت لك إن السيد إنغلثورب قد عاد؟

هز بوارو رأسه موافقاً، وتابع جون قائلاً: إنه لموقف محرج لنا جميعاً. بالطبع علينا أن نُعامله كالمعتاد، ولكن... آه، إن

أحشاء الواحد منا لتنقلب من فكرة الجلوس إلى الطعام مع قاتل محتمَل.

هز بوارو رأسه متعاطفاً معه قائلاً: أفهم تماماً؛ إنه وضع صعب جداً بالنسبة لك يا سيد كافيندش. أود أن أسألك سؤالاً واحداً: لقد برّر السيد إنغلثورب عدم عودته إلى البيت الليلة الماضية بأنه نسي المفتاح الخارجي، أليس كذلك؟

قال جون: بلى.

- أفترض أنك متأكد تماماً أنه نسي المفتاح الخارجي، أي أنه لم يأخذه معه بالفعل؟

- لا أعلم؛ فلم أفكر قط بأن أنظر إلى مكان المفتاح. نحن نحتفظ بالمفتاح دائماً في الدرج الموجود في البهو. سأذهب لأرى إن كان موجوداً هناك الآن.

رفع بوارو يده بابتسامة باهتة وقال: لا، لا يا سيد كافيندش؛ لقد فات الوقت الآن. أنا متأكد أنك ستجده. لو كان السيد إنغلثورب قد أخذه فعلاً لكان لديه الوقت الكافي ليعيده إلى مكانه خلال هذا الوقت.

- ولكن هل تظن...

- أنا لا أظن شيئاً. لو أن أحدكم تصادف وفتّش الدرج هذا الصباح قبل عودته وشاهده هناك لكان ذلك نقطة قيّمة لصالحه، هذا كل ما في الأمر.

بدا جون متحيراً، فقال بوارو باسترخاء: لا تقلق، أنا أؤكد

لك أنه لا حاجة لأن تدع هذه المسألة تزعجك. وبما أنك لطيف جداً فدعنا نذهب ونتناول الإفطار.

كان الكل مجتمعين في غرفة الطعام، وبناء على الظروف لم نكن أنا وبوارو صحبة بهيجة بطبيعة الحال. إن رد الفعل بعد أي صدمة يكون دائماً مرهقاً، وأعتقد أننا كنا نعاني من ذلك. كان الذوق والتهذيب الجيد يفرضان أن يكون سلوكنا عادياً، على الرغم من أنني لم أستطع منع نفسي من التساؤل عن ضبط النفس هذا: هل هو صعب جداً في الحقيقة؟ فلم تكن هنالك عيون حمراء ولا علامات على حزن مكبوت، وشعرت بأنني كنت مصيباً في رأيي بأن دوركاس كانت الشخص الأكثر تأثراً بالجانب الشخصي للمأساة.

مررت بنظري على ألفريد إنغلثورب الذي مثّل دور الأرمل المحروم بطريقة شعرت أنها تثير الاشمئزاز بسبب نفاقها، وتساءلت إن كان يعرف بأننا نشك فيه. بالتأكيد ما كان ليجهل هذه الحقيقة، رغم محاولاتنا إخفاءها قدر الإمكان. هل كان يحسّ بنوع من الخوف الداخلي أم أنه كان واثقاً من أن جريمته ستمرّ دون عقاب؟ بالتأكيد إن الشك الموجود في الجو المحيط به يجب أن يحذّره بأنه تحت الملاحظة.

ولكن هل كان الجميع يشكّون فيه؟ ماذا عن ماري كافيندش؟ راقبتها وهي تجلس على رأس الطاولة: رشيقة وهادئة وغامضة. وقد بدت جميلة جداً بردائها الرمادي الناعم والكشكش الأبيض على طرف الكم يغطي اليدين النحيفتين، ومع ذلك فإن وجهها يصبح -إن شاءت- كوجه أبي الهول في غموضه. بقيَت صامتة

تماماً وقلّما كانت تفتح شفتيها، ومع ذلك فقد شعرتُ بطريقة غريبة بأن شخصيتها القوية كانت تسيطر علينا جميعاً.

وسينثيا الصغيرة؟ هل هي مشبوهة؟ كانت تبدو متعَبة جداً ومريضة على ما أظن؛ كانت علامات الإرهاق والتعب ظاهرة في سلوكها بوضوح. وسألتها إن كانت مريضة فأجابت بصراحة: نعم، إنني أشعر بصداع شديد.

قال بوارو بلباقة: هل تتناولين فنجاناً آخر من القهوة يا آنسة؟ سوف تنعشك، فلا نظير لها في علاج وجع الرأس.

ثم قفز من مكانه فأخذ فنجانها. قالت سينثيا وهي تراقبه عندما أمسك ملقط السكر: لا أريد سكر.

قال: لا تريدين سكر؟ تخلّيتِ عنه بسبب الحرب، إيه؟

- لا، فأنا لم أضع سكراً في القهوة قط.

قال بوارو وهو يهمس لنفسه: سكر!

ثم أعاد الفنجان المملوء لها. أنا فقط سمعته، ثم حدقت بفضول إلى هذا الرجل الضئيل فوجدت أن وجهه قد بدت عليه تعبيرات الحماسة المكتومة، وكانت عيناه خضراوين كعينَي قط! لقد سمع أو رأى شيئاً أثّر فيه بقوة، ولكن ما هو هذا الشيء؟ في العادة أنا لا أصف نفسي بأنني أبله، ولكن يجب أن أعترف بأن أي شيء غير عادي لم يجذب انتباهي.

وخلال لحظات فُتح الباب وظهرت دوركاس، وقالت لجون: السيد ويلز يريد رؤيتك يا سيدي.

تذكرت الاسم؛ إنه المحامي الذي كتبت له السيدة إنغلثورب رسالة الليلة الماضية. نهض جون في الحال وقال لها: "أدخليه إلى مكتبي". ثم التفت إلينا موضّحاً: "إنه محامي والدتي". ثم أضاف بصوت منخفض: وهو أيضاً محقق الوَفَيات كما تعرفون. ربما تودّون أن تأتوا معي؟

وافقنا وتبعناه خارج الغرفة. تقدم جون، وانتهزت الفرصة لأهمس لبوارو: إذن فسوف يجري تحقيق؟

أومأ بوارو برأسه في شرود. كان يبدو غارقاً في التفكير لدرجة أثارت فضولي، فقلت له: ماذا في الأمر؟ إنك لا تصغي لما أقول.

قال: هذا صحيح يا صديقي، أنا قلق جداً.

- لماذا؟

- لأن الآنسة سينثيا لا تضع سكّراً في قهوتها.

- ماذا؟ لا يمكن أن تكون جاداً!

- ولكنني جادّ جداً. آه، ثمة شيء لا أفهمه. لقد كانت غريزتي صحيحة.

- أية غريزة؟

- الغريزة التي ألحّت عليّ بفحص فناجين القهوة تلك. صه! لا مزيد من الحديث الآن.

تبعنا جون إلى مكتبه وأغلق الباب خلفنا. كان السيد ويلز رجلاً لطيفاً في وسط العمر، عيونه حادة وله فم المحامي

التقليدي. قدّمَنا جون نحن الاثنين إليه وأوضح سبب حضورنا، وأضاف قائلاً: كما تفهم يا ويلز، إن هذه المسألة كلها خاصة جداً، وما زلنا نأمُل أن ننتهي إلى نتيجة مفادها عدم الحاجة لتحقيق من أي نوع.

قال السيد ويلز بلطف: تماماً، تماماً، كنت أتمنى أن أجنّبكم الألم وعلانية التحقيق، ولكن بالطبع لا يمكن تجنب ذلك إطلاقاً في غياب شهادة وفاة طبية.

قال جون: نعم، أظن ذلك.

قال ويلز: إن بورشتاين رجل ذكي، وهو خبير عظيم في علم السموم كما أعتقد.

قال جون بنوع من الجفاف: "بالفعل". ثم أضاف بتردد: هل سنضطر إلى الظهور كشهود؟ أقصد جميعنا؟

قال ويلز: أنت بالطبع، والسيد إنغلثورب أيضاً.

ساد الصمت برهة قصيرة قبل أن يتابع المحامي الحديث بطريقته المهذبة: وأي دليل آخر سوف يكون مجرد نقطة إثبات، إنها مجرد مسألة شكلية.

- أفهم ذلك.

ظهر على وجه جون تعبير باهت من الارتياح، وحيّرني ذلك حيث إنني لم أرَ أي داع له. وتابع السيد ويلز: إذا كنتم لا تمانعون فقد فكرت في يوم الجمعة، وهذا الموعد سيمنحنا وقتاً كافياً لإعداد تقرير الطبيب. وأعتقد أن تشريح الجثة سيتم هذه الليلة، أليس كذلك.

قال جون: بلى.

- إذن فهذا الموعد سوف يناسبكم؟

- تماماً.

- لا حاجة لأن أقول لك يا عزيزي كافيندش كم أنا متكدّر بسبب هذه المأساة المفجعة.

قاطعه بوارو وهو يتحدث لأول مرة منذ دخولنا إلى الغرفة قائلاً: ألا تستطيع أن تساعدنا في حلها يا سيدي؟

- أنا؟

- نعم، سمعنا أن السيدة إنغلثورب كتبت لك رسالة الليلة الماضية. لا بد وأنك استلمت الرسالة هذا الصباح.

- نعم استلمتها، ولكنها لا تحتوي على معلومات؛ إنها مجرد ملاحظة تطلب مني فيها أن أزورها هذا الصباح حيث تريد نصيحتي في مسألة ذات أهمية كبيرة.

- ألم تلمّح لك ماذا يمكن أن تكون هذه المسألة؟

- لم تفعل لسوء الحظ.

قال جون: هذا يدعو إلى الأسف.

وافقه بوارو بحزن: الأسف الشديد.

ثم ساد صمت، وبقي بوارو غارقاً في التفكير لبضع دقائق. وأخيراً عاد إلى المحامي مرة أخرى قائلاً: سيد ويلز، هناك سؤال واحد أرغب في أن أوجّهه إليك إذا لم يكن ذلك مخالفاً لآداب

المهنة. في حالة وفاة السيدة إنغلثورب مَن كان سيرث أموالها؟

تردد المحامي لحظة ثم أجاب: سوف يُعلَن عن ذلك في القريب العاجل، فإذا لم يمانع السيد كافيندش...

تدخل جون قائلاً: إطلاقاً.

- لا أرى أي سبب يمنعني من الإجابة عن سؤالك. بناء على وصيتها الأخيرة التي كتبتها في شهر آب (أغسطس) من العام الماضي، وبعد أن يتم دفع بعض الأموال البسيطة إلى الخدم وغيرهم، فقد أعطت كل ثروتها إلى ابن زوجها السيد جون كافيندش.

قال بوارو: ولكن -وأرجو المعذرة عن هذا السؤال يا سيد كافيندش- ألا يُعتبَر هذا ظلماً بحق ابن زوجها الآخر، السيد لورنس؟

رد ويلز: لا، لا أعتقد ذلك. يجب أن تعلم أنه بناء على شروط وصية والدهما فقد ورث جون الأملاك بينما سيحصل لورنس على مبلغ مالي كبير عند وفاة زوجة أبيه. لقد تركت السيدة إنغلثورب أموالها للولد الأكبر لأنها تعرف أنه مضطر لإدارة قصر ستايلز، وحسبما أعتقد فإن ذلك يعتبر توزيعاً عادلاً ومنصفاً.

هز بوارو رأسه متفكراً وقال: أفهم هذا، ولكني محق عندما أقول إنه بناء على القانون الإنكليزي عندكم فإن هذه الوصية تعتبر باطلة بعد زواج السيدة إنغلثورب مرة أخرى، أليس كذلك؟

أشار السيد ويلز برأسه موافقاً وقال: كنت على وشك القول -يا سيد بوارو- إن هذه الوثيقة قد صارت الآن باطلة.

فكّرَ بوارو قليلاً ثم سأل: وهل كانت السيدة إنغلثورب مدركة لهذه الحقيقة؟

- لا أعرف، ربما كانت كذلك.

قال جون بصورة غير متوقَّعة: لقد كانت تعرف، فبالأمس فقط كنا نناقش مسألة الوصايا وأنها تصبح باطلة بالزواج.

- آه، سؤال واحد آخر يا سيد ويلز: لقد استعملت عبارة «وصيتها الأخيرة»، فهل كتبت السيدة إنغلثورب عدة وصايا سابقاً؟

قال المحامي بهدوء: كانت تكتب بمعدل وصية واحدة جديدة على الأقل كل سنة. لقد كانت عرضة لتغيير رأيها بناء على مزاجها في الوصايا، فربما أرادت الآن أن تُورّث واحداً، وبعد حين تورّث شخصاً آخر في العائلة، وهكذا.

اقترح بوارو: فلنفترض أنها كتبت وصية جديدة بغير علمك لصالح شخص لم يكن عضواً في الأسرة، ولنقُل إنه الآنسة هاوارد على سبيل المثال، فهل كنت ستفاجَأ؟

- لا، على الإطلاق.

- آه.

بدا بوارو وكأنه قد استنفد أسئلته، فاقتربت منه بينما كان جون والمحامي يتناقشان في مسألة مراجعة أوراق السيدة إنغلثورب وسألته بصوت منخفض وبطريقة فضولية بعض الشيء: هل تعتقد أن السيدة إنغلثورب قد كتبت وصية تترك فيها جميع

أموالها للآنسة هاوارد؟

تبسم بوارو وقال: لا.

- إذن لماذا سألت؟

- اسكت!

التفت جون كافيندش إلى بوارو قائلاً: هل تأتي معنا يا سيد بوارو؟ نحن ذاهبان لفحص أوراق والدتي. إن السيد إنغلثورب يرغب تماماً بتفويض المسألة كلياً للسيد ويلز ولي أنا شخصياً.

غمغم المحامي: وهذا يبسّط الأمور كثيراً.

أوضح جون: سوف نفحص المكتب الموجود في حجرة الجلوس أولاً، وبعد ذلك نصعد إلى غرفة نومها. لقد كانت تحتفظ بجميع أوراقها المهمة في حقيبة حمراء، ويجب أن نفتشها بعناية.

قال المحامي: نعم، من المحتمَل جداً أن تكون فيها وصية أحدث من تلك التي عندي.

قال بوارو: توجد وصية أحدث من التي عندك.

نظر جون والمحامي إليه فزعَين وهتفا معاً: ماذا؟

تابع صديقي قوله بهدوء: أو ربما كانت هناك واحدة.

- ماذا تقصد بكلمة «كانت»؟ أين هي الآن؟

- لقد أُحرقت.

- أُحرقت؟!

- نعم؛ انظر هنا.

ثم أخرج قصاصة الورق المتفحّمة التي وجدناها في الموقد في غرفة السيدة إنغلثورب وأعطاها للمحامي مع شرح مختصر لظروف العثور عليها.

قال المحامي: ولكن من المحتمل أن تكون هذه وصية قديمة؟

- لا أعتقد ذلك، بل أنا في الحقيقة شبه متأكد من أنها لم تُكتَب أبعد من مساء الأمس.

صرخ الرجلان في وقت واحد: ماذا؟ مستحيل!

التفت بوارو إلى جون قائلاً: سوف أثبت لك ذلك، إذا سمحت لي أن أطلب حضور بستانيَّي حديقتكم.

- آه، بالطبع. ولكني لا أفهم...

رفع بوارو يده قائلاً: افعل ما أطلبه منك، وبعد ذلك يمكنك أن تسأل ما تشاء.

قال: حسناً جداً.

ثم ضرب الجرس. وعندما جاءت دوركاس قال لها جون: دوركاس، هلاّ طلبت منماننغ أن يحضر إلى هنا للحديث معي؟

- نعم يا سيدي.

خرجت دوركاس وانتظرنا في صمت متوتر. كان بوارو

وحده الذي يبدو مرتاحاً تماماً، وقام بنفض الغبار عن زاوية مَنسيّة في خزانة الكتب. كان وقع الخطوات المسموعة على الحصى في الخارج يُنبئ بقدومماننغ، ونظر جون متسائلاً إلى بوارو، فهزّ الأخير رأسه. قال جون: ادخل يا ماننغ، أريد أن أتحدث إليك.

دخل ماننغ ببطء وتردد من خلال النافذة الزجاجية الكبيرة ووقف بجانبه قدر الإمكان. كان يحمل قبعته بيديه وهو يدوّرها بعناية مراراً وتكراراً، وكان ظهره مَحنياً على الرغم من أنه لم يكن متقدماً في السن بقدر ما يبدو عليه، ولكن عينيه كانتا حادتين وذكيتين وفي تناقض مع كلامه الحذر البطيء.

قال جون: ماننغ؛ هذا السيد يريد أن يوجه إليك بعض الأسئلة وأريدك أن تجيب عليها.

غمغم ماننغ: نعم يا سيدي.

تقدم بوارو باتجاهه بثبات، فنظر إليه ماننغ بازدراء باهت. سأله بوارو: لقد كنت تزرع بعض الأزهار في الجانب الجنوبي من البيت بعد ظهر أمس، أليس كذلك يا ماننغ؟

- بلى يا سيدي، أنا ووليم.

- وجاءت السيدة إنغلثورب إلى النافذة ونادتكما، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي؛ لقد فعلت ذلك.

- قل لي بكلماتك أنت: ماذا حدث بعد ذلك بالضبط؟

- حسناً يا سيدي، لم يحدث الكثير. لقد طلبَت من وليم أن

يذهب بدرّاجته إلى القرية وأن يُحضر معه نموذج وصية أو شيئاً كذلك... لا أعرف ما هو بالضبط فقد كتبَت له اسمه على ورقة.

- حسناً؟

- حسناً، لقد ذهب وأحضر المطلوب يا سيدي.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- ثم تابعنا زراعة الأزهار يا سيدي.

- ألم تُنادِكما السيدة إنغلثورب مرة أخرى؟

- بلى يا سيدي، نادتني أنا ووليم.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- طلبت منا أن ندخل عندها وأن نوقع أسماءنا في أسفل ورقة طويلة حيث كانت ممهورة بتوقيعها في الأسفل.

سأله بوارو بحدّة: وهل رأيت أي شيء كان مكتوباً فوق توقيعها؟

- لا يا سيدي، كانت هناك ورقة نشّاف تغطي ذلك الجزء المكتوب.

- وهل وقّعتَ في المكان الذي عيّنَته لك؟

- نعم يا سيدي، وقعت أنا أولاً ثم وليم.

- وماذا فعلَت بالورقة بعد ذلك؟

- حسناً يا سيدي، لقد وضعتها في مظروف طويل ووضعته

في شيء كأنه صندوق أحمر كان فوق على الطاولة.

- وكم كان الوقت عندما طلبتك في المرة الأولى؟

- نحو الساعة الرابعة حسب ظني يا سيدي.

- ليس قبل ذلك؟ هل من المحتمل أن يكون الوقت نحو الثالثة والنصف؟

- لا، لا أستطيع أن أقول ذلك يا سيدي. من المحتمل أن يكون الوقت بعد الرابعة بقليل وليس قبلها.

قال بوارو مسروراً: شكراً لك ياماننغ، هذا كل شيء.

التفت البستاني إلى سيده الذي هزّ رأسه، فرفع ماننغ إصبعاً إلى رأسه للتحية مع تمتمة منخفضة، ثم تراجع بحذر خارجاً.

نظر كل واحد منا إلى الآخر، وتمتم جون: يا إلهي، يا لها من مصادفة غير عادية!

قلت: مصادفة؟ كيف؟

- أن تكتب أمي وصيتها قبل يوم واحد فقط من وفاتها!

تنحنح السيد ويلز وقال بطريقة جافة: وهل أنت متأكد تماماً أنها كانت مصادفة يا كافيندش؟

- ماذا تقصد؟

- إن أمك -كما أخبرتَني- قد تشاجرت مشاجرة عنيفة مع شخص ما مساء أمس...

صرخ جون: ماذا تقصد؟

كانت في صوته رجفة وأصبح وجهه شاحباً جداً، وأضاف ويلز: ونتيجة لتلك المشاجرة تقوم أمك فجأة وبسرعة بكتابة وصية جديدة. وأحسب أننا لن نعرف محتويات هذه الوصية أبداً، فهي لم تخُبر أحداً بنصوصها. بلا شك كانت سوف تستشيرني بخصوص ذلك الموضوع صباح اليوم، ولكنها لم تملك الفرصة. الوصية اختفت وأخذت المتوفاةُ سرَّها معها إلى قبرها. سيد كافيندش، أخشى أن لا تكون في الأمر مصادفة. يا سيد بوارو، أنا واثق أنك توافقني أن الحقائق قابلة للتأويل جداً.

قاطعه جون قائلاً: قابلة للتأويل أو غير قابلة للتأويل، نحن شاكرون جداً للسيد بوارو لتوضيحه المسألة، فلولا وجوده ما كنّا لنعرف بهذه الوصية أبداً. لا أظن أن باستطاعتي أن أسألك -يا سيد بوارو- عن الذي دفعك لأن ترتاب في هذه الحقيقة أصلاً؟

ابتسم بوارو وأجاب: إنها تلك الخربشة فوق مغلف قديم وحوض أزهار مزروع حديثاً.

كنت أعتقد أن جون سوف يلحّ في أسئلته أكثر، ولكن في تلك اللحظة سمعنا صوتاً عالياً لمحرك سيارة، فالتفتنا جميعاً إلى النافذة عندما مرّت قريباً منا. صرخ جون: إيفي! اسمح لي يا ويلز.

ذهب مسرعاً خارج الغرفة إلى البهو، ونظر بوارو إليّ متسائلاً فأوضحت له قائلاً: إنها الآنسة هاوارد.

قال: آه، أنا مسرور لأنها جاءت. إنها امرأة ذات عقل وقلب.

فعلت ما فعله جون وذهبت خارجاً إلى البهو حيث كانت الآنسة هاوارد تحاول أن تخلّص نفسها من النقاب الذي كان مُسدَلاً على وجهها، وعندما وقعت عيناها عليّ انتابتني فجأة وخزة من الشعور بالذنب. هذه هي المرأة التي حذّرتني بشدة، ولكني للأسف لم ألتفت إلى تحذيرها، بل لقد صرفتُه من ذهني بسرعة وبقلّة تقدير. والآن وقد ثبت أن كلامها تحقق بطريقة مأساوية جداً شعرت بالخجل. لقد عرفَت ألفريد إنغلثورب معرفة جيدة جداً، وتساءلت في نفسي: هل كانت المأساة ستحدث لو أنها بقيت في ستايلز أم أن القاتل كان سيخاف من عيونها التي ترصده؟

ارتحت عندما صافحتني بيدها ذات القبضة المؤلمة التي أتذكرها جيداً، وعيونها التي قابلت عيوني كانت حزينة ولكنها غير مؤنّبة. وبدا من الواضح أنها كانت تبكي بمرارة لأن هذا ما أظهرته جفونها الحمراء، ولكن طريقتها الفظة القديمة لم تتغير؛ قالت: تحركت منذ اللحظة التي تلقيت فيها البرقية. خرجت من مناوبتي الليلية. استأجرت سيارة... أسرع طريقة للوصول إلى هنا.

سألها جون: هل تناولت أي شيء هذا الصباح يا إيفي؟

- لا.

- اعتقدت ذلك. هيا إذن، إن مائدة الإفطار لم تُرفَع بعد، وسوف يحضرون لك الشاي الحار.

ثم التفت ناحيتي فقال: اعتنِ بها يا هيستنغز، إن ويلز ينتظرني. آه، ها هو السيد بوارو، إنه يساعدنا كما تعرفين يا إيفي.

صافحت الآنسة هاوارد بوارو، ولكنها ألقت بنظرها على جون بطريقة فيها ريبة وقالت: ماذا تقصد بقولك «يساعدنا»؟

- إنه يساعدنا في التحقيق.

- لا شيء يستدعي التحقيق. ألم يأخذوه إلى السجن بعد؟

- يأخذوا مَن إلى السجن؟

- من؟ ألفريد إنغلثورب بالطبع!

- عزيزتي إيفي، كوني حريصة في كلامك. إن لورنس يرى أن أمي قد ماتت بالسكتة القلبية.

ردّت الآنسة هاوارد بسرعة: يا له من أحمق كبير لورنس هذا! بالطبع إن ألفريد إنغلثورب قد قتل المسكينة إيميلي، كما كنت أخبركم دائماً أنه سيفعل.

- عزيزتي إيفي، لا تصرخي هكذا؛ فمهما كان ما نشك به أو نعتقده فمن الأفضل أن نحرص على كلامنا قدر الإمكان في الوقت الحالي. إن التحقيق لن يجرى حتى يوم الجمعة.

كانت الشَّخرة التي أصدرتها الآنسة هاوارد معبِّرة تماماً، وبعدها قالت: لا ينبغي انتظار التحقيق التافه. أنتم جميعاً بلا عقول. إن الرجل سيهرب من البلد قبل هذا الموعد. لو كان عنده أي تمييز فإنه لن يبقى هنا كالحمَل الوديع وينتظر إعدامه.

نظر جون كافيندش إليها يائساً، فاتهمته قائلة: أعرف ما الأمر؛ لقد كنت تستمع إلى كلام الأطباء. يحسن أن لا تستمع إليهم. ماذا يعرفون؟ لا شيء على الإطلاق، أو يعرفون فقط ما

يجعلهم مصدر خطر. إنني أعرف ذلك، فقد كان والدي طبيباً. إن ويلكنز ذاك هو تقريباً أكثر الرجال الذين رأيتهم حماقة. سكتة قلبية! هذا كل ما كان يمكنه قوله. إن أي شخص ذا إحساس سوف يعرف في الحال أن زوجها قد سممها. كنت دائماً أقول إنه سوف يقتلها في سريرها، تلك المسكينة... والآن قد فعل. وكل ما تستطيعون فعله هو الثرثرة حول أشياء غبية مثل «سكتة قلبية» وتحقيق يوم الجمعة. كان يجب أن تخجل من نفسك يا جون كافيندش.

سألها جون: ماذا تريدينني أن أفعل؟

ولم يستطع أن يسيطر على ابتسامة باهتة، ثم تابع: بئس هذا الأمر يا إيفي، فأنا لا أستطيع أن أقبض عليه من رقبته وأسلمه إلى مركز الشرطة.

قالت إيفي: حسناً، يمكنك أن تفعل شيئاً. اكتشف كيف فعلها. إنه متسول ماكر. تشجع وقل إنه كان ينقع ورق الذباب اللاصق بالسم. اسأل الطاهية إذا كانت قد فقدت أياً من هذه الأوراق.

لقد ظهر لي بوضوح شديد في تلك اللحظة أن محاولة الإبقاء على الآنسة هاوارد وألفريد إنغلثورب تحت سقف واحد والمحافظة على الهدوء بينهما كان تقريباً عملاً يحتاج إلى هرقل، لذلك لم أحسد جون على موقفه، واستطعت أن أرى من خلال تعبيرات وجهه أنه كان يقدّر صعوبة الموقف كلياً. وفي تلك اللحظة بحث عن الملاذ بالتراجع، لذلك ترك الغرفة مسرعاً.

أحضرت دوركاس الشاي الحار، وحين كانت تغادر الغرفة

جاء بوارو من جهة النافذة حيث كان يقف وجلس مواجهاً للآنسة هاوارد، ثم قال لها بصوت رزين: آنسة، أريد أن أسألك شيئاً.

قالت وهي تنظر إليه ببعض الامتعاض: اسأل.

- أريد أن أطمئنّ إلى مساعدتك لي.

- سوف أساعدك لتشنق ألفريد مع المتعة. الشنق كثير عليه، يجب أن يتم إغراقه ويقُطَّع كما كانوا يصنعون في الأزمنة القديمة الجميلة.

قال بوارو: إذن فكلانا يريد هدفاً واحداً، لأنني أنا أيضاً أريد أن أشنق المجرم.

- ألفريد إنغلثورب؟

- سواء هو أو غيره.

- لا يوجد غيره. إن إيميلي المسكينة لم تُقتَل إلا حين جاء هو إلى البيت. أنا لا أقول إنها لم تكن محاطة بأسماك القرش، فلقد كانت كذلك. لكنهم كانوا يريدون ثروتها فقط، أما حياتها فقد كانت بمأمن، ولكن إلى أن جاء السيد ألفريد إنغلثورب، وفي خلال شهرين حدث الأمر بسرعة!

قال بوارو بحرارة: صدّقيني يا آنسة هاوارد، إذا كان السيد إنغلثورب هو الرجل المطلوب فإنه لن يهرب مني أبداً، وأقسم لك بشرفي أنني سوف أشنقه!

قالت الآنسة هاوارد بحماسة أكثر: هذا أفضل.

- ولكن لا بد أن أطلب منك أن تثقي بي. إن مساعدتك

الآن ربما تكون ذات قيمة كبيرة بالنسبة لي، وسوف أخبرك لماذا؛ لأنه رغم الحزن الذي يعم أرجاء البيت إلاّ أن عيونك هي الوحيدة التي دمعت عليها.

طرفت الآنسة هاوارد بعينها وتسللت نبرة جديدة إلى صوتها الخشن وهي تقول: إذا كنت تقصد أنني كنت مولعة بها فنعم، لقد كنت كذلك. هل تعرف؟ إن إيميلي كانت عجوزاً أنانية في أسلوبها. كانت كريمة جداً ولكنها كانت دائماً تريد المقابل، ولم تكن لتدع الناس ينسون صنيعها لهم، وبهذه الطريقة افتقدت الحب. لا أظن أنها أدركت ذلك قطّ أو أنها حتى شعرت بنقص ذلك الحب. آمل ذلك على أية حال. لكنني كنتُ ذات موقف مختلف وأخذت موقفي منذ البداية. كنت أقول لها: "إنني بالنسبة لك أساوي مبلغاً معدوداً من الجنيهات. حسناً، ولكنك لم تُعطِني بنساً واحداً زيادة، ولا حتى زوجاً من القفازات أو تذكرة مسرح". ولم تفهم، بل كانت تشعر بالإهانة في بعض الأحيان. قالت بأنني كنت فخورة بنفسي بحماقة. ولم يكن الوضع كذلك، ولكني لم أستطع التوضيح. وعلى كل حال فقد حافظت على احترام ذاتي. وهكذا فمن بين المجموعة كلها كنت الوحيدة التي تسمح لنفسها بأن تحبها. لقد كنت أحرسها، وحميتها خوفاً منهم جميعاً، ثم جاء الوغد صاحب اللسان الذَّرِب. وهكذا ذهبت كل سنوات الإخلاص هباء.

هز بوارو رأسه متعاطفاً وقال: إنني أفهم يا آنسة، أفهم مشاعرك، إنها طبيعية جداً. أنت تعتقدين أننا فاترون ونحتاج إلى نار وطاقة، ولكن ثقي بي، إن الأمر ليس كذلك.

تدخل جون في هذا الوقت ودعانا لكي نصعد إلى غرفة السيدة إنغلثورب بعد أن فرغ هو والسيد ويلز من تفتيش المكتب الموجود في حجرة الجلوس، وحين كنا نصعد الدرج نظر جون إلى غرفة الطعام خلفه وخفض صوته قائلاً بصوت خافت: انظر ماذا سيحدث عندما يلتقي هذان معاً؟

هززت رأسي يائساً فأضاف: لقد طلبت من ماري أن تبعد كلاً منهما عن الآخر قدر المستطاع.

قلت: و هل ستكون قادرة على ذلك؟

- الله وحده يعلم. هناك شيء واحد: إن إنغلثورب نفسه لن يكون متحمساً لمقابلتها.

سألت بعد أن وصلنا إلى باب الغرفة المقفلة: المفاتيح ما زالت عندك، أليس كذلك يا بوارو؟

أخذ جون المفاتيح من بوارو وفتح الباب، ودخلنا جميعاً. ذهب المحامي مباشرة إلى المكتب وتبعه جون قائلاً: كانت أمي تحتفظ بمعظم أوراقها المهمة في هذه الحقيبة على ما أعتقد.

أخرج بوارو مجموعة المفاتيح الصغيرة وقال: اسمح لي، لقد أقفلتها بالمفتاح كإجراء وقائي هذا الصباح.

قال جون: ولكنها ليست مقفلة الآن.

- مستحيل!

- انظر.

ورفع جون غطاء الحقيبة، فصرخ بوارو مصعوقاً: يا له من أمر عجيب! كان كلا المفتاحين في جيبي!

جذب الحقيبة، وفجأة تصلب مكانه وقال: لقد كُسر هذا القفل!

- ماذا؟

ثم وضع بوارو الحقيبة ثانية.

ولكن من كسره؟ ولماذا يفعلون ذلك؟ ومتى؟ ولكن الباب كان مقفلاً!

هذه الاستفسارات صدرت عنا بصورة متقطعة، وقد تولى بوارو الإجابة عليها تفصيلياً وبأسلوب آلي تقريباً. قال: من؟ هذا هو السؤال. ولماذا؟ آه لو كنت أعرف. ومتى؟ منذ أن كنت هنا قبل ساعة من الآن. وبالنسبة لكون الباب مقفلاً فإنه قفل عادي، ومن المحتمل أن يكون أيُّ مفتاح لباب آخر في هذا الممر مناسباً لفتح هذا الباب.

نظر كل منا إلى الآخر بدهشة بالغة، وسار بوارو إلى رفّ الموقد. كان هادئاً من حيث الظاهر، ولكني لاحظت أن يديه اللتين تعملان بصورة آلية في ترتيب صفّ المزهريات المبعثَرة فوق رفّ الموقد كانتا ترتجفان بشدة. وأخيراً قال: إن الموضوع كالتالي؛ كان هناك شيء ما في الحقيبة، جزء من دليل، ربما يكون صغيراً جداً بحد ذاته ولكنه كافٍ -مع ذلك- ليكون دليلاً يربط المجرم بالجريمة. لقد كان من الحيوي بالنسبة له أن يتلفه قبل اكتشافه ومعرفة محتواه، ولذلك خاطر مخاطرة كبيرة بالمجيء إلى هنا، وعندما وجد الحقيبة مقفلة كان عليه أن يكسرها، وهكذا كشف عن وجوده. ولكي يقوم بهذه المخاطرة فلا بد أن الموضوع كان مهماً جداً بالنسبة له.

- ولكن ماذا كان ذلك الدليل؟

صرخ بوارو بإيماءة غضب: آه، هذا ما لا أعرفه! وثيقة من نوع معيَّن بلا شك، ومن المحتمل أن تكون الورقة التي رأتها دوركاس في يد الضحية مساء أمس. وأنا...

ثم اشتد غضبه بسرعة وهتف: يا لي من حيوان مغفل! لقد تصرفت مثل الأبله! ما كان ينبغي أن أترك هذه الحقيبة هنا؛ كان يجب عليّ حملها وأخذها معي. آه، أحمق! والآن ها هي قد ذهبت. لقد أُتلِفت... ولكن هل أتلفت فعلاً؟ ألا يمكن أن تكون الفرصة ما زالت موجودة؟ لا ينبغي علينا أن نترك حجراً إلا ونقلبه.

ثم اندفع من الغرفة كالمجنون، وتبعته حالما تمالكت نفسي، ولكن في الوقت الذي وصلت فيه إلى أعلى الدّرَج كان قد اختفى عن الأنظار.

كانت ماري كافيندش تقف في المكان الذي يتفرع فيه الدرج وهي تحدق إلى أسفل في الاتجاه الذي اختفى فيه في البهو، وقالت: ماذا حصل لصديقك الصغير غير العادي يا سيد هيستنغز؟ لقد اندفع بقوة من أمامي كأنه ثور هائج.

فقلت بضعف: إنه منزعج بسبب شيء ما.

وفي الحقيقة لم أكن أعرف إلى أي مدى كان بوارو يريد مني التصريح. وبينما لاحظت بسمة باهتة تتجمع على فم السيدة كافيندش المعبِّر حاولت تغيير مجرى الحديث بالقول: إنهما لم يلتقيا حتى الآن، أليس كذلك؟

- من؟

- السيد إنغلثورب والآنسة هاوارد.

نظرت إليّ بارتباك وقالت: وهل تعتقد أن اجتماعهما سيكون مشكلة؟

قلت محاولاً الدفاع عن نفسي: حسناً، ألا تعتقدين ذلك؟

- لا أظن.

قالت وهي تبتسم بطريقتها الهادئة: سيعجبني رؤية مشاجرة مشتعلة. إن هذا سوف ينقّي الجو، فجميعنا في الوقت الحالي نفكر كثيراً ونتكلم قليلاً.

علقّتُ على قولها قائلاً: جون لا يعتقد ذلك، إنه حريص على إبقائهما بعيدَين.

- آه، جون.

شيء ما في نبرة صوتها ألهبني، فانطلقت أقول بلا تفكير: إن جون العجوز من معدنٍ أصيل.

تفحصتني بفضول لدقيقة أو اثنتين ثم قالت (لدهشتي الكبيرة): أنت وفيّ لصديقك، وأنا أقدّر فيك ذلك.

فاجأني قولها هذا كثيراً، فقلت لها: لكنك أنت أيضاً صديقة وفية؟

- أنا صديقة سيئة جداً.

- لماذا تقولين ذلك؟

- لأنها حقيقة؛ فأنا أكون مغرمة بأصدقائي اليوم ثم أنساهم

في اليوم التالي.

ولم أعرف ما الذي دفعني للرد عليها، ولكني كنت مغتاظاً فقلت بحماقة وسوء أدب: ورغم ذلك فإنك تَبدين لبقة دائماً مع الدكتور بورشتاين!

وفي الحال ندمت على كلماتي تلك، فقد تحجّر وجهها، وأحسست وكأن ستارة حديدية قد نزلت وغطت وجه المرأة الحقيقي. وبلا أية كلمة دارت وصعدت الدرج بسرعة بينما كنت أقف كالأبله أنظر إليها. ثم لفت انتباهي أمر أخر بسبب شجار حدث في الأسفل، وسمعت بوارو يصرخ ويشرح. وكنت مغتاظاً لأن دبلوماسيتي قد ذهبت هباء، فقد ظهر الرجل الصغير وكأنه يريد أن يُفشي سره لجميع مَن في البيت، وهو عمل كنت أشكّ في حكمته. ومرة أخرى لم أتمالك نفسي للأسف، فقد اغتظت من صديقي الذي كان عرضة لأن يفقد عقله في لحظات الإثارة. أسرعت إلى الأسفل، وحين رآني بوارو هدأ في الحال تقريباً. سحبته جانباً وقلت له: يا زميلي العزيز، هل هذا من الحكمة؟ بالتأكيد أنت لا تريد أن يعرف كل من في البيت بهذه الحادثة؟ إنك في الحقيقة تتصرف لصالح الخصم وتضرّ بنفسك.

- هل تظن ذلك يا هيستنغز؟

- أنا متأكد من ذلك.

- حسناً، حسناً يا صديقي، لسوف تكون دليلي.

- حسناً، على الرغم من أن الوقت قد فات الآن لسوء الحظ.

- فعلاً.

ظهر وكأنه يشعر بالخزي والخجل لدرجة أنني شعرت بالأسف التام، على الرغم من أنني ما زلت أعتقد أن تأنيبي له كان عادلاً وحكيماً. وأخيراً قال: حسناً، دعنا نذهب يا صديقي.

- هل انتهيت من هنا؟

- الآن نعم. هل ستمشي عائداً معي إلى القرية؟

- بكل سرور.

حمل حقيبته الصغيرة وذهبنا إلى الخارج من خلال الباب الزجاجي المفتوح في صالة الاستقبال. كانت سينثيا قد دخلت لتوّها، ووقف بوارو جانباً ليفسح لها المجال لتمر وهو يقول لها: اسمحي لي يا آنسة لدقيقة واحدة.

قالت متسائلة: نعم؟

- هل كنت تحضّرين أدوية السيدة إنغلثورب؟

ظهرت لمحة احمرار على وجهها بينما كانت تجيب بازدراء: لا.

- فقط مسحوقها المنوِّم؟

ازداد الاحمرار في وجهها وهي تجيب: آه، نعم؛ لقد أعددت لها بعض المسحوق المنوّم في إحدى المرات.

- هل هذا هو؟

وأخرج بوارو العلبة الفارغة التي كانت تحتوي على المسحوق المنوم، فهزّت سينثيا رأسها بالموافقة. وقال بوارو: هل

يمكنك أن تخبريني ماذا كانت؟ سالفونال؟ فيرونال؟

- لا ، لقد كانت مسحوق البروميد.

- آه، شكراً لك يا آنسة، عمت صباحاً.

وبينما كنا نسير بنشاط خارجَين من البيت راقبته بعيني أكثر من مرة. من ملاحظاتي السابقة له كنت أعرف أن عينيه تشعّان خضرة كعيون القطط إذا ما حدث شيء يثيره، أما الآن فإن عينيه تشعّان مثل الزمرّد. وبدأ حديثه معي أخيراً: يا صديقي، عندي فكرة صغيرة غريبة جداً، ومن المحتمَل أن تكون مستحيلة بمعنى الكلمة، ورغم ذلك فهي مناسبة.

هززت كتفيّ بلامبالاة، وفي داخلي فكرت أن بوارو كان منجذباً كثيراً لهذه الأفكار الساحرة، وفي هذه القضية كانت الحقيقة واضحة وصريحة بالتأكيد. قلت: إذن هذا هو تفسير الملصَق الفارغ على العلبة؟ إنه تفسير بسيط جداً كما قلت أنت، وفي الحقيقة فأنا أعجب لماذا لم أفكر به بنفسي.

لم يظهر أن بوارو كان يستمع إليّ، وقال وهو يشير بإصبعه إلى الخلف في اتجاه قصر ستايلز: لقد اكتشفوا دليلاً آخر هناك؛ أخبرني السيد ويلز بذلك عندما كنا نصعد الدّرَج.

- وماذا كان ذلك؟

- في دُرْج المكتب الموجود في حجرة الجلوس وجدوا وصية للسيدة إنغلثورب مؤرَّخة قبل زواجها، توصي فيها بثروتها إلى السيد ألفريد إنغلثورب. لا بد وأن تكون قد كُتبت في الوقت الذي كانا فيه مخطوبين، ولقد كانت مفاجأة تامة للسيد ويلز

وأيضاً لجون كافيندش. لقد كانت مكتوبة على إحدى نماذج الوصايا المطبوعة وبشهادة اثنين من الخدم، ولم تكن دوركاس من بينهما.

- وهل السيد إنغلثورب على علم بهذه الوصية؟

- يقول إنه لم يكن يعرف.

قلت متشككاً: يجب أن نأخذ ذلك القول بنوع من التحفظ. إن جميع هذه الوصايا مربكة كثيراً. قل لي: كيف ساعدتك تلك الكلمات المخربَشة على المظروف على اكتشاف أن الوصية قد كُتبت مساء أمس؟

ابتسم بوارو وقال: يا صديقي، عندما تكتب رسالة ما، هل تستوقفك كلمة لا تعرف كيفية تهجئتها؟

- نعم، أحياناً كثيرة، وأظن أن كل شخص يواجه هذه المشكلة.

- تماماً. وفي هذه الحالة ألا تجرب كتابة الكلمة على حافة ورقة النشاف أو على ورقة مهمَلة خارجية مرة أو مرتين لترى إن كانت كتابتها صحيحة أم لا؟ حسناً، هذا ما فعلَته السيدة إنغلثورب. سوف تلاحظ أنها قد كتبت أكثر من كلمة على سبيل التجربة، ومنها كلمة «أمتلك» التي كتبتها منفردة في المرة الأولى ثم بعد ذلك كتبتها في جملة «كل ما أمتلك». والآن على ماذا يدلني ذلك؟ إنه يدلني على أن السيدة إنغلثورب قد استعملت هذه الكلمة في الموضوع الذي كتبته في ذلك المساء، وبوجود قطعة الورق التي عثرنا عليها في الموقد حاضرة في ذهني فإن

احتمال كتابة وصية (وهي وثيقة لا بد أن تتضمن بالتأكيد كلمة التملّك)، هذا الاحتمال قفز إلى ذهني في الحال. وهذا الاحتمال أكّده ظرفٌ آخر؛ فبسبب الارتباك العام لم تنظَّف حجرة الجلوس ذلك الصباح، وكان بجانب المكتب عدة آثار من التراب البنّي اللون. لقد كان الجو جميلاً تماماً لعدة أيام، ولذلك لم تكن الأحذية الاعتيادية التي تدوس على أرضية الغرفة لتترك مثل هذه الأتربة الكثيفة. ونظرت من النافذة فلاحظت على الفور أن أحواض الأزهار قد زُرِعت حديثاً، وقد كان التراب الموجود في تلك الأحواض شبيهاً جداً بذلك التراب الموجود على أرضية حجرة الجلوس. كما أنني علمت منك أيضاً أنها قد زُرِعت مساء أمس، لذلك صرت متأكداً أن واحداً من البستانيين قد دخل الحجرة، بل كانا اثنين لأن في الحوض آثار قدمين مختلفتين. ولو أرادت السيدة إنغلثورب أن تتحدث إليهما فقط لوقفت -على الأغلب- أمام النافذة ولما احتاجا إلى دخول الغرفة على الإطلاق. لذلك صرت مقتنعاً أنها كتبت وصية جديدة ثم نادت البستانيَّين ليشهدا على توقيعها، وقد أثبتت الأحداث أنني كنت مصيباً في افتراضي.

لم أستطع كتمان اعترافي بذكائه فقلت له: لقد كانت تلك عبقرية فذّة منك، ويجب أن أعترف أن النتيجة التي استخلصتُها من تلك الكلمات القليلة المخربَشة كانت خاطئة تماماً.

ابتسم بوارو قائلاً: لقد أطلقتَ العنان لتخيّلاتك كثيراً. إن الخيال خادم جيد ولكنه سيد سيّئ، فإن أسهل أقرب تفسير إلى الصواب هو دائماً أكثر التفسيرات احتمالاً.

- نقطة أخرى: كيف عرفت أن مفتاح حقيبة الأوراق قد فُقِد؟

- لم أعرف ذلك، بل كان تخميناً وظهر أنه صحيح. لقد لاحظت وجود قطعة من سلك ملفوف في مقبض المفتاح، وهذا أوحى لي في الحال بأن المفتاح قد سُحِب بقوة من حلقة مفاتيح ضعيفة. فإذا ما فُقِد المفتاح ثم عُثِر عليه لاحقاً فإن السيدة إنغلثورب كانت ستضعه في الحال في علاّقة مفاتيحها، ولكن الذي رأيته في علاّقة مفاتيحها كان واضحاً أنه المفتاح النسخة، فقد كان جديداً جداً ولامعاً؛ وهذا قادني إلى الافتراض بأن شخصاً آخر قد أدخل المفتاح الأصلي في قفل حقيبة الأوراق.

قلت: نعم، ألفريد إنغلثورب بلا شك.

نظر إليّ بوارو بفضول وقال: هل أنت متأكد تماماً من أنه هو القاتل؟

- بالطبع؛ إن كل ظرف جديد يؤكد هذه الحقيقة بوضوح أكثر.

قال بوارو بهدوء: على العكس، توجد عدة نقاط في صالحه.

- آه، دع عنك ذلك!

- نعم.

- إنني أرى نقطة واحدة فقط.

- وهي؟

- أنه لم يكن في البيت الليلة الماضية.

- إنها إصابة خاطئة كما تقولون أنتم الإنكليز! لقد اخترتَ النقطة الوحيدة التي أعتبرها أنا ضدّه.

- وكيف ذلك؟

- لأن السيد إنغلثورب لو عرف أن زوجته ستُسمَّم في الليلة الماضية لكان قد خطط بالتأكيد لأن يكون بعيداً عن البيت. ومن الواضح أن عذره كان مختلَقاً، وهذا يترك لنا احتمالين اثنين: إما أنه كان يعرف ماذا سيحصل أو أنه كان لديه سبب خاص لغيابه.

سألت متشككاً: وما هو ذلك السبب؟

هز بوارو كتفيه مستغرباً وقال: وكيف لي أن أعرف؟ لعله أمر مُعيب يحسن إخفاؤه. يجب أن أقول بأن السيد إنغلثورب هذا وغد بعض الشيء، ولكن ليس من الضرورة أن يجعله ذلك قاتلاً.

هززت رأسي غيرَ مقتنع فقال بوارو: نحن غير متفقَين كما يبدو؟ حسناً، لنترك هذا الموضوع، فالزمن سيكشف من هو المُصيب فينا. والآن دعنا نرجع إلى بعض المظاهر الأخرى في القضية: ماذا تستنبط من حقيقة أن جميع الأبواب التي تؤدي إلى غرفة النوم كانت موصَدة من الداخل بالمزلاج؟

فكرت وقلت: حسناً، يجب أن ينظر المرء إلى هذه المسألة بصورة منطقية.

- صحيح.

- إنني أفسرها بالتالي: الأبواب كانت موصَدة بالمزاليج (فعيوننا أخبرتنا بذلك) ومع ذلك فان وجود دهن الشمعة على الأرض وإتلاف الوصية يثبتان أن شخصاً ما قد دخل الغرفة خلال الليل. هل أنت متفق معي حتىَ الآن؟

- تماماً، إنه توضيح مثير للإعجاب. تابع.

قلت: حسناً، على افتراض أن الشخص الذي دخل لم يدخل من النافذة أو بأية معجزة سحرية، فلا يبقى إلا احتمال أن يكون الباب قد فُتح من الداخل بواسطة السيدة إنغلثورب نفسها. وهذا يقوّي احتمال إدانة الزوج؛ إنها مسألة طبيعية أن تفتح الباب لزوجها.

هز بوارو رأسه قائلاً: لماذا كان يجب عليها ذلك؟ لقد أغلقت الباب الذي يؤدّي إلى غرفته بالمزلاج... وهو عمل غير طبيعي من جانبها! وقد تشاجرت معه شجاراً عنيفاً ذلك المساء. لا، لقد كان آخرَ شخص يمكن أن تأذن له بالدخول.

- ولكنك توافقني على أن الباب لا بد أن يكون قد فُتح من قِبل السيدة إنغلثورب نفسها؟

- يوجد احتمال آخر: يُحتمَل أن تكون قد نسيت أن تُغلق الباب الذي يؤدي إلى الممر بالمزلاج عندما ذهبت لتنام، ثم استيقظت فيما بعد قبل الصباح وأغلقته بالمزلاج.

- بوارو! هل هذا رأيك حقاً؟

- لا، أنا لا أقول ذلك، ولكنه ممكن. والآن لنعد إلى موضوع آخر: بماذا نفسّر أجزاء تلك المحادثة التي سمعتَها بين

السيدة كافيندش وحماتها؟

قلت متفكراً: لقد نسيتُ ذلك. كانت مسألة غامضة تماماً، فلا يمكن تصديق أن امرأة مثل السيدة كافيندش المعتَدّة بنفسها والمتحفظة إلى أبعد درجة قد تتدخل بعنف في مسألة ليست من شأنها بالتأكيد.

- تماماً، لقد كان أمراً غريباً بالنسبة لامرأة في مكانتها أن تفعل ذلك.

وافقت قائلاً: إن هذا يثير التساؤل بالفعل، ولكنه ما زال موضوعاً غيرَ مهمّ ولا يحتاج أن نأخذه بالحُسبان.

تنهد بوارو وصرخ: ماذا كنت أقول لك دائماً؟ إن كل شيء يجب أخذه بالحُسبان. إذا كانت الحقيقة لا تتطابق مع النظرية فدع النظرية تذهب.

قلت بغيظ: حسناً، سوف نرى.

- نعم، لسوف نرى.

* * *

وصلنا إلى كوخ ليستويز حيث دعاني بوارو إلى غرفته العلوية وقدم لي القهوة، وتلاشى الانزعاج المؤقت الذي كنت أحس به.

وضع بوارو كراسيّنا أمام النافذة المفتوحة التي كانت تشرف على منظر لشارع القرية. كان الهواء المنعش يهبّ بدفء، وبدا أنه سيكون يوماً حاراً. وفجأة تعلق انتباهي بشاب نحيل يندفع خلال

الشارع بسرعة كبيرة، وكان التعبير على وجهه غير عادي، فقد كان مزيجاً من الخوف والإثارة. قلت: انظر يا بوارو!

فنظر أمامه ثم قال: ها هو. إنه السيد ميس من الصيدلية، وهو قادم إلى هنا.

توقف الشاب أمام كوخ ليستويز، وبعد أن تردد للحظة طرق الباب بقوة. صرخ بوارو من النافذة: دقيقة واحدة، أنا قادم.

وأشار إليّ لكي أتبعه، ثم ركض مسرعاً إلى الأسفل وفتح الباب. وبدأ السيد ميس الحديث على الفور: آه يا سيد بوارو، أنا آسف لأن الموعد غير مناسب، ولكني سمعت بأنك قد عدت لتوّك من القصر؟

- نعم.

رطّب الشاب شفاهه الناشفة. كان وجهه يتغير بصورة غريبة وقال: لقد عمّ الخبر أرجاء القرية بشأن وفاة السيدة إنغلثورب فجأة، وإن أهل القرية يقولون...

ثم خفض صوته بحذر وأكمل: يقولون إن سبب ذلك هو السم.

ظل وجه بوارو هادئاً تماماً وقال: إن الأطباء فقط هم الذين يستطيعون تحديد ذلك يا سيد ميس.

تردد الشاب وقال: نعم، تماماً.

ازداد تردد الشاب واهتياجه، ثم أمسك بوارو من ذراعه وخفض صوته لدرجة الهمس وقال: فقط قل لي يا سيد بوارو،

أليس... أليس هو الإستركنين؟

بصعوبة سمعت رد بوارو عليه، وعلى الأغلب كانت عبارة غير محددة. ثم غادر الشاب، وحين أغلق بوارو الباب قابلت عيناه عينيّ. هز رأسه موافقاً وقال برزانة: نعم، ستكون عنده شهادة ليقدمها في أثناء التحقيق.

عدنا مرة أخرى إلى الغرفة العلوية، وكنت سأفتح شفاهي للكلام عندما أوقفني بوارو بإيماءة من يده قائلاً: ليس الآن، ليس الآن يا صديقي؛ إنني بحاجة إلى التفكير. إن عقلي غير منظم، وليس هذا بالأمر الجيد.

ثم جلس في صمت كامل لمدة عشر دقائق تقريباً. كان جامداً تماماً ما عدا بعض الحركات المعبِّرة من حواجبه، فيما كانت عيناه تزدادان اخضراراً شيئاً فشيئاً. وفي النهاية تنهد بعمق وقال: هذا جيد؛ اللحظة السيئة مرّت، والآن كل شيء قد تم تنظيمه وتصنيفه. على المرء أن لا يسمح بالفوضى. إن القضية ما زالت غير واضحة حتى الآن، نعم، لأنها شديدة التعقيد. إنها تُحيّرني، أنا هيركيول بوارو! وهناك حقيقتان لهما دلالة.

- وما هما؟

- الأولى حالة الجو بالأمس، إن هذه نقطة مهمة جداً.

قاطعته: ولكنه كان يوماً رائعاً. إنك تجرّ قدمي يا بوارو!

- أبداً؛ لقد سجّل ميزان الحرارة درجة قدرها سبع وعشرون في الظل. لا تنسَ ذلك يا صديقي، إن هذا هو مفتاح اللغز كله!

سألته: والنقطة الثانية؟

- الحقيقة المهمة، وهي أن السيد إنغلثورب يلبس ملابس غريبة جداً وله لحية سوداء ويضع نظارات.

- بوارو! لا أظن أنك جادّ في كلامك؟

- بل أنا جاد تماماً يا صديقي.

- ولكن هذا الكلام طفولي!

- لا، إنه مهم جداً.

- وعلى افتراض أن هيئة المحلفين جرّمت ألفريد إنغلثورب بتهمة القتل المتعمّد، ماذا سيحصل لنظرياتك إذن؟

- لن تهتزّ لأن اثني عشر رجلاً غبياً اتفقوا على الوقوع في الخطأ! ولكن هذا لن يحدث لسبب واحد؛ وهو أن هيئة المحلفين المحلية لا تتطلّع لأخذ المسؤولية بنفسها، كما أن السيد إنغلثورب يُمثّل عملياً مالك الأرض والقاضي المحلي.

ثم أضاف هادئاً: وأيضاً لن أسمحَ أنا بذلك!

- أنت لن تسمح بحدوث ذلك؟

- نعم.

نظرت إلى الرجل الصغير الغير العادي وأنا مشتّت بين الانزعاج والمتعة. لقد كان واثقاً من نفسه بصورة رهيبة. وكأنما قرأ أفكاري، فقد هزّ رأسه موافقاً بهدوء وقال: آه، نعم يا صديقي، سأفعل ما أقول.

ثم نهض من مكانه وألقى بيده على كتفي، وتغيرت ملامح وجهه كلياً فبدا عليه التأثر وقال: في خضمّ ذلك كله أنت ترى أنني أفكر بالسيدة إنغلثورب المسكينة التي ماتت والتي لم تكن محبوبة كثيراً. نعم، ولكنها كانت طيبة جداً معنا نحن البلجيكيين، وإنني مَدين لها.

حاولت أن أقاطعه ولكن بوارو أكمل قائلاً: سأقول لك يا هيستنغز: إنها لن تغفر لي أبداً إذا تركت ألفريد إنغلثورب، زوجها، يُعتقَل الآن في حين أن كلمة واحدة مني يمكن أن تنقذه!

* * *

الفصل السادس
التحقيق

لم يتوقف بوارو عن نشاطه في الفترة التي سبقت موعد التحقيق؛ فقد اختلى بالسيد ويلز مرتين، كما أنه مشى في الريف لمسافات طويلة. وقد امتعضت لأنه لم يضعني محلّ ثقته، وازداد هذا الإحساس عمقاً لأنني لم أستطع معرفة ما كان يهدف إليه.

خُيِّل إليّ أنه ربما كان يقوم ببعض التحقيقات في مزرعة رايكس. وقد وجدته غائباً عندما ذهبت أبحث عنه مساء الأربعاء في كوخ ليستويز، فتمشيت هناك بجانب الحقول آملاً أن أقابله، ولكن لم تكن هناك أية إشارة تدل على وجوده. وقد ترددت في الذهاب إلى المزرعة نفسها، وفيما كنت أسير مبتعداً قابلت فلاحاً عجوزاً نظر إليّ بخبث وسأل: أنت من القصر، أليس كذلك؟

- بلى، إنني أبحث عن صديق لي حيث اعتقدت أنه قد سار في هذا الاتجاه.

- رجل صغير يحرك يديه عندما يتكلم؟ أحد البلجيكيين الموجودين في القرية؟

قلت متلهفاً: نعم، إذن فقد كان هنا؟

- نعم، لقد كان هنا بالفعل... أكثر من مرّة. إنه صديقك، أليس كذلك؟ آه، أنتم رجال القصر، يا لكم من مجموعة!

ونظر إليّ مرة أخرى ولكن بطريقة هازلة هذه المرة، فسألته بقدر ما أستطيع من اللامبالاة: وهل يأتي رجال القصر إلى هنا كثيراً؟

فغمزني وقال: واحد على الأقل هو الذي يأتي، ولن أسمّي أسماء. إنه رجل متحرر جداً!

سرت مسرعاً. إذن فقد كانت إيفيلين هاوارد محقة! وشعرت باشمئزاز شديد عندما فكّرت في ألفريد إنغلثورب الذي كان يستعمل أموال امرأة أخرى بحرّية. هل كانت صاحبة الوجه الغجري الفاتن تلك هي أساس الجريمة أم أن الباعث الرئيسي كان المال؟ من المحتمَل أن يكونا الاثنين معاً.

وفي مرحلة ما بدا أن بوارو يشكو من هاجس غريب؛ فقد أخبرني مرة أو مرتين بأنه يعتقد أن دوركاس لا بد وأن تكون قد أخطأت في تحديد الوقت الذي حدثت فيه المشاجرة، فقد كرر عليها القول بأن هذه المشاجرة ربما كانت في الساعة الرابعة والنصف وليس في الساعة الرابعة عندما سمعَت الأصوات. ولكن دوركاس لم تغير رأيها، فقد انقضت ساعة أو ربما أكثر منذ الوقت الذي سمعت فيه الأصوات إلى الساعة الخامسة عندما أخذت الشاي إلى سيدتها.

* * *

عُقِدَ التحقيق يوم الجمعة في نُزُل «ستايلايت آرمْز» في القرية، وجلست أنا وبوارو معاً، فلم نُطلَب لنعطي أي شهادة. بدأت الخطوات التمهيدية، وعاين المحلَّفون الجثة وأعطى جون كافيندش وصفاً للتعريف بها، ثم تم استجوابه فوصف كيفية استيقاظه في الساعات الأولى للصباح بالإضافة إلى ظروف وفاة أمه.

بعد ذلك قُدِّم الدليل الطبي، فهدأت الأنفاس وتركزت الأعين على الاختصاصي اللندني الشهير الذي يعتبر واحداً من أعظم المختصين بموضوع علم السموم في الوقت الحاضر. وبكلمات مختصَرة قليلة لخص نتيجة معاينة الجثة، وإذا ما حذفنا العبارات والاصطلاحات الطبية والفنية التي استخدمها فسوف نلخّص الحقيقة بأن السيدة إنغلثورب قد لقيت حتفها نتيجة التسمم بالإستركنين. وعن طريق تقييم الكمية المستخلَصة لا بدّ وأن تكون قد تناولت ما لا يقل عن ثلاثة أرباع حبّة من الإستركنين، بل يُحتمَل أن تكون قد تناولت حبة كاملة أو أكثر بقليل.

سأله المحقق: هل من الممكن أن تكون قد ابتلعت السم عن طريق الخطأ؟

أجابه الإخصائي: أظن أن هذا غير محتمَل إطلاقاً؛ فالإستركنين لا يُستخدَم للأغراض المنزلية مثل بعض السموم وتوجد قيود على مبيعاته.

- وهل وجدت من خلال الفحص أي علامة تدفعك إلى تحديد كيفية تناولها السم؟

- لا.

- لقد وصلتَ إلى قصر ستايلز قبل الدكتور ويلكنز على ما أعتقد، أليس كذلك؟

- بلى. لاقتني السيارة خارج بوابات الساحة وأسرعت إلى هناك بقدر استطاعتي.

- هل يمكنك أن تصف لنا ما حدث بالضبط؟

- دخلت إلى غرفة السيدة إنغلثورب، وكانت في تلك اللحظة في نوبة تشنجية قوية مثل التشنجات المرافقة لمرض الكُزاز. دارت بوجهها ناحيتي وصرخت: ألفريد، ألفريد.

- هل يمكن أن يكون الإستركنين قد وُضع للسيدة إنغلثورب في القهوة التي تناولتها بعد العشاء والتي أخذها إليها زوجها؟

- هذا محتمَل، ولكن الإستركنين عَقّار سريع المفعول جداً، فإن أعراضه تظهر بعد ابتلاعه بساعة أو ساعتين، ويمكن أن يتأخر ظهورها بسبب ظروف معينة لا يوجد أي واحد منها في هذه الحالة. إنني أفترض أن السيدة إنغلثورب قد تناولت القهوة بعد العشاء في نحو الساعة الثامنة، لكن الأعراض لم تظهر حتى ساعات الصباح الأولى، مما يدل ظاهرياً على أنها تناولت السم في وقت متأخر من المساء.

- كانت السيدة إنغلثورب معتادة على شرب فنجان من الكاكاو في منتصف الليل، فهل من الممكن أن يكون الإستركنين قد وُضع في الكاكاو؟

- لا، فقد أخذت بنفسي عيّنة من الكاكاو التي بقيت في الوعاء وحللتها، ولم يكن فيها أي أثر للإستركنين.

سمعت بوارو يضحك بصوت خفيف بجانبي، فهمست له قائلاً: كيف عرفت ذلك؟

قال: أنصت.

كان الطبيب مستمراً في كلامه: وأريد أن أقول إنني كنت سأفاجَأ كثيراً بأية نتيجة أخرى.

قال له المحقق: لماذا؟

- ببساطة لأن الإستركنين له طعم مُرّ غير عادي، ويمكن أن تكتشف وجوده في محلول نسبة الإستركنين فيه بالنسبة لباقي المحلول هي واحد إلى سبعين ألفاً، ويمكن أن يذهب طعمه فقط بمادة ذات نكهة قوية، والكاكاو لا يستطيع أن يخفي طعمه إطلاقاً.

أراد أحد المحلفين أن يعرف ما إذا كان نفس الاعتراض ينطبق على القهوة، فقال الطبيب: لا، إن القهوة لها طعم مر بحد ذاتها، ومن الممكن أن تغطّي طعم الإستركنين.

- إذن فأنت ترجّح أن السم قد شُرِب مع القهوة، ولكن مفعوله تأخّر لسبب غير معروف؟

- نعم، ولكن الفنجان تكسّر تماماً ولم يعد ممكناً تحليل محتوياته.

وبهذا اختتم الدكتور بورشتاين شهادته.

وقد أيده الدكتور ويلكنز في جميع النقاط. وعن احتمال انتحارها فقد أنكر ذلك كلياً، وقال بأن الفقيدة كانت تعاني من ضعف في القلب ولكنها كانت تتمتع بصحة تامة وكانت ذات مزاج مرح ومتوازن؛ كانت واحدة من آخر الناس الذين يمكن أن يُقدموا على الانتحار.

كان لورنس كافيندش هو التالي، وكانت أقواله غير مهمة تماماً كونها تكراراً لأقوال أخيه، ولكنه عندما أراد أن ينزل توقف وقال بلهجة متردّدة: إنني أرغب في تقديم رأيي إن أمكن ذلك.

ونظر إلى المحقق فأجابه بسرعة: بالتأكيد يا سيد كافيندش، نحن هنا لنصل إلى حقيقة هذه المسألة، ونرحّب بأي شيء يمكن أن يؤدي إلى كشف الحقيقة.

أوضح لورنس: إنها فقط فكرة من عندي، وبالطبع قد أكون مخطئاً تماماً، ولكن ما زال يبدو لي أن وفاة والدتي يمكن أن تكون لأسباب طبيعية.

- كيف توصلت إلى ذلك يا سيد كافيندش؟

- كانت أمي قبيل وفاتها ولفترة معيّنة قبلها تأخذ دواء منشطاً يحتوي على مادة الإستركنين.

أصدر المحقق صوتاً ينم عن الدهشة ونظر المحلفون إليه باهتمام، فأكمل لورنس قائلاً: أنا أعتقد أن هناك حالات ينتهي فيها الأثر التراكمي للدواء (الذي يتم تناوله لبعض الوقت) إلى التسبب بالوفاة. وأيضاً أليس من الممكن أن تكون قد أخذت جرعة زائدة من دوائها بصورة عرَضية؟

- هذه أول مرة نسمع فيها أن الفقيدة كانت تتناول الإستركنين قبيل وفاتها. نحن شاكرون لك كثيراً يا سيد كافيندش.

ثم استُدعي الدكتور ويلكنز الذي سخر من هذه الفكرة حيث قال: إن الذي اقترحه السيد كافيندش مستحيل تماماً، وأي طبيب سيخبركم بما أقول. إن الإستركنين سم تراكمي بمعنى من المعاني، ولكن من المستحيل تماماً أن تنتج عنه وفاة مفاجئة بهذه الطريقة. لا بد أن تكون هناك فترة طويلة للأعراض المزمنة التي كان من الممكن أن تلفت انتباهي في الحال. إن الفكرة كلها منافية للمنطق.

- وماذا عن الرأي الثاني؟ وهو أن السيدة إنغلثورب يمكن أن تكون قد أخذت جرعة زائدة عن غير قصد؟

- ثلاث جرعات زائدة أو حتى أربع جرعات لا يمكن أن تتسبب بالوفاة. إن السيدة إنغلثورب كان لديها دائماً كميات إضافية كبيرة من الدواء تُركَّب لها في كل مرة، حيث كانت تتعامل مع شركة كوت الصيدلانية في تادمينستر، وكان يجب عليها أن تشرب الزجاجة كلها تقريباً حتى تتوفر كمية الإستركنين التي وُجدت بعد فحص الجثة.

- إذن فأنت ترى أنه يمكننا أن نستبعد أن يكون الدواء المنشّط سبباً في الوفاة بأي حال من الأحوال؟

- بالتأكيد، إن هذا الافتراض مستبعَد.

سأل نفس المحلَّف الذي قاطع الحديث من قبل ما إذا كان الصيدلي الذي ركّب الدواء يمكن أن يكون قد ارتكب خطأً،

فأجاب الطبيب: هذا الأمر محتمَل دائماً بالطبع.

ولكن دوركاس التي كانت الشاهد التالي بددت هذا الاحتمال. إن الدواء لم يتم عمله حديثاً، بل على العكس فقد أخذت السيدة إنغلثورب آخر جرعة من الدواء في اليوم الذي توفيت فيه. لذلك فقد تم التخلي أخيراً عن مسألة الدواء المنشط وتابع المحقق مهمته، وكونه استخلص أقوال دوركاس عن كيفية استيقاظها من النوم على صوت الجرس العنيف الذي ضربته سيدتها، ومن ثم إيقاظها أهل الدار، فقد عرّج على موضوع المشاجرة التي حدثت في المساء السابق. وكانت أقوال دوركاس حول هذه النقطة هي نفسها التي سمعناها منها أنا وبوارو من قبل، لذلك فلن أكررها هنا.

وكانت ماري كافيندش هي الشاهدة التالية. وقفت منتصبةً وتكلمت بصوت منخفض واضح وهادئ تماماً، وفي إجابتها على سؤال من المحقق أخبرته كيف أن ساعة المنبه أيقظتها في الساعة الرابعة والنصف كالعادة، وأنها كانت ترتدي ملابسها عندما فزعت من صوت شيء ثقيل يقع. وعلق المحقق قائلاً: أيمكن أن يكون ذلك هو صوت الطاولة التي بجانب السرير؟

استمرت ماري قائلة: فتحت باب غرفتي وأنصتّ، وفي خلال بضع دقائق قُرع جرس بعنف وجاءت دوركاس تركض وأيقظت زوجي، ثم ذهبنا جميعاً إلى غرفة حماتي، ولكن بابها كان مغلقاً...

قاطعها المحقق قائلاً: في الحقيقة لا أريد أن أزعجك أكثر حول هذه النقطة. إننا نعرف كل ما يجب معرفته عن الأحداث

التي وقعت بعد ذلك، ولكني سأكون شاكراً إذا أخبرتِنا عن كل الذي سمعتِه من المشاجرة قبل يوم الحادث.

- أنا؟

كانت في صوتها غطرسة ضعيفة. رفعت يدها فعدّلت ياقتها وهي تُدير رأسها قليلاً، وبصورة تلقائية تماماً لمعت في رأسي فكرة: إنها تحاول كسب الوقت!

أكمل المحقق كلامه بتأنٍّ: نعم، فأنا أعرف أنك كنت جالسة تقرئين على الطاولة بجانب النافذة الطويلة لحجرة الجلوس، أليس كذلك؟

لقد كان هذا خبراً جديداً بالنسبة لي، ونظرت إلى بوارو بطرف عيني، فقد تصورت أنه خبر جديد بالنسبة له أيضاً. كانت هناك وقفة بسيطة ولحظة تردد قبل أن تجيب قائلة: بلى، إنه كذلك.

- وكانت نافذة الحجرة مفتوحة، أليس كذلك؟

بدا وجهها شاحباً أكثر فأكثر بالتأكيد وهي تجيب: بلى.

- إذن فلا يمكن أن تفشلي في سماع الأصوات في الداخل، ولا سيما عندما كانت ترتفع غاضبة. وفي الحقيقة فإن المكان الذي كنت تجلسين فيه أفضل من البهو لسماع تلك الأصوات.

- من الممكن.

- وهل يمكن أن تعيدي لنا ما سمعتِه من المشاجرة؟

- في الحقيقة لا أتذكر أنني سمعت شيئاً.

- هل تقصدين أنك لم تسمعي أصواتاً؟

- آه، نعم، لقد سمعت الأصوات ولكني لم أتبين الكلمات.

وتلوّنت وجنتها بلون باهت وهي تقول: أنا لست معتادة على الإنصات إلى المحادثات الخاصة.

أصرّ المحقق على سؤاله: أنت لا تتذكرين أي شيء على الإطلاق؟ لا شيء يا سيدة كافيندش؟ ولا حتى كلمة عابرة أو جملة تجعلك تفهمين أنها كانت محادثة خاصة؟

توقفت، وبدا وكأنها تريد التفكير بينما كانت ما تزال هادئة ظاهرياً، ثم قالت: نعم؛ أتذكر أن السيدة إنغلثورب قالت شيئاً ما -لا أتذكره بالضبط- حول حدوث فضيحة بين زوج وزوجته.

مال المحقق إلى الخلف راضياً بما سمع وقال: هذا يتطابق مع ما سمعته دوركاس. ولكن اسمحي لي يا سيدة كافيندش، فعلى الرغم من أنك فهمت أنها كانت محادثة خاصة إلا أنك لم تبتعدي عن النافذة بل بقيت حيث كنت؟

لاحظتُ بريق عينيها عندما رفعتهما، وشعرت أنها ودّت في تلك اللحظة لو تمزّق المحقق إلى قطع بسبب تلميحاته، ولكنها ردت بهدوء تام: نعم، فقد كنت مرتاحة في المكان الذي كنت أجلس فيه. لقد ركزت ذهني على الكتاب الذي كنت أقرؤه.

- وهذا كل ما تستطيعين أن تخبرينا به؟

- هذا كل شيء.

انتهى التحقيق، رغم أنني شككت في أن المحقق لم يكن راضياً عنه تماماً، وأعتقد أنه شك في أن ماري كافيندش يمكن أن تقول أكثر من هذا لو أرادت.

ثم دُعيَت إلى الشهادة عاملة المتجر آمي هيل، وأقرّت أنها باعت نموذج وصية إلى وليم إيرل البستاني في قصر ستايلز مساء يوم السابع عشر من الشهر. ثم جاءت شهادتا وليم إيرل وماننغ اللذين شهدا أنهما وقّعا على وثيقة كشاهدَين، وحدد ماننغ الوقت بالساعة الرابعة والنصف بينما كان رأي وليم أن الأمر قد حدث قبل ذلك بقليل.

ثم جاءت بعد ذلك سينثيا، ولم يكن لديها الكثير لتقوله فهي لم تكن تعرف أي شيء عن المأساة إلى أن أيقظتها السيدة كافيندش من نومها.

- ألم تسمعي صوت سقوط الطاولة؟

- لم أفعل، فقد كنت في سبات عميق.

ابتسم المحقق وقال: الضمير الطيب يجعل النوم هادئاً، شكراً لك يا آنسة، هذا كل شيء.

بعدها جاء دور الآنسة هاوارد.

قدمّت الآنسة هاوارد الرسالة التي كتبتها لها السيدة إنغلثورب في مساء يوم السابع عشر، وبالطبع فقد كنّا -أنا وبوارو- قد رأيناها من قبل ولم تُضِف شيئاً لمعلوماتنا عن المأساة. وفيما يلي صورة عن محتوى هذه الرسالة:

١٧ تموز، قصر ستايلز، إيسكس

عزيزتي إيفيلين،

ألا نستطيع دفن الماضي؟ لقد وجدتُ صعوبة في إثبات كلامك الذي قلتِه ضد زوجي العزيز، ولكنني امرأة كبيرة في السن، وأنا أحبك كثيراً.

المخلصة: إيميلي إنغلثورب

سُلِّمت الرسالة إلى المحلَّفين الذين قرؤوها بتمعّن، ثم قال المحقق وهو يتنهد: أخشى أنها لن تساعدنا كثيراً، فليس فيها ذكر لأي حدث من الأحداث التي وقعت في ذلك المساء.

قالت الآنسة هاوارد باختصار: إنها واضحة مثل الشمس بالنسبة لي؛ إنها توضح بما لا يدع مجالاً للشك أن صديقتي العجوز المسكينة اكتشفت أنها قد خُدِعت!

أوضح المحقق قائلاً: الرسالة لا تكشف عن أي شيء من هذا القبيل.

- نعم، لأن إيميلي لم تكن تتحمل أن تعترف بالخطأ. أنا أعرفها. لقد أرادت أن تُعيدني ولكنها لم تكن تريد الاعتراف بأنني كنت على حق، فظلت تدور حول الموضوع. معظم الناس يفعلون ذلك.

ابتسم السيد ويلز بصورة باهتة، وكما لاحظت أيضاً فقد ابتسم العديد من المحلفين. كان واضحاً أن الآنسة هاوارد شخصية ذات شعبية. وتابعت المرأة حديثها وهي تنظر إلى المحلفين باستخفاف قائلة: على أي حال كل هذا التحقيق هو

تضييع كبير للوقت، كلام، كلام، كلام! بينما نعرف تماماً...

قاطعها المحقق بقلق: شكراً لك يا آنسة هاوارد، هذا يكفي.

وأظنّ أنه تنفس الصعداء عندما استجابت لطلبه.

ثم جاء الحدث المثير لذلك اليوم. استدعى المحققُ مساعدَ الصيدلي ألبرت ميس. لقد كان ذلك هو الشاب المرتبك صاحب الوجه الشاحب. وفي إجابته على أسئلة المحقق أوضح أنه كان صيدلانياً مؤهَّلاً، وقد جاء إلى هذه الصيدلية منذ وقت قريب حيث إن المساعد السابق قد استُدعي للخدمة في الجيش. انتهت هذه المقدمات وأكمل المحقق عمله قائلاً: سيد ميس، هل بعت مؤخراً دواء الإستركنين لأي شخص غير مخوَّل بالشراء؟

- نعم يا سيدي.

- ومتى كان ذلك؟

- ليلة الإثنين الماضي.

- الإثنين؟ ليس الثلاثاء؟

- بل الإثنين السادس عشر من الشهر.

- هلاّ أخبرتَنا عن الشخص الذي بعته؟

صمت الجميع لدرجة أنك تستطيع سماع وقع الإبرة وهي تسقط على الأرض. وأجاب الرجل قائلاً: نعم يا سيدي، كان السيد إنغلثورب.

اتجهَت كل العيون في وقت واحد إلى المكان الذي يجلس فيه ألفريد إنغلثورب جامداً متخشّباً. جفل قليلاً حين كانت كلمات الإدانة تخرج من فم الشاب، وظننت أنه سينهض عن كرسيه، ولكنه بقي جالساً على الرغم من ظهور تعبيرات دهشة جيدة الاصطناع على وجهه.

سأل المحقق بصرامة: هل أنت متأكد مما تقول؟

- إنني متأكد تماماً يا سيدي.

- هل أنت معتاد على بيع الإستركنين دون وصفة وبلا تمييز؟

اضطرب الشاب الهزيل بصورة واضحة أمام عبوس المحقق وقال: آه، لا يا سيدي، بالطبع لا. ولكني اعتقدت أنه لا ضرر في ذلك لأنه السيد إنغلثورب من القصر، وقد قال إنه يريد أن يسمم كلباً.

تعاطفت معه في سرّي؛ لقد كان السعي لإرضاء «القصر» أمراً طبيعياً، ولا سيما عندما يمكن أن يؤدي هذا إلى انتقال التعامل من شركة كوت إلى مؤسسة محلية.

- أليس المعتاد أنّ على كل مَن يشتري سُمّاً أن يوقع على سجل؟

- بلى يا سيدي، وقد وقّع السيد إنغلثورب على السجل.

- هل لديك السجل هنا؟

- نعم يا سيدي.

قُدِّم السجل، ثم صرف المحققُ السيدَ ميس البائس بعد أن وبّخه ببضع كلمات. بعد ذلك نودي السيد ألفريد إنغلثورب وسط صمت مطبق. وتساءلت هل عرف كم كان حبل المشنقة قريباً من رقبته؟

دخل المحقق في الموضوع مباشرة عندما سأله: هل اشتريت الإستركنين مساء يوم الإثنين الماضي لغرض تسميم الكلب؟

رد إنغلثورب بهدوء تام: لا، لم أفعل. فلا يوجد كلب في ستايلز غير كلب الرعي الموجود في الخارج، وهو بصحة تامة.

- أنت تنكر تماماً أنك اشتريت الإستركنين من ألبرت ميس يوم الإثنين الماضي؟

- نعم.

- وهل تنكر هذا أيضاً؟

وقدم له المحقق السجل الذي فيه توقيعه فقال: بالتأكيد أنا أنكر ذلك، إن خط اليد هذا يختلف تماماً عن خطي، سوف أريك.

أخذ من جيبه مغلفاً قديماً وكتب اسمه عليه ثم سلّمه إلى المحلفين، وقد كان مختلفاً تماماً.

- إذن ما تفسيرك لأقوال السيد ميس؟

ردّ إنغلثورب برباطة جأش: لا بد وأن السيد ميس قد أخطأ.

تردد المحقق لحظة ثم قال: سيد إنغلثورب، كمسألة شكلية

فقط: هل تمانع أن تخبرنا أين كنت مساء يوم الإثنين السادس عشر من تموز (يوليو)؟

- في الحقيقة لا أتذكر.

قال المحقق بحدّة: هذه سخافة يا سيد إنغلثورب، فكّر ثانية.

هز إنغلثورب رأسه قائلاً: لا أستطيع أن أخبرك. أذكر أنني خرجت للسير.

- في أي اتجاه؟

- في الحقيقة لا أتذكر.

ازداد غيظ المحقق وقال: هل كنت برفقة أحد؟

- لا.

- هل قابلت أي أحد وأنت تسير؟

- لا.

قال المحقق بطريقة جافة: هذا أمر مؤسف، إذن فسوف أفهم الأمر على أنك ترفض أن تقول أين كنتَ في الوقت الذي تعرّف عليك السيد ميس وأنت تدخل الصيدلية لتشتري الإستركنين؟

- إذا أردت أن تفهمها بهذه الطريقة، نعم.

- احرص على كلامك يا سيد إنغلثورب.

كان بوارو يتململ بعصبية وهمس: يا إلهي! هل يريد هذا

الرجل الأبله أن يذهب إلى المشنقة؟

وفي الحقيقة كان إنغلثورب يعطي انطباعاً سيئاً عن نفسه، فإن إنكاره غير المجدي لن يقنع حتى الأطفال. وانتقل المحقق بسرعة إلى النقطة التالية، وسحب بوارو نفَساً عميقاً ليرتاح.

سأل المحقق: لقد جرت مناقشة بينك وبين زوجتك مساء يوم الثلاثاء؟

فقاطعه ألفريد إنغلثورب: اسمح لي، لقد تم إبلاغك بأمر غير صحيح، فأنا لم أتشاجر مع زوجتي العزيزة. القصة كلها غير صحيحة إطلاقاً. لقد كنتُ غائباً عن البيت طوال المساء.

- وهل يوجد أي أحد يشهد على ذلك؟

قال إنغلثورب بغطرسة: لديك كلامي.

لم يتجشم المحقق عناء الرد عليه، وقال: لدينا شاهدان يقسمان على أنهما سمعا شجارك مع السيدة إنغلثورب.

- هذان الشاهدان مخطئان.

شعرت بالحيرة والذهول؛ فالرجل يتكلم بلهجة الواثق تماماً. ونظرت إلى بوارو، فرأيت على وجهه تعبير ابتهاج لم أستطع فهمه. هل اقتنع أخيراً بذنب ألفريد إنغلثورب؟

قال المحقق: سيد إنغلثورب، لقد سمعت كلمات زوجتك وهي تحتضر، وقد كررت هنا. هل تستطيع تفسيرها بطريقة ما؟

- بالتأكيد أستطيع.

- تستطيع؟

- إنها تبدو بسيطة جداً. كان الضوء في الغرفة خافتاً، والدكتور بورشتاين له نفس طولي وهيئتي وله لحية مثلي، وبسبب الضوء الخافت والألم الذي كانت تعانيه فإن زوجتي المسكينة حسبته أنا.

همس بوارو في نفسه: آه، إنها فكرة بالفعل!

همست قائلاً: هل تقول بأن ذلك صحيح؟

قال بوارو: أنا لا أقول ذلك، ولكنه في الحقيقة افتراض ذكي.

استمر إنغلثورب في حديثه: لقد فهمتَ كلمات زوجتي الأخيرة كأنها تتهمني، ولكنها على العكس من ذلك كانت تستغيث بي.

فكر المحقق لحظة ثم قال: أظن يا سيد إنغلثورب أنك أنت الذي صببت القهوة وأخذتها إلى زوجتك في ذلك المساء؟

- أنا صببتها لها، نعم، ولكني لم آخذها لها. كنت أريد أن أفعل ذلك ولكنني أُبلغتُ بأن صديقاً لي كان ينتظرني على الباب، لذلك وضعت القهوة على طاولة البهو، وعندما عدت إلى البهو مرة أخرى بعد بضع دقائق كانت القهوة قد ذهبت.

هذه الأقوال يمكن أن تكون صحيحة ويمكن أن لا تكون، ولكنها لم تَبدُ لي أنها تحسّن من موقف إنغلثورب كثيراً. وعلى كل الأحوال فقد كان لديه متسع من الوقت ليضع السم.

في تلك اللحظة وخزني بوارو وخزة خفيفة وهو يشير إلى رجلين كانا يجلسان معاً قرب الباب. كان أحدهما أسمر صغير الجسم حادّ النظرة مُنهَك الوجه، والآخر كان أبيض طويلاً.

سألت بوارو بصوت خافت، فوضع فمه في أذني وقال: هل تعرف من هو ذلك الرجل الصغير؟

هززت رأسي بالنفي، فقال بوارو: إنه المفتش جيمس جاب من شرطة سكتلنديارد، جيمي جاب. والرجل الآخر من سكتلنديارد أيضاً. إن الأمور تتحرك بسرعة يا صديقي.

حدّقتُ إلى الرجلين بدقّة. لم يَبدُ عليهما أنهما رجلا شرطة، ولم أكن لأشك حتى أنهما شخصيتان رسميتان. وكنت ما زلت أحدق إليهما عندما جفلت وأنا أستمع إلى رأي المحلفين وهو يعلن: «توجَّه تهمة القتل العمد ضد شخص مجهول أو أشخاص مجهولين».

* * *

الفصل السابع
بوارو يسدّد دَيْنَه

بينما كنا خارجَين من نُزُل ستايلايت آرمْز سحبني بوارو جانباً بعد أن ضغط على ذراعي ضغطة خفيفة. فهمت قصده، فقد كان ينتظر رجال سكتلنديارد. وخلال بضع دقائق ظهر الرجلان، وفي الحال تقدم بوارو نحوهما وخاطب القصير فيهما قائلاً: أخشى أنك لا تتذكرني أيها المفتش جاب؟

صرخ المفتش: كيف لا أتذكرك؟ ألستَ السيد بوارو؟

ثم التفت نحو الرجل الآخر وقال: لقد سمعتني أتحدث عن السيد بوارو، أليس كذلك؟ لقد عملنا معاً أنا وهو في عام ١٩٠٤ في قضية تزوير أبركرومبي التي تتذكرها، ثم أمسكناه في بروكسل. آه، كانت تلك أياماً جميلة. إذن هل تتذكر البارون ألتارا؟ لقد كان رجلاً مُخادعاً، فقد تسلل من قبضة نصف هيئات شرطة أوروبا، ولكنا أمسكنا به في أنتويرب بفضل السيد بوارو هذا.

وبينما كان الرجال منغمسين في الذكريات الجميلة اقتربتُ منهم، فقدّمني بوارو إلى المفتش جاب، والذي بدوره قدّمَنا نحن الاثنين إلى رفيقه الضابط سمرهاي.

قال بوارو: هل يمكنني أن أسألكما ماذا تفعلان هنا يا أيها السادة؟

أغلق جاب عيناً واحدة بصورة متعمدة وقال: نعم، بالفعل. يمكنني القول إنها قضية واضحة جداً.

ولكن بوارو أجاب برزانة: وهنا أختلف معك.

قال سمرهاي وهو يفتح فمه لأول مرة: آه، دعك من هذا! بالتأكيد إن كل شيء واضح وضوح النهار. لقد قُبض على الرجل متلبساً بالجريمة. إن غباءه هذا يدهشني!

ولكن جاب كان ينظر إلى بوارو بتمعّن، وقال مازحاً: أطفئ نارك يا سمرهاي.

ثم تابع قائلاً: أنا وصديقي هذا التقينا سابقاً، وهو رجل آخذُ بأحكامه أكثر من أي رجل آخر. وإذا لم أكن مخطئاً فهو يحتفظ ببعض الملاحظات، أليس كذلك يا صاحبي؟

ابتسم بوارو وقال: لقد توصلت إلى بعض الاستنتاجات.

كان سمرهاي ما يزال ينظر متشككاً، ولكن جاب تابع إنعام النظر في بوارو ثم قال: إن الموضوع كالآتي: حتى الآن رأينا القضية من الخارج فقط، وهذا ما يجعل الشرطة غير موفّقين في قضية من هذا النوع، فهذه قضية يتم فيها تعيين الاتهام بالقتل -إذا صحّ التعبير- بعد التحقيق فقط. إن الكثير يعتمد على وجود المرء في مسرح الجريمة منذ اللحظة الأولى، وهنا يكون للسيد بوارو الأفضلية علينا. وما كنا حتى لنكون هنا بهذه السرعة لولا وجود طبيب ذكي في موقع أعطانا منه المعلومة من خلال مكتب الطبيب

الشرعي. ولكنك كنت في مسرح الجريمة منذ البداية، ويمكن أن تكون قد التقطت بعض الإشارات الصغيرة. ومن خلال الأقوال التي سمعناها في التحقيق فإن السيد إنغلثورب قتل زوجته، هذا أكيد كما أنني متأكد من أنني أقف هنا، ولو كان أي أحد غيرك قد أشار إلى العكس لضحكت منه. وعليّ أن أقول إنني قد فوجئت بأن المحلفين لم يوجّهوا إليه تهمة القتل العمد فوراً، وأعتقد أنهم كانوا سيفعلون ذلك لولا المحقق... لقد بدا وكأن المحقق هو الذي منعهم من ذلك!

قال بوارو: ورغم ذلك، فربما توجد الآن في جيبك مذكّرة لاعتقاله.

غطت ملامحَ وجه جاب التعبيراتُ المِهَنية المحترفة وقال بتحفظ: ربما نعم وربما لا.

نظر بوارو إليه متفكراً ثم قال: إنني مهتم جداً يا سادة بأن لا يُعتقَل.

فعلّق سمرهاي بسخرية: يا للجرأة!

أما جاب فقد نظر إلى بوارو بارتباك هزلي وهو يقول: ألا يمكنك أن تذهب أبعد من ذلك بقليل يا سيد بوارو؟ إن أية إشارة صغيرة منك يمكن أن تفيدنا. لقد كنتَ في مسرح الجريمة، وسكتلنديارد لا تريد أن ترتكب أي خطأ كما تعرف.

هزّ بوارو رأسه موافقاً برزانة وقال: هذا هو ما فكرت فيه تماماً. حسناً، سأقول لك شيئاً: استخدم مُذكرتك واعتقل السيد إنغلثورب، ولكن هذا لن يحقق لك مجداً؛ فسوف يتم رفض الاتهام ضده في الحال... هكذا!

وطقطق بأصابعه بطريقة معبرة، فأصبح وجه جاب قاتماً وشخر سمرهاي معبراً عن تشككه. أما أنا فبقيت صامتاً من الدهشة، وتوصلت إلى نتيجة مفادها أن بوارو مجنون.

أخرج جاب منديلاً من جيبه ومسح وجهه، ثم قال: أنا لا أجرؤ على فعلها يا سيد بوارو. سوف آخذ بكلامك، ولكن هناك آخرين أعلى مني رتبة سيتساءلون متعجبين عن قصدي من ذلك. ألا يمكنك أن تعطيني بعض المعلومات لكي أعمل على ضوئها؟

فكر بوارو لحظة ثم قال: من الممكن أن أفعل ذلك، ولكني أعترف بأني لا أرغب بذلك. إن هذا الأمر سيرغمني على تصرف معيّن، وقد كنت أفضّل العمل خُفيةً في الوقت الحالي. ولكن الذي تقوله صحيح جداً، فإن كلام رجل شرطة بلجيكي انقضت أيامه غيرُ كافٍ! السيد ألفريد إنغلثورب لا ينبغي أن يُعتقَل. لقد أقسمتُ على هذا، وها هو صديقي هيستنغز يعرف ذلك. إذن -يا جاب الطيب- أذاهبٌ أنت إلى قصر ستايلز على الفور؟

قال جاب: بعد نصف ساعة تقريباً، فسوف نرى المحقق والطبيب أولاً.

- حسناً، اطلبني وأنت في طريقك إلى القصر لأذهب معك. إن بيتي آخر بيت في القرية. وهناك في قصر ستايلز سوف يعطيك السيد إنغلثورب... أو إذا رفض (وهو احتمال وارد) فسوف أعطيك أنا الإثباتات التي سوف تقنعك بأن اتهامه في القضية لا يمكن قبوله. هل نعتبر ذلك صفقة؟

قال جاب بحماسة: إنها صفقة جيدة، وبالنيابة عن شرطة سكتلنديارد فإنني شاكر لك كثيراً، على الرغم من أنني مكرَه

على الاعتراف بأنني لا أستطيع رؤية أية ثغرة في الأدلة في الوقت الحاضر. ولكنك كنت دائماً رائعاً، وإذن فإلى اللقاء يا صاحبي.

ابتعد رجلا التحري عنا وعلى وجه سمرهاي ابتسامة متشككة. وهتف بوارو قبل أن أتفوه بكلمة: حسناً يا صديقي، ماذا تعتقد؟ يا إلهي! لقد عشتُ لحظات مريعة في تلك المحكمة، فلم أتوقع أن الرجل سيكون غبياً إلى هذا الحد عندما رفض أن يبوح بأي شيء على الإطلاق. إن هذا أسلوب رجل معتوه بالتأكيد.

علّقت قائلاً: ثمة تفسيرات أخرى بجانب حماقته، فلو كانت القضية ضده صحيحة فكيف سيدافع عن نفسه بغير السكوت؟

صرخ بوارو: لماذا؟ توجد أكثر من ألف طريقة بارعة. افترض أنني أنا الذي ارتكبت هذه الجريمة، فيمكنني أن أفكر بسبع روايات معقولة جداً، وهي مقنعة أكثر من إنكارات السيد إنغلثورب المتحجرة!

لم أستطع منع نفسي من الضحك وقلت: عزيزي بوارو، أنا متأكد أنك قادر على التفكير بسبعين رواية! ولكن صدقاً، وعلى الرغم مما سمعتك تقوله لرجال التحري، فإنك بالتأكيد لا تستطيع أن تبقى معتقداً بإمكانية براءة ألفريد إنغلثورب؟

- ولماذا الآن أقل من أي وقت مضى؟ إن شيئاً لم يتغير.

- ولكن الدليل مقنع جداً.

- نعم، مقنع أكثر من اللازم.

* * *

وصلنا إلى بوابة كوخ ليستويز وصعدنا الدرج المألوف، واستمر بوارو يقول لنفسه: نعم، نعم، مقنع أكثر من اللازم. إن الدليل الحقيقي عادة يكون واهناً وغير مُرْضٍ ويجب دراسته وتمحيصه، ولكن هنا كل شيء جاهز وكامل! لاَ يا صديقي، لقد تم صنع هذا الدليل بذكاء شديد لدرجة أنه أبطل الغاية منه.

- وكيف تُفسّر ذلك؟

- حين يكون الدليل ضد القاتل غامضاً وغير ملموس فإن دحضه صعب جداً، أما هنا وبسبب قلق المجرم فقد سحب الشبكة قريباً جداً لدرجة أن أي قطع في هذه الشبكة سوف يُحرر إنغلثورب.

بقيتُ صامتاً، وبعد دقيقة أو دقيقتين تابع بوارو كلامه: دعنا ننظر إلى المسألة هكذا: لنقل إن هناك رجلاً يريد تسميم زوجته. من الممكن افتراض أن لديه بعض الذكاء، أي أنه ليس أحمق تماماً. حسناً، كيف سيشرع في جريمته؟ يذهب بجَسارة إلى صيدلية القرية ويشتري الإستركنين باسمه الحقيقي ويختلق قصة حول كلب سيتم لاحقاً كشف سخافتها. وهو لا يستخدم السم في تلك الليلة بل ينتظر لحينِ حدوث شجار عنيف مع زوجته، شجار سمعه كل من في البيت وسوف يوجّه الشكوك ضده طبيعياً. إنه لا يُعِدّ أي دفاع ولا يقدم أي عذر، على الرغم من معرفته أن مساعد الصيدلي لا بد أن يعلن الحقائق كلها بالضرورة. ياه! لا تطلب مني أن أصدق أن هناك رجلاً يمكن أن يكون غبياً لهذه الدرجة! إن الشخص المجنون فقط والذي يريد أن ينتحر عن طريق عمل شيء يقوده إلى حبل المشنقة هو الذي يفعل ذلك.

بدأت الحديث: ما زلت لا أرى...

- ولا حتى أنا أرى. أريد أن أقول لك يا صاحبي إن ذلك يحيرني، أنا هيركيول بوارو!

- ولكن إذا كنت تعتقد أنه بريء فكيف تفسر شراءه للإستركنين؟

- ببساطة جداً: إنه لم يشترِه.

- ولكن ميس تعرّف إليه!

- عذراً، لقد رأى رجلاً له لحية سوداء مثل لحية السيد إنغلثورب ويضع نظارات مثل السيد إنغلثورب ويلبس ثياباً غريبة مثل ثياب السيد إنغلثورب الملحوظة. ولا تنسَ أنه هو نفسه قد حضر إلى القرية منذ أسبوعين فقط كما تذكر، وقد كانت السيدة إنغلثورب تتعامل بصورة رئيسية مع شركة كوت في تادمينستر.

- إذن فأنت تعتقد...

- يا صديقي، هل تتذكر النقطتين اللتين شددتُ عليهما؟ اترك الأولى لحظة، ماذا كانت الثانية؟

تذكرت وقلت: الحقيقة المهمة وهي أن ألفريد إنغلثورب يلبس ملابس غريبة وله لحية سوداء ويضع نظارات.

- تماماً. والآن افترض أن أي شخص أراد أن ينتحل شخصية جون أو لورنس كافيندش، فهل يمكن أن يكون ذلك سهلاً؟

قلت متفكراً: لا، بالطبع فإن ممثلاً...

ولكن بوارو قاطعني بلا رحمة وقال: ولماذا لا تكون مسألة سهلة؟ سوف أخبرك ياصديقي: لأنهما حليقا اللحية. وحتى تظهر كأنك واحد من الاثنين في وضح النهار فإن ذلك يحتاج إلى ممثل عبقري له نفس ملامح الوجه، أما في حالة إنغلثورب فإن كل ذلك يتغير. ملابسه، لحيته، النظارات التي تغطي عينيه... تلك هي الملامح البارزة في مظهره الشخصي. والآن ما هي الغريزة الأولى في المجرم؟ إنها إبعاد الشبهة عن نفسه، أليس كذلك؟ وما هي أفضل طريقة ليفعل ذلك؟ عن طريق إلقائها على شخص آخر. وفي هذا المثال هناك رجل جاهز تحت اليد. الجميع كان ميّالاً مُسبقاً لأن يصدق اتهام السيد إنغلثورب، لقد كانت نتيجة محتومة أن يكون موضع شك. ولكن حتى تجعلها شيئاً مؤكداً لا بد أن يكون هناك دليل ملموس (مثل الشراء الفعلي للسم) وهذا لم يكن عملاً صعباً عن طريق رجل غريب المنظر كالسيد إنغلثورب. تذكّر أن هذا الشاب ميس لم يتحدث إلى السيد إنغلثورب من قبل، فكيف كان سيشك أن الرجل بملابسه ولحيته ونظاراته ليس ألفريد إنغلثورب؟

قلت وقد سحرتني بلاغة بوارو: يمكن أن يكون الأمر كذلك. ولكن إذا كانت الحالة هذه فلماذا لا يقول أين كان في الساعة السادسة من مساء يوم الإثنين؟

قال بوارو بهدوء: آه، لماذا بالفعل؟ لو أنه اعتُقل فمن الممكن أن يتكلم، ولكني لا أريد الوصول إلى هذه النقطة. لا بد أن أجعله يعرف خطورة موقفه. بالطبع يوجد خلف هذا الصمت شيء يضرّ بسمعته، وإذا لم يكن قد قتل زوجته فإن هذا لا يمنع أن يكون نذلاً ولديه شيء خاص يخفيه، بعيداً تماماً عن الجريمة.

اقتنعت بآراء بوارو، على الرغم من أن اقتناعاً ضعيفاً قد بقي لديّ بأن الاستدلال الصريح هو الصحيح. وتساءلت: وماذا يمكن أن يكون ذلك الشيء؟

قال بوارو وهو يبتسم: ألا تستطيع أن تخمّن؟

- أنا لا أستطيع، فهل تستطيع أنت؟

- آه، نعم. كانت لديّ فكرة صغيرة منذ بعض الوقت، وقد أثبتّ صحتها.

قلت معاتباً: إنك لم تخبرني قط.

فتح بوارو يديه بطريقة الاعتذار وقال: اعذرني يا صديقي، فأنت لم تكن متعاطفاً بشكل كاف.

ثم التفت ناحيتي بقوة وقال: قل لي أنت، هل ترى الآن أنه لا ينبغي أن يُعتقَل؟

في الحقيقة لم أكن لأبالي بمصير ألفريد إنغلثورب، واعتقدت أن إدخال بعض الخوف على قلبه ما كان ليسبب له أي أذى، فقلت متشككاً: ربما.

تنهد بوارو الذي كان يراقبني بتركيز شديد وقال مغيّراً الموضوع: حسناً يا صديقي، بعيداً عن السيد إنغلثورب: كيف كان وقع الأقوال عليك خلال التحقيق؟

- الذي توقعته نفسه تقريباً.

- ألم يُثر انتباهَك أيُّ شيء غريب؟

طارت أفكاري نحو ماري كافيندش فقلت متجنباً الإجابة: من أي ناحية؟

- حسناً، أقوال السيد لورنس كافيندش على سبيل المثال؟

ارتحت من سؤاله وقلت: آه، لورنس؟ لا، لا أعتقد ذلك. إنه رجل عصبي دائماً.

- اقتراحه بأن أمه ربما تكون قد تسممت بلا قصد عن طريق الدواء المنشط الذي كانت تأخذه، ألم يكن لذلك وقع غريب عليك؟

- لا أظن أنه كان كذلك. وقد سخر منه الأطباء بالطبع، ولكنه كان رأياً طبيعياً تماماً بالنسبة لرجل عادي.

- ولكن السيد لورنس ليس رجلاً عادياً، فقد قلتَ لي بنفسك إنه بدأ حياته بدراسة الطب وإنه حصل على شهادة فيه.

- نعم، هذا حقيقة. لم أفكر بذلك قط. إنه لأمرٌ غريب.

هز بوارو رأسه موافقاً وقال: لقد كان سلوكه غريباً منذ البداية، فهو الوحيد من أهل البيت الذي يمكن أن يتعرف على أعراض التسمم بالإستركنين، ومع ذلك نجده الوحيد في العائلة الذي يتمسك برأيه القائل بأن الوفاة تعود لأسباب طبيعية. لو كان هذا كلام السيد جون لأمكنني أن أفهمه، فليست لديه أي معرفة فنية وهو غير خيالي بطبيعته، أما السيد لورنس؟ لا! والآن، اليوم، يضع أمامنا رأياً لا بد وأنه هو نفسه يعرف أنه سخيف. إن هناك مادة للتفكير بهذا يا عزيزي!

قلت موافقاً: هذا محير جداً.

استمر بوارو في حديثه: ثم هناك السيدة كافيندش، وهي شخص آخر لا يقول كل ما يعرفه. ماذا تستنتج من موقفها؟

قلت: لا أعرف ماذا أستنتج منه، فلا يمكن التصوّر أنها كانت تحاول حماية ألفريد إنغلثورب، على الرغم من أنها قد بدت كذلك.

هز بوارو رأسه متأملاً وقال: نعم، هذا غريب. يوجد شيء واحد أكيد، وهو أنها سمعت أشياء أكثر من «حديث خاص» لم تكن تريد أن تكشفه.

- ورغم ذلك فهي آخر شخص يمكن أن يُتّهَم بالانحطاط إلى مستوى استراق السمع!

- تماماً، وقد أظهرت لي أقوالها شيئاً واحداً: لقد أخطأتُ، وكانت دوركاس محقة جداً؛ فالمشاجرة حدثت بالفعل في وقت أبكر من المساء، في نحو الساعة الرابعة كما قالت.

نظرت إليه بفضول ولم أفهم إصراره على تلك النقطة. أكمل بوارو: نعم، أشياء كثيرة غريبة ظهرت هذا اليوم. الدكتور بورشتاين مثلاً، ماذا كان يفعل مستيقظاً وجاهزاً في تلك الساعة من الصباح؟ إن مما يدهشني أن أحداً لم يعلّق على هذه الحقيقة.

قلتُ متشككاً: أظن أنه كان يشعر بأرق.

علّق بوارو: وهذا تفسير جيد جداً أو سيء جداً، إنه يخفي

كل شيء ولا يفسر شيئاً. سوف أبقي عينيّ مفتوحتين على الدكتور بورشتاين الذكي.

استفسرت بتهكّم: وهل ثمة أخطاء أخرى وجدتها من خلال الأقوال؟

رد بوارو بهدوء: يا صديقي، عندما تجد أن الناس لا يقولون الحقيقة فاحذر! والآن، ما لم أكن مخطئاً كثيراً فإن شخصاً واحداً فقط أو شخصين على الأكثر قالا الحقيقة دون تحفظ أو خداع خلال التحقيق اليوم.

- آه، ماذا دهاك يا بوارو! لن أقول إن لورنس أو ماري كافيندش قالا الحقيقة، ولكن هناك جون والآنسة هاوارد، وهما كانا يقولان الحقيقة بالتأكيد.

- كلاهما يا صديقي؟ أنا أتفق معك بالنسبة لأحدهما، ولكن ليس كليهما.

أصابتني كلماته بصدمة غير سارة. إن أقوال الآنسة هاوارد -على الرغم من أنها كانت غير مهمة- قد قيلت بصراحة دون لفّ أو دوَران مما لم يدع لي مجالاً للشك في صدقها. ولكنني أُكنّ تقديراً عظيماً لذكاء بوارو، ما عدا في المناسبات التي وصفته فيها أنا نفسي بأنه «أحمق وعنيد». سألته: هل تعتقد ذلك حقاً؟ كانت الآنسة هاوارد تبدو لي دائماً أمينة جداً، تقريباً لدرجة الإزعاج.

نظر إليّ بوارو نظرة فضولية لم أفهم مغزاها جيداً. بدا وكأنه يريد أن يتكلم لكنه ضبط نفسه. أكملت قائلاً: والآنسة سينثيا أيضاً، لا يوجد شيء غير صريح في أقوالها.

- نعم، ولكن كان من الغريب أنها لم تسمع صوتاً وهي تنام في الغرفة المجاورة بينما سمعت السيدة كافيندش التي تقيم في الجناح المقابل من البناية صوت سقوط الطاولة بوضوح.

- حسناً، إنها صغيرة وتنام بعمق.

- آه، نعم! في الحقيقة لا بد أن تلك الفتاة مشهورة بالنوم!

لم أحب نبرة صوته تماماً، ولكن في تلك اللحظة سمعنا طرقة خفيفة على الباب، وعندما نظرنا من النافذة رأينا رجلَي الشرطة في انتظارنا في الأسفل.

أمسك بوارو بقبعته وفتل شاربه بقوة، وبعناية شديدة مسح ذرة غبار وهمية عن أكمامه، وأشار إليّ بأن أسبقه إلى الأسفل. وهناك التقينا بالرجلين وانطلقنا إلى قصر ستايلز.

أعتقد أن ظهور رجلين من شرطة سكتلنديارد كان صدمة، ولا سيما لجون، على الرغم من علمه بالطبع -وبعد صدور حكم المحلفين- أنها مسألة وقت فقط. ومع ذلك فإن وجود رجلَي الشرطة أوضح له الحقيقة أكثر من أي وقت مضى.

تباحث بوارو مع جاب بصوت منخفض وهما قادمان، وكان ذلك الأخير هو الذي طلب -بصفة مِهَنية- أن يتجمع أهل البيت جميعاً في صالة الاستقبال باستثناء الخدم. وأدركت مغزى ذلك، فقد كان مطلوباً من بوارو أن يثبت صحة مزاعمه. لم أكن متفائلاً شخصياً، فربما استند بوارو إلى مبررات قوية في اعتقاده ببراءة السيد إنغلثورب، ولكن رجلاً من نوعية سمرهاي سيطلب أدلة

ملموسة، وكنت أشك بأن بوارو يملك القدرة على تقديمها.

وقبل مضي وقت طويل سرنا جميعاً إلى صالة الاستقبال، وأغلق جاب الباب خلفه. وضع بوارو المقاعد بتهذيب لكل واحد. كان رجلا شرطة سكتلنديارد محطّ أنظار الجميع، وعرفنا -للمرة الأولى حسب ظني- أن المسألة لم تكن حلماً سيئاً بل حقيقة ملموسة. كنا نقرأ مثل هذه الأشياء من قبل، والآن نحن أنفسنا كنا ممثلين في هذه الدراما. وغداً سوف تنشر الصحف اليومية في جميع أنحاء إنكلترا الخبر بالخطوط العريضة: «مأساة غامضة في إيسكس، تسميم امرأة ثرية»! ومن الممكن أن تُنشَر صور القصر وصور العائلة وهي تغادر موقع التحقيق... فلم يكن مصور القرية خاملاً! لقد ارتُكبت جريمة قتل في هذا البيت، وأمامنا رجلا التحري المسؤولان عن القضية. كل هذا جال في ذهني على عجل في البرهة القصيرة التي سبقت افتتاح بوارو للجلسة.

أحسب أن سكان البيت جميعاً قد شعروا بالمفاجأة عندما رأوا أن بوارو هو الذي أخذ زمام المبادرة وليس أحد رجلي الشرطة الرسميين. قال بوارو وهو ينحني كأنه واحد من المشاهير يستعدّ لإلقاء محاضرة: أيها السيدات والسادة، لقد طلبت منكم أن تأتوا جميعاً إلى هنا لغرض معين، وهذا الغرض يهم السيد ألفريد إنغلثورب.

كان إنغلثورب يجلس منزوياً على نفسه، وأظن أن كل واحد قد سحب كرسيه قليلاً مبتعداً عنه بصورة لاشعورية ووجّه التفاتة باهتة حين كان بوارو يلفظ اسمه.

قال بوارو وهو يوجه الكلام له مباشرة: سيد إنغلثورب، ثمة

ظل أسود قاتم يخيم على هذا البيت، ظل جريمة قتل.

هز إنغلثورب رأسه بحزن وهمس: زوجتي المسكينة، إيميلي المسكينة! إنها مسألة رهيبة.

قال بوارو بوضوح: لا أعتقد أنك تعرف تماماً كم يمكن أن تكون رهيبة بالنسبة لك يا سيد إنغلثورب.

لم يظهر أن السيد إنغلثورب قد فهم ماذا يعني ذلك تماماً، وأضاف بوارو: إنك في موقف خطير جداً يا سيد إنغلثورب!

تململ رجلا الشرطة بعصبية، وتخيلت التحذير الرسمي يحوم على شفتَي سمرهاي: أي شيء تقوله قد يُستخدَم دليلاً ضدك...

تابع بوارو كلامه: هل تفهم الآن يا سيد إنغلثورب؟

- لا. ماذا تقصد؟

قال بوارو بتأنّ: أقصد أنك متّهَم بتسميم زوجتك.

صدرت أصوات غامضة داخل الحلقة عند سماع هذا الكلام الواضح، وصرخ إنغلثورب وهو يقف: يا إلهي، أي فكرة بشعة هذه! أنا... أسمم عزيزتي إيميلي!

راقبه بوارو بدقة قائلاً: لا أظنك تدرك الطبيعة غير المستساغة لأقوالك في التحقيق. والآن، بعدما سمعتَ منّي ما سمعت، هل ما زلت ترفض أن تقول أين كنت في الساعة السادسة من مساء يوم الإثنين الماضي؟

جلس ألفريد إنغلثورب كأنه ينهار، وتمتم باستنكار ودفن

وجهه بين يديه. اقترب منه بوارو ووقف بجانب مقعده وصرخ مهدداً: تكلم!

رفع إنغلثورب وجهه جاهداً من بين يديه، ثم هز رأسه ببطء. قال بوارو: ألن تتكلم؟

- لن أفعل، ولا أصدق أن تصل البشاعة بأحد أن يتهمني بما تقوله.

هز بوارو رأسه متفكراً مثل الرجل الذي يقرر شيئاً، ثم قال: حسناً، إذن يجب أن أتكلم بالنيابة عنك.

قفز ألفريد إنغلثورب من كرسيه مرة أخرى وقال: أنت؟ كيف تتكلم؟ أنت لا تعرف...

ثم سكتَ فجأة. وعاد بوارو ليواجهنا قائلاً: سيداتي وسادتي، أنا أتكلم فاستمعوا! أنا -هيركيول بوارو- أؤكد أن الرجل الذي دخل الصيدلية واشترى الإستركنين في الساعة السادسة من مساء يوم الإثنين الماضي لم يكن السيد إنغلثورب، لأنه في الساعة السادسة من ذلك اليوم كان السيد إنغلثورب برفقة السيدة رايكس وهي عائدة إلى بيتها من مزرعة مجاورة. وأستطيع أن أقدم ما لا يقل عن خمسة شهود يمكن أن يقسموا على أنهم رأوهما معاً سواء في الساعة السادسة أو بعدها بقليل، وكما تعرفون فإن مزرعة آبي حيث يقع بيت السيدة رايكس تبعد على الأقل ميلين ونصف الميل عن القرية، ولا يرقى الشك إلى مثل هذا الدليل!

* * *

الفصل الثامن

شكوك جديدة

سادت الغرفةَ لحظةٌ صامتة من الذهول. جاب (وهو أقلّ من فوجئ فينا) كان الأول في المبادرة إلى الحديث: يا إلهي، إنك ممتاز بلا شك يا سيد بوارو! أفترضُ أن شهودك هؤلاء لا غبار عليهم؟

- ها هو برهاني؛ لقد أعددت قائمة بأسمائهم وعناوينهم. يجب أن تراهم بالطبع، ولكنك ستجد الأمور صحيحة.

خفض جاب صوته وقال: أنا واثق من ذلك، ونحن ممتنّون لك كثيراً، فإن اعتقاله كان سيُسبّب فوضى كبيرة.

ثم التفت ناحية إنغلثورب وقال: ولكن اسمح لي يا سيدي، لماذا لم تستطع قول ذلك في التحقيق؟

علق بوارو قائلاً: سوف أخبرك لماذا. كانت هناك إشاعة معيّنة...

فقاطعه ألفريد إنغلثورب بصوت هائج: إنها غير صحيحة ومغرضة.

تابع بوارو كلامه: وقد كان السيد إنغلثورب مهتماً بعدم انتشار الفضيحة في الوقت الحالي. هل أنا على حق؟

هز إنغلثورب رأسه موافقاً وقال: صحيح جداً، وحيث إن زوجتي المسكينة لم تُدفَن بعد، فهل تتساءل لماذا كنت مهتماً بعدم انتشار إشاعات كاذبة أخرى؟

علق جاب قائلاً: بالنسبة لي كنت سأفضّل مواجهة أي عدد من الإشاعات بدلاً من أن يتم اعتقالي بتهمة القتل، وأنا أتجرأ على الاعتقاد بأن زوجتك المسكينة كانت ستشاركني في هذا الرأي. ولو لم يكن السيد بوارو هنا لكنت الآن في عداد المسجونين بالتأكيد!

همس إنغلثورب قائلاً: لقد كنت غبياً بلا شك، ولكنك لا تعرف أيها المفتش كم كنتُ مضطهَداً وكم افترى عليّ بعض الناس.

ثم رمى إيفيلين هاوارد بنظرة قوية، فقال جاب وهو يلتفت بسرعة ناحية جون: والآن يا سيدي أودّ أن أرى غرفة نوم السيدة من فضلك، وبعد ذلك سوف أتحدث قليلاً مع الخدم. لا تزعج نفسك بأي شيء، سوف يريني السيد بوارو الطريق.

وبينما كان الجميع يخرج من الغرفة استدار بوارو وأعطاني إشارة لألحقه إلى الأعلى، وهناك أمسك بي من ذراعي وسحبني إلى الداخل وقال: اذهب إلى الجناح الآخر بسرعة، وقف هناك، مباشرة بجانب الباب الأخضر، ولا تتحرك حتى آتي إليك.

ثم عاد بسرعة وانضم إلى رجلَي الشرطة. أذعنت لتعليماته

وأخذت موضعي بجانب الباب الأخضر في الجناح المقابل وأنا أتساءل عن هدفه من هذا الطلب. لماذا طلب مني أن أقف في هذا المكان المعين بالذات كالحارس؟

نظرت متفكراً إلى أسفل الممر الذي يمتدّ أمامي وخطرت لي فكرة؛ فجميع الغرف تقع في هذا الجناح الأيسر ما عدا غرفة سينثيا. هل لهذا علاقة بالموضوع؟ هل كان عليّ أن أراقب مَن يدخل ومن يخرج؟ وقفت في مكاني ملتزماً بالواجب، ومرّت الدقائق، ولكن لم يأتِ أحد ولم يحدث شيء.

لا بد أن تكون قد مرت عشرون دقيقة تماماً قبل أن يعود بوارو، وقال لي: لعلك لم تتحرك من مكانك؟

أجبته: نعم، لقد التصقت في مكاني هذا كأني صخرة، لكن لم يحدث شيء.

- آه!

ترى هل كان مسروراً أم خاب ظنه؟

- ألم ترَ شيئاً على الإطلاق؟

- لم أرَ أي شيء.

- ولكن من المحتمل أن تكون قد سمعت شيئاً؟ صوت سقوط عالياً مثلاً، إيه يا صديقي؟

- لا.

- هل هذا ممكن؟ آه، ولكني مستاء من نفسي! أنا لست أخرق في العادة. لقد قمت فقط بإيماءة خفيفة بيدي اليسرى

فانقلبت الطاولة التي بجانب السرير!

نظر ببراءة وهو مستاء كطفل خاب أمله، لذلك أسرعت أواسيه قائلاً: لا تهتم أيها الرجل العجوز، هل يهم هذا كثيراً؟ لقد أثارك انتصارك الذي حققته في الطابق الأسفل، وباستطاعتي أن أخبرك: لقد كان مفاجأة لنا جميعاً. لا بد أن تكون هناك جوانب أخرى للعلاقة بين إنغلثورب والسيدة رايكس أكثر مما اعتقدنا، وهذا ما جعله يمسك لسانه بإصرار. ماذا ستفعل الآن؟ وأين رجلا سكتلنديارد؟

- نزلا لمقابلة الخدم. لقد أريتهما جميع الأدلة الموجودة لدينا، لكن جاب هذا خيب ظني، فليس لديه منهج عمل!

- أهلاً!

قلت ذلك وأنا أنظر من النافذة، ثم تابعت: ها هو الدكتور بورشتاين. أظن أن كلامك صحيح عن هذا الرجل يا بوارو؛ إنني لا أحبه.

قال بوارو بصورة تأملية: إنه ذكي.

- آه، ذكي تماماً! لا بد أن أقول بأنني قد امتلأتُ بهجة لرؤيته في الورطة التي وقع فيها يوم الثلاثاء. إنك لن ترى مثل ذلك المشهد أبداً!

وصفت لبوارو مغامرة الطبيب وقلت: لقد كان يبدو كفزّاعة طيور حقيقية والوحل يغطيه من رأسه حتى قدميه.

- فقد رأيته إذن؟

- نعم بالطبع، كان الوقت بعد العشاء تماماً. ولم يكن يريد الدخول، ولكن السيد إنغلثورب ألحّ عليه فدخل.

فأمسك بي بوارو من كتفي بعنف وقال: ماذا؟ كان الدكتور بورشتاين هنا مساء يوم الثلاثاء؟ هنا؟ ولم تخبرني بذلك قط؟ لماذا لم تخبرني؟ لماذا؟ لماذا؟

بدا وكأنه مسعور تماماً، واعترضت قائلاً: عزيزي بوارو! لم أعتقد أن ذلك يهمك، لم أكن أعرف أن لهذا الأمر أهمية.

- أهمية؟ إنه أكثر الأشياء أهمية! إذن فقد كان الدكتور بورشتاين هنا يوم الثلاثاء ليلاً... ليلة الجريمة. هيستنغز! ألا تفهم؟ إن هذا يغير كل شيء، كل شيء!

لم أرَه منزعجاً بهذه الصورة من قبل، وبعد أن رفع يده عني ذهب وعدّل مكان حاملَي شمع بصورة آلية فيما كان يهمس لنفسه: نعم، هذا يغير كل شيء، كل شيء.

وفجأة بدا وكأنه قد توصل إلى قرار؛ قال: هيا، يجب أن نعمل في الحال! أين السيد كافيندش؟

كان جون في غرفة التدخين، فذهب بوارو إليه مباشرة وقال: سيد كافيندش، لديّ عمل مهم في تادمينستر، دليل جديد. هل أستطيع أن آخذ سيارتك؟

- بالطبع. هل تريدها في الحال؟

- لو سمحت.

قرع جون الجرس وأمر بإحضار السيارة، وخلال عشر

دقائق كنا نسوق السيارة خارج الحديقة متجهين ناحية الطريق إلى تادمينستر. قلت مستسلماً: الآن يا بوارو، ربما تخبرني ما الذي يجري؟

- حسناً يا صديقي، تستطيع أن تخمّن الجزء الأكبر بنفسك. بالطبع أنت تعرف أن السيد إنغلثورب خارج الموضوع الآن، والوضع كله تغير بشكل جذري. نحن الآن وجهاً لوجه مع مشكلة جديدة كلياً. نعرف الآن أن شخصاً معيناً لم يَشترِ السم؛ لقد دحضنا الأدلة المختلَقة. والآن إلى الأدلة الحقيقية: لقد تأكدتُ أن أي شخص في البيت -باستثناء السيدة كافيندش التي كانت تلعب التنس معك- يمكن أن يكون قد انتحل شخصية السيد إنغلثورب مساء يوم الإثنين، وبنفس الطريقة لدينا أقواله التي تدل على أنه وضع القهوة في البهو. لم يدقّق أحدٌ في هذه الملاحظة في أثناء التحقيق، ولكنها تأخذ الآن مدلولاً مختلفاً كلياً. يجب أن نعرف مَن الذي أخذ القهوة إلى السيدة إنغلثورب أخيراً، أو من الذي مرّ عبر البهو عندما كانت القهوة موضوعة هناك. ومن خلال وصفك فإن شخصين فقط يمكن أن نجزم بأنهما لم يقتربا من القهوة: ماري كافيندش والآنسة سينثيا.

- نعم، هذا صحيح.

تابع بوارو: بتبرئة ألفريد إنغلثورب أُجبرتُ على كشف الأمر بأسرع مما كنت أنوي. فما دام المجرم يعتقد بأنني أتعقب إنغلثورب فانه سيقلل من حذره، أما الآن فإنه سيضاعف حرصه. نعم، سوف يضاعفه.

والتفت إليّ فجأة قائلاً: قل لي يا هيستنغز، هل تشتبه أنت

نفسك في أي أحد؟

ترددت، ففي الحقيقة برقت في ذهني في ذلك الصباح مرة أو مرتين فكرةٌ جامحة ومتطرفة جداً، وقد استبعدتها لسخافتها، ومع ذلك فقد كانت تلحّ عليّ. غمغمت قائلاً: لا تستطيع أن تسميه اشتباهاً، ولكنها فكرة حمقاء تماماً.

ألحّ بوارو مشجّعاً: هيا، قل! لا تخف؛ تكلم بما في رأسك. يجب أن تنتبه دائماً لغرائزك.

قلت بلا تفكير: حسناً، إنها فكرة سخيفة بالفعل، ولكني أشك في الآنسة هاوارد لأنها لم تقل كل ما تعرفه!

- الآنسة هاوارد؟

- نعم. سوف تضحك مني.

- إطلاقاً، لماذا أضحك؟

مضيت في الحديث قائلاً: أنا لا أستطيع كتم الشعور بأننا تركناها بعيدة عن موضع الاتهام فقط ببساطة لأنها كانت بعيدة عن المكان. ولكنها -على أية حال- كانت تبعد خمسة عشر ميلاً فقط، وبإمكان السيارة أن تقطع هذه المسافة خلال نصف ساعة. فهل يمكن أن نقول بصورة قاطعة إنها كانت بعيدة عن قصر ستايلز ليلة الجريمة؟

قال بوارو بطريقة غير متوقَّعة: نعم يا صديقي، نستطيع. كان أحد أول الإجراءات التي قمت بها هو الاتصال هاتفياً بالمستشفى الذي تعمل فيه.

- حسناً؟

- حسناً، علمت أن الآنسة هاوارد كانت على رأس عملها في النوبة المسائية يوم الثلاثاء، وكان هناك -مصادفةً- قافلة مرضى غير متوقعة، فعرضت مشكورةً أن تبقى لتعمل في نوبة الليل، وقد ووفق على طلبها مع الشكر الجزيل. إن هذا يحسم الموضوع.

قلت محتاراً: آه! حقاً، إن الذي دفعني إلى الشك فيها هو تحاملها الشديد على إنغلثورب، فلا أستطيع أن أمنع شعوري بأنها يمكن أن تفعل أي شيء ضده. ولديّ فكرة هي أنها يمكن أن تعرف شيئاً عن إتلاف الوصية. يمكن أن تكون قد أحرقت الوصية الجديدة وهي تحسبها الوصية التي قبلها والتي كانت لصالحه. إنها تعاديه بمرارة شديدة.

- هل تعتبر حماستها ضده غير طبيعية؟

- نعم، إنها عنيفة جداً. وإني لأتساءل: هل هي عقلانية وهي تتحدث في ذلك الموضوع؟

هز بوارو رأسه بقوة وقال: لا، لا، أنت مخطئ في تقديرك هذا. إن الآنسة هاوارد لم تكن ذات نفس ضعيفة؛ إنها نموذج ممتاز للإنسان الإنكليزي السوي، وهي ذات عقل سليم.

- ورغم ذلك فإن كراهيتها لإنغلثورب تبدو وكأنها هوس. لقد كانت فكرتي (وهي سخيفة جداً بلا شك) هي أنها كانت تنوي تسميمه هو، وبطريقة ما شربت السيدة إنغلثورب السم بدلاً منه بطريق الخطأ. ولكنني لا أعرف إطلاقاً كيف حدث ذلك. إن كل شيء يبدو سخيفاً وغريباً إلى أبعد حد.

- ورغم ذلك فأنت محق في شيء واحد؛ إن من الحكمة أن تشكّ في كل شخص إلى أن تثبت بالمنطق أنه بريء وتصل إلى قناعتك الذاتية بذلك. والآن ما هي الأسباب التي قد تدفع الآنسة هاوارد إلى تسميم السيدة إنغلثورب بصورة متعمَّدة؟

هتفتُ: لماذا؟ لقد كانت مخلصةً لها!

صرخ بوارو بنفاد صبر: لا، لا! أنت تجادل كأنك طفل. لو كانت الآنسة هاوارد قادرة على تسميم السيدة العجوز فإنها ستكون قادرة على التظاهر بالإخلاص بنفس الدرجة. يجب أن ننظر إلى المسألة من زاوية أخرى: لقد كنتَ مصيباً تماماً في افتراضك أن عداءها لألفريد إنغلثورب كان عنيفاً جداً لدرجة أنه يبدو غير طبيعي، ولكنك مخطئ تماماً في استنتاجك من هذا الافتراض. لقد كانت لي استنتاجاتي الخاصة التي أعتقد أنها صحيحة، ولكني لن أتحدث عنها في الوقت الحالي.

وتوقف لحظة ثم استمر: والآن، وبطريقتي في التفكير، يوجد اعتراض لا غبار عليه على كون الآنسة هاوارد هي القاتلة.

- وهو؟

- إن الآنسة هاوارد لم تكن لتستفيد من وفاة السيدة إنغلثورب بأي شكل من الأشكال، ولا توجد جريمة قتل من غير دافع إليها.

فكرت وقلت: أليس من المحتمل أن تكون السيدة إنغلثورب قد كتبت وصية لصالحها؟

هز بوارو رأسه نافياً، فقلت: ولكنك أنت نفسك اقترحت

ذلك الاحتمال للسيد ويلز؟

ابتسم بوارو وقال: كان ذلك لسبب، فلم أُرد أن أذكر اسم الشخص الذي كان فعلاً في ذهني، والآنسة هاوارد تحتل نفس الموقع تماماً، لذلك استخدمت اسمها بدلاً منه.

- لكن يمكن أن تكون السيدة إنغلثورب قد فعلت ذلك. إن الوصية التي كُتبت مساء يوم وفاتها يمكن أن تكون...

ولكن بوارو هز رأسه بحماسة دفعتني إلى التوقف عن الكلام وقال: لا يا صديقي، إن لديّ آرائي الصغيرة الأكيدة حول تلك الوصية، ولكني أستطيع أن أكشف لك بكل جزم وتأكيد أنها لم تكن لصالح الآنسة هاوارد بأي حال.

تقبلت تأكيده، على الرغم من أنني لم أفهم -حقيقةً- كيف يمكن أن يكون واثقاً من تلك المسألة. وقلت بتنهّد: حسناً، سوف نحذف الآنسة هاوارد إذن. لقد كان خطأك أنت لأنك جعلتني أشك فيها، وكان ذلك بسبب كلامك حول أقوالها في التحقيق.

بدت الحيرة على وجه بوارزو وقال: وماذا قلتُ عن أقوالها في التحقيق؟

- ألا تتذكر؟ عندما ذكرت لك أنها وجون كافيندش فوق الشبهات؟

بدا وكأنه مرتبك بعض الشيء وقال: آه، نعم.

ثم استعاد انتباهه وأضاف: على فكرة يا هيستنغز، ثمة خدمة أريدك أن تقدّمها لي.

- بالتأكيد، ما هو؟

- إذا تصادف وكنت موجوداً وحدك مع لورنس كافيندش فأريدك أن تقول له ما يلي: "لديّ رسالة لك من بوارو. إنه يقول: اعثر على فنجان القهوة الإضافي وسوف تنعم بعد ذلك بالهدوء". هكذا فقط، بلا زيادة ولا نقصان.

سألته وأنا شديد الحيرة: "اعثر على فنجان القهوة الإضافي وسوف تنعم بعد ذلك بالهدوء". هل هذا صحيح؟

- ممتاز.

- ولكن ماذا يعني هذا؟

- آه، سأترك لك ذلك لتكتشفه بنفسك. إن لك حرية الوصول إلى الحقائق، فقط قل له ذلك وانظر ماذا يقول.

- حسناً، ولكن الرسالة تبدو غامضة جداً.

* * *

كنا عندئذ نتجه مسرعَين نحو تادمينستر واتجه بوارو بالسيارة إلى مختبر التحاليل. نزل بوارو من السيارة مسرعاً ودخل إلى المختبر، وخلال بضع دقائق عاد مرة أخرى قائلاً: هيا، لقد أتممت عملي هنا.

سألته بفضول شديد: ماذا كنت تفعل هناك؟

- تركت شيئاً لتحليله.

- نعم، ولكن ما هو؟

- عينة الكاكاو التي أخذتها من الوعاء الذي كان في غرفة النوم.

صرخت مشدوهاً: ولكن ذلك قد تم تحليله من قبل! لقد حلله الدكتور بورشتاين، وأنت بنفسك ضحكت من إمكانية وجود الإستركنين فيه.

رد بوارو بهدوء: أنا أعرف أن الدكتور بورشتاين قد حلّله.

- وإذن؟

- حسناً، لديّ رغبة في تحليله مرة أخرى، هذا كل ما في الأمر.

لم أستطع أن أحصل منه على أي كلمة أخرى. هذا الإجراء الذي قام به بوارو بخصوص الكاكاو حيرني كثيراً، فلم أستطع أن أرى سبباً لذلك. وعلى أية حال فقد استعدت ثقتي الكاملة به، وهي الثقة التي تضاءلت في وقت من الأوقات، استعدتها منذ أن ظهر أنه كان محقاً في اعتقاده ببراءة ألفريد إنغلثورب.

* * *

أُجريَت مراسم دفن السيدة إنغلثورب في اليوم التالي. وفي يوم الإثنين، وبينما كنت أنزل متأخراً لتناول الإفطار، سحبني جون جانباً وأخبرني أن السيد إنغلثورب سيغادر في ذلك الصباح ليتخذ له مقراً في فندق ستايلايت آرمز إلى أن ينجز خططه. وأكمل صديقي المخلص كلامه: وفي الحقيقة فإننا نشعر بارتياح كبير لذهابه يا هيستنغز؛ لقد كان أمراً سيئاً بما فيه الكفاية عندما اعتقدنا من قبل أنه قد فعلها، ولكنني أؤكد أن الوضع الآن أسوأ

لأننا جميعاً نشعر بالذنب لتحاملنا على الرجل. إن الحقيقة هي أننا قد عاملناه ببشاعة، وبالطبع فإن الأدلة بدت كلها ضده، ولا أفهم كيف يلومنا الناس بسبب قفزنا إلى النتائج كما فعلنا. ومع ذلك فها هي الحقيقة: لقد كنّا مخطئين، والآن هنالك شعور بأن علينا أن نُصلح الأمر، وهي مسألة صعبة عندما لا يوجد من يستلطف الرجل الآن بصورة أفضل من السابق. إن المسألة كلها مربكة، وأنا شاكر لأن لديه ذوقاً ليُغادر البيت. من حسن الطالع أن «ستايلز» لم يكن ملكاً للأم بحيث توصي له به، فلا أستطيع تحمّل فكرة أنه يتحكم بهذا القصر. أما بالنسبة لأموالها فأهلاً وسهلاً.

سألته: وهل ستكون قادراً على الاحتفاظ بالمكان جيداً؟

- آه، نعم؛ توجد بالطبع الضرائب التي ترتبت على الوفاة، ولكن نصف أموال والدي تورث مع القصر، ولورنس سوف يبقى معنا في الوقت الحاضر، ولذلك فلدينا حصته أيضاً. سوف نضيّق على أنفسنا في البداية بالطبع لأنني -وكما قلت لك مرة- أعاني من ضائقة مالية، ولكن الدائنين سوف ينتظرون الآن.

وفي خِضَمّ الارتياح العام لاقتراب موعد مغادرة إنغلثورب تناولنا أفضل إفطار منذ أن وقعت المأساة. سينثيا، التي كانت مرحة بطابع الشباب، ظهرت بشكلها الجميل من جديد، ونحن جميعاً -باستثناء لورنس الذي ظل عابساً ومتوتراً- كنا مبتهجين تماماً لبدء مستقبل جديد ومشرق. كانت الصحف بالطبع مليئة بأخبار المأساة: عناوين رئيسية بارزة ومقتطفات من السيرة الذاتية عن كل فرد في البيت وتلميحات ماكرة والخاتمة المعهودة عن عثور الشرطة على دليل... لم يبقَ شيء إلا وقيل عنّا. كان وقت

ركود، فالحرب قد هدأت مؤقتاً وانتهزت الصحف هذه الجريمة لتستخدمها كأهم خبر، وكان موضوع الساعة هو «العلاقة الغامضة في ستايلز».

وبطبيعة الحال كان هذا مزعجاً جداً لعائلة كافيندش. كان البيت محاصَراً بالصحفيين باستمرار، ولم يكن يُسمَح لهم بالدخول أبداً، ولكنهم استمروا بالتردد على القرية وعلى المنطقة المحيطة بالقصر حيث انتظروا مع آلات التصوير ظهور أي فرد غافل من أهل البيت. عشنا جميعاً في عاصفة من الشهرة، وجاء رجال سكتلنديارد وذهبوا وفحصوا وسألوا، وكانوا رجالاً حادّي البصر ومتحفظي اللسان. ولم نكن نعرف ما هي النهاية التي كانوا يعملون للوصول إليها؛ هل كان لديهم أي دليل أم هل سيبقى الأمر مصنَّفاً ضمن الجرائم غير المكتشَفة؟

بعد الإفطار جاءت دوركاس بطريقة غامضة بعض الشيء وسألت إن كنتُ أسمح لها بالحديث معي بضع كلمات، فقلت: بالتأكيد، ماذا تريدين يا دوركاس؟

- حسناً، ليس الأمر مهماً يا سيدي. هل سترى ذلك السيد البلجيكي اللطيف اليوم؟

هززت رأسي موافقاً فأضافت: حسناً يا سيدي، أنت تعلم كيف سألني بإصرار ما إذا كانت السيدة أو أي شخص آخر له ثوب أخضر؟

ازداد اهتمامي بالموضوع وقلت: نعم، نعم، هل وجدتِ واحداً؟

- لا، ليس ذلك يا سيدي، ولكن بعد ذلك السؤال تذكرت ما يسميه السيدان الصغيران (كان جون ولورنس ما يزالان «السيدين الصغيرين» في نظر دوركاس) «صندوق الملابس». إنه في العلّية الأمامية يا سيدي؛ خزانة كبيرة جداً مليئة بالملابس القديمة والتنكّرية وما إلى ذلك. وقد خطر لي فجأة أنه من الممكن أن يكون بينها ثوب أخضر، فلو تكرمت بإخبار الرجل البلجيكي اللطيف...

وعَدتُها قائلاً: سأخبره يا دوركاس.

- شكراً لك يا سيدي. إنه سيد لطيف جداً، وهو يبدو مختلفاً تماماً عن رجلي التحري اللذين جاءا من لندن، اللذين يتطفلان ويسألان الأسئلة. إنني لا أوافق على وجود الأجانب عادة، ولكن حسب ما تقوله الصحف فقد علمت أن هؤلاء البلجيكيين الشجعان استثناء من الأجانب، وبالتأكيد فإن هذا الرجل الصغير هو أكثر الرجال اللطفاء أدباً في الحديث.

عزيزتي دوركاس العجوز! وفيما كانت تقف هناك بوجهها المخلص المرفوع نحوي فكرت بهذا النموذج الجميل للخادمة التقليدية الذي يندثر بسرعة. وفكرت بأن أذهب في الحال إلى القرية وأبحث عن بوارو، ولكنني قابلته في منتصف الطريق قادماً إلى القصر، وفي الحال أبلغته برسالة دوركاس.

قال: آه، دوركاس الشجاعة! سوف نلقي نظرة على الخزانة على الرغم من... لا يهم، سوف نفتشها على كل حال.

دخلنا القصر، ولم يكن في البهو أحدٌ فذهبنا إلى العلّية مباشرة. وبالفعل كانت الخزانة هناك؛ قطعة قديمة جميلة مرصّعة

بالكامل بمسامير نحاسية، وكانت مليئة إلى آخرها بجميع أنواع الملابس التي يمكن تصورها.

رمى بوارو كل شيء خارج الخزانة على الأرض باعتناء قليل. كانت هناك قطعة أو قطعتان من القماش الأخضر بدرجات لونية مختلفة، ولكن بوارو هز رأسه نافياً. وبدا غير راغب في البحث وكأنه لا يتوقع ظهور نتيجة مهمة، وفجأة أبدى علامة تعجب. قلت: ما الأمر؟

- انظر!

كانت الخزانة فارغة تقريباً، وفي قاعها ظهرت لحية سوداء رائعة. صرخ بوارو بانتصار وقلبها بيديه وفحصها عن قرب ثم قال: إنها جديدة، نعم جديدة.

وبعد لحظة تردّد أعادها إلى الخزانة وكوّم جميع الأشياء الأخرى فوقها كما كانت من قبل، ثم أسرع إلى الأسفل وذهب مباشرة إلى حجرة التموين، حيث وجدنا دوركاس مشغولة بتلميع الأواني الفضية.

تمنى بوارو لها صباحاً كله خير بطريقة مؤدبة وتابع حديثه: لقد كنا نبحث في تلك الخزانة يا دوركاس. أنا شاكر لك كثيراً لأنك ذكرت موضوعها، فإن فيها مجموعة رائعة من الملابس. هل لي أن أسألك: هل تُستخدَم هذه الملابس غالباً؟

- حسناً يا سيدي، ليس كثيراً في هذه الأيام، على الرغم من أننا نقوم بين حين وآخر بعمل ما يسميه السيدان الصغيران «ليلة تنكرية». وإنها لممتعة جداً في بعض الأحيان يا سيدي،

والسيد لورنس يكون رائعاً ومضحكاً! لن أنسى تلك الليلة التي نزل فيها وهو يلبس كأنه شاه فارس، وكان يمسك بيده سكيناً كبيرة من الورق ويقول: "احذري يا دوركاس، يجب أن تكوني محترمة جداً. إن سيفي هذا معقوف وحاد وسأقطع به رأسك إذا أصبحت غير راض عنك". والآنسة سينثيا كانت تمثّل نوعاً من قاطعي الرقاب الفرنسيين على ما أظن. كانت تبدو شخصية حقيقية. إنك لن تصدق أبداً أن سيدة جميلة وصغيرة مثلها يمكن أن تغيّر نفسها إلى مثل هذا الشخص الوحشي، فلم يكن ليعرفها أحد.

قال بوارو بلطف: لا بد وأن هذه الأمسيات كانت عظيمة المتعة. أعتقد أن السيد لورنس كان يضع تلك اللحية السوداء الموجودة في الخزانة عندما كانت يتقمص شخصية شاه فارس؟

ردت دوركاس وهي تبتسم: لقد كان يضع لحية يا سيدي، وأنا أعرفها جيداً لأنه استعار مني خصلتين من الصوف الأسود ليصنعها، وأنا متأكدة أنها كانت تبدو رائعة وكأنها حقيقية على البعد. لكنني لم أكن أعرف أن في الخزانة لحية أصلاً؛ لا بد أنها قد وُضعت هناك من وقت قريب. كان هناك شعر أحمر مستعار كما أعرف، ولكن لا شيء آخر من نوع الشعر. لقد كانوا في الغالب يستخدمون الفلين المحروق رغم صعوبة انتزاعه فيما بعد. الآنسة سينثيا كانت زنجية ذات مرة، آه، وقد صادفت مشكلات عديدة.

قال بوارو مفكراً ونحن خارجين في اتجاه البهو مرة أخرى: إذن فإن دوركاس لا تعرف شيئاً عن اللحية السوداء.

همست بلهفة: هل تعتقد أنها اللحية المَعنيّة؟

هز بوارو رأسه بالموافقة وقال: نعم، هل لاحظت كم كانت مشذبة؟

- لا.

- نعم، لقد كانت مشذبة ومقصوصة تماماً بشكل لحية السيد إنغلثورب، وقد وجدت شعرة أو اثنتين من الشعر المقصوص. إن هذه المسألة عميقة جداً يا هيستنغز.

- إنني أتساءل: من الذي وضعها في الخزانة؟

قال بوارو بلهجة جافة: شخص ما على درجة كبيرة من الذكاء؛ لقد اختار المكان الوحيد في البيت لإخفائها حيث لا يمكن ملاحظة وجودها. نعم، إنه ذكي، ولكن يجب أن نكون أكثر ذكاء، يجب أن نكون أذكياء لدرجة أن لا نجعله يشك أننا أذكياء على الإطلاق.

وافقت على كلامه، فأضاف بوارو: وهنا ستكون مصدر عون كبير لي يا صديقي.

سررت بذلك المديح، فقد كنت أفكر في بعض الأحيان في أن بوارو ربما لا يقدرني حق التقدير. استمر بوارو في حديثه وهو ينظر إليّ متأملاً: نعم، ستكون ذا فائدة عظيمة.

بالطبع كان ذلك مُرضياً لي، ولكن كلمات بوارو التالية لم تكن كذلك. قال متفكراً: يجب أن يكون لي حليف في البيت.

احتججت قائلاً: إن لك واحداً، وهو أنا.

- صحيح، ولكنك لا تكفي.

آذاني بوارو بكلامه، وأظهرتُ له ذلك فأسرع بوارو بتوضيح كلامه: أنت لا تفهم ما أقصده تماماً، فمن المعروف بأنك تعمل معي، وأنا أريد شخصاً لا علاقة له بي بأية طريقة.

- آه، فهمت. ماذا عن جون؟

- لا، لا أعتقد ذلك.

قلت مفكراً: ربما يكون هذا الصديق العزيز ليس ذكياً بما فيه الكفاية.

قال بوارو فجأة: ها قد جاءت الآنسة هاوارد. إنها الشخص المطلوب، ولكنني مُدرَج في سجلاتها السوداء منذ أن برّأتُ السيد إنغلثورب. ورغم ذلك يمكن أن نحاول معها.

ردت الآنسة هاوارد على طلب بوارو للحديث معها لبضع دقائق بهزّة رأس شبه ملحوظة. وذهبنا إلى غرفة الصباح الصغيرة وأغلق بوارو الباب، فقالت الآنسة هاوارد بنفاد صبر: حسناً يا سيد بوارو، ما الأمر؟ ادخل إلى الموضوع مباشرة. إنني مشغولة.

- هل تذكرين يا آنسة أنني طلبت منك مساعدتي في إحدى المرات؟

هزت المرأة رأسها وقالت: نعم، أذكر. وأنا قلت بأنني سأساعدك بكل سرور، ولكن على شنق ألفريد إنغلثورب وليس العكس.

تفحصها بوارو باهتمام وقال: آه! آنسة هاوارد؛ سأسألك سؤالاً واحداً وأتوسل إليك أن تجيبي عليه بصدق.

أجابت الآنسة هاوارد: أنا لا أكذب أبداً.

- السؤال هو: هل ما زلت تعتقدين أن السيدة إنغلثورب قد سُمِّمت بواسطة زوجها؟

سألت بحدة: ماذا تعني؟ لا تظن أن تفسيراتك الجميلة قد تغير قناعتي مثقال ذرة. أنا أقرّ أنه لم يكن الذي اشترى الإستركنين من الصيدلية، وماذا في ذلك؟ أنا متأكدة من قولي إنه نقع ورق الذباب المسمَّم في الماء.

ردّ بوارو بهدوء: مثل ذلك السم سيكون الزرنيخ وليس الإستركنين.

- وماذا يهمّ؟ الزرنيخ يمكن أن يقتل المسكينة إيميلي تماماً مثل الإستركنين. عندما أكون مقتنعة بأنه قد فعلها فلا يهمني كثيراً كيف فعلها.

قال بوارو بهدوء: تماماً؛ لو كنتِ مقتنعة بأنه فعلها. سوف أضع سؤالي في إطار آخر: هل اعتقدتِ من كل قلبك في أي وقت من الأوقات أن السيدة إنغلثورب قد سُمِّمت بواسطة زوجها؟

صرخت الآنسة هاوارد: يا إلهي! ألم أقُل لك دائماً إن هذا الرجل وغد؟ ألم أقل لك دائماً إنه سيقتلها في سريرها؟

قال بوارو: بالضبط، وهذا يؤيد فكرتي الصغيرة كلياً.

- أية فكرة صغيرة؟

- آنسة هاوارد، هل تذكرين المحادثة التي دارت يوم وصول صديقي إلى هذا البيت؟ لقد أعادها على مسامعي، وكانت فيها جملة قلتِها أنت وأثّرت في نفسي كثيراً. هل تذكرين أنك أكدت أنه لو ارتُكبت جريمة وكان أحد من تحبّين هو الضحية فإنك ستكونين متأكدة من أنك ستعرفين القاتل عن طريق الغريزة، حتى لو كنت غير قادرة تماماً على إثبات ذلك؟

- نعم، أتذكر أنني قلت هذا، وأنا أؤمن به أيضاً. وأعتقد أنك تعتبر ذلك كلاماً تافهاً؟

- لا، أبداً.

- ورغم ذلك فإنك لم تلتفت إلى غريزتي ضد ألفريد إنغلثورب؟

رد بوارو بجفاف: نعم، لأن غريزتك ليست ضد السيد إنغلثورب.

- ماذا؟

- نعم؛ أنت تتمنين الاعتقاد بأنه ارتكب الجريمة، وأنت تعتقدين أنه قادر على ارتكابها، ولكن غريزتك تقول لك إنه لم يرتكبها. إنها تقول لك أكثر من ذلك... هل أستمرّ؟

كانت تحدق إليه كالمسحورة، وأتت بحركة تأكيد خفيفة من يدها فتابع بوارو: هل أُخبركِ لماذا تتحاملين على السيد إنغلثورب كثيراً؟ لأنك كنت تحاولين تصديق ما كنت تتمنين تصديقه. إنه بسبب محاولتك خنق وإغراق غريزتك التي تخبرك بأن الفاعل هو شخص آخر.

صرخت الآنسة هاوارد بعنف وهي ترفع يديها عالياً: لا، لا، لا! لا تقل ذلك! آه، لا تقل ذلك؛ إن هذا غير صحيح! لا يمكن أن تكون حقيقة. أنا لا أعرف ما الذي وضع مثل هذه الفكرة المرعبة والشريرة في رأسي!

سألها بوارو: هل أنا محق؟

- نعم، نعم؛ لا بد وأنك ساحر لتخمينك هذا. ولكن الأمر لا يمكن أن يكون كذلك... إنها فكرة وحشية مستحيلة. لا بدّ أن يكون ألفريد إنغلثورب.

هز بوارو رأسه ببطء، وتابعت الآنسة هاوارد كلامها قائلة: لا تسألني عنها لأنني لن أخبرك، سوف لن أقرّ بها حتى لنفسي، لا بدّ وأن أكون مجنونة لأنني أفكر بمثل ذلك.

هزّ بوارو رأسه موافقاً كما لو أنه كان راضياً وقال: لن أسألك شيئاً، يكفيني أن يكون الوضع كما فكّرتُ به. وأنا، أنا أيضاً لديّ غريزة. إننا نعمل معاً للوصول إلى نهاية مشتركة.

قالت متلعثمة: لا تطلب مني مساعدتك لأنني لن أفعل. لن أصنع...

- سوف تفعلين رغماً عن نفسك. لن أطلب منك شيئاً، ولكنك ستكونين حليفتي. لن تكوني قادرة على منع نفسك ولسوف تفعلين الشيء الوحيد الذي أريده منك.

- وهو؟

- سوف تراقبين!

حنت إيفيلين رأسها وقالت: نعم، لن أستطيع منع نفسي من فعل ذلك. أنا أراقب دائماً، ودائماً آمل أن يَثبُت أنني مخطئة.

قال بوارو: إذا كنا مخطئين فحسن وجيد، ولن يكون أحد مسروراً أكثر مني. ولكن ماذا لو كنّا على حق؟ لو كنا على حق يا آنسة هاوارد فأي جانب ستختارين؟

- لا أعرف، لا أعرف...

- هيا، قولي.

- يمكن أن تُطمَس تلك الحقيقة.

- لن تطمس الحقيقة أبداً.

- ولكن إيميلي نفسها...

ثم توقفت فجأة، فقال بوارو بوقار: آنسة هاوارد، هذا غير جدير بك.

وفجأة رفعت رأسها من بين يديها وقالت بهدوء: "نعم، لم تكن إيفيلين هاوارد تلك التي تكلمت". ثم رفعت رأسها عالياً وقالت متفاخرة: "ها هي إيفيلين هاوارد، وهي تقف بجانب العدالة، وليكن الثمن ما يكون". وبهذه الكلمات خرجت بحزم من الغرفة.

قال بوارو وهو ينظر إليها وهي ذاهبة: ها هي حليفتنا الثمينة تذهب. تلك المرأة لها عقل وقلب يا هيستنغز.

لم أردّ عليه، فقال بوارو متأملاً: إن الغريزة شيء رائع لا يمكن تفسيره ولا تجاهله.

علّقتُ ببرود قائلاً: على ما يبدو فأنت والآنسة هاوارد تعرفان عن أي شيء تتكلمان، لكن لعلك لا تدرك أنني ما زلت غيرَ مدرك لحديثكما.

- أحقاً ما تقول يا صديقي؟

- نعم، اشرح لي من فضلك؟

تفحصني بوارو بإمعان للحظة أو اثنتين، ثم هزّ رأسه مقرّراً: لا يا صديقي.

- آه، ولِمَ لا؟

- السر لا يحتمل أكثر من اثنين.

- حسناً، أعتقد بأنه من غير العدل أن تخفي عني الحقائق.

- أنا لا أخفي الحقائق، وكل حقيقة أعرفها هي ضمن معرفتك وتستطيع أن تتوصل إلى استنتاجاتك الخاصة منها. إنها فقط مسألة أفكار في هذا الوقت.

- ورغم ذلك فأنا مهتم بمعرفتها.

نظر بوارو إليّ باهتمام وهز رأسه غيرَ موافق مرة أخرى، ثم قال بحزن: ألا ترى؟ لا توجد لديك غرائز.

قلت: لقد كنت تطلب الذكاء فقط قبل قليل.

فردّ بوارو بغموض: غالباً ما يسير الاثنان معاً.

بدت الملاحظة وكأنها خارج السياق كلياً، لذلك لم أشغل نفسي بالإجابة عليها. ولكنني قررت الاحتفاظ بأي اكتشاف مهم

أو مثير أتوصل إليه لنفسي، وبلا شك فسوف أتوصل إلى شيء ما، ومن ثَمّ أفاجئ بوارو بالنتيجة الحاسمة. فهنالك دائماً الأوقات التي يجب على المرء فيها أن يهتم بنفسه أولاً.

* * *

الفصل التاسع
الدكتور بورشتاين

لم تُتَح لي الفرصة حتى تلك اللحظة لتبليغ لورنس برسالة بوارو له. والآن، وفيما كنتُ أسير على المرج، رأيت لورنس في ساحة ملعب الكروكي وهو يضرب بشرود كرتين قديمتين جداً بمضرب أقدم منهما. وخطر لي أن تلك فرصة جيدة لإيصال الرسالة، وإلا فإن بوارو بنفسه سوف يريحني من عناء توصيلها.

ورغم أنني لم أفهم مغزى الرسالة تماماً فقد واسيت نفسي بإمكانية اكتشاف مدلولها من ملاحظة ردّ لورنس عليها، وربما بعد توجيه بعض الأسئلة الذكية من جانبي. وهكذا أسرعت إليه وقلت له كاذباً: لقد كنت أبحث عنك.

- حقاً؟

- نعم. في الحقيقة أن لديّ رسالة لك من بوارو.

- نعم؟

فقلت له وأنا أحاول أن أخفض صوتي بطريقة ذات مغزى وأنا أراقبه متعمداً من طرف عيني: لقد طلب مني أن أنتظر حتى

أكون معك وحدنا.

لقد كنت دائما جيداً في صنع ما يسمونه تهيئة الجو للحديث. قال: حسناً؟ ولم يطرأ أي تغير على تعبيرات وجهه الكئيب. هل كانت لديه أية فكرة عما كنت سأقوله له؟

خفضت صوتي أكثر وقلت: ها هي الرسالة؛ إنه يقول: «اعثر على فنجان القهوة الإضافي وسوف تنعم بعد ذلك بالهدوء».

فنظر إليّ لورنس بدهشة صادقة تماماً وقال: ماذا يعني بالله عليك؟

- ألا تعرف؟

- لا أعرف أبداً. هل تعرف أنت؟

كنت مجبَراً على هز رأسي بالنفي.

قال: أي فنجان قهوة إضافي؟

- لا أعرف.

- من الأفضل له أن يسأل دوركاس أو أي واحد من الخدم إذا أراد أن يعرف شيئاً عن فناجين القهوة، فهذا من عملهم وليس من عملي. أنا لا أعرف أي شيء عن فناجين القهوة ما عدا أنه يوجد عندنا بعض منها لم نستخدمها قط، وهي جميلة جداً ومن خزف وُرشسْتَر القديم. أنت لست خبيراً بها، أليس كذلك يا هيستنغز؟

هززت رأسي دلالة على عدم معرفتي فقال: لقد فاتك الكثير. من الممتع جداً أن تمسك بقطعة حقيقية من الخزف

الصيني القديم باليد، أو حتى أن تنظر إليها.

- حسناً، ماذا أقول لبوارو؟

- قل له إنني لا أعرف عن أي شيء يتحدث. إن هذا غريب جداً بالنسبة لي.

- حسناً.

وحين بدأت بالسير باتجاه البيت مرة أخرى سمعته فجأة يناديني مستوقفاً ثم يقول: ماذا كانت نهاية تلك الرسالة؟ أعدها عليّ مرة أخرى لو سمحت؟

قلت: كانت الرسالة هي: «اعثر على فنجان القهوة الإضافي وسوف تنعم بعد ذلك بالهدوء». ثم سألته بجِدّ: هل أنت متأكد من أنك لا تعرف ماذا تعني؟

هز رأسه وقال متأملاً: قطعاً لا أعرف... أتمنى لو كنت أعرف.

سمعنا صوت الجرس من داخل البيت فذهبنا إلى الداخل معاً. وطلب جون من بوارو البقاء لتناول الغداء، وكان يجلس إلى الطاولة عندما دخلنا. توقف كل الحديث عن المأساة بإجماع ضمني، فتحدثنا عن الحرب وعن موضوعات خارجية أخرى. ولكن بعد مغادرة دوركاس للغرفة مال بوارو فجأة ناحية السيدة كافيندش وقال: اغفري لي يا سيدتي لاستذكار الذكريات المحزنة، ولكن لديّ فكرة صغيرة...

كانت أفكار بوارو الصغيرة قد أصبحت موضع سخرية

تماماً! وأضاف قائلاً: وأودّ أن أسأل سؤالاً أو اثنين.

- تسألني أنا؟ بالتأكيد.

- إنك لطيفة جداً يا سيدة كافيندش. الذي أريد أن أسألك عنه هو الباب الذي يصل غرفة الآنسة سينثيا بغرفة السيدة إنغلثورب، لقد قلتِ إنه كان موصَداً بالمزلاج، أليس كذلك؟

أجابت ماري كافيندش بدهشة: بالتأكيد كان مغلقاً بالمزلاج، لقد قلت ذلك في أثناء التحقيق.

- مغلق بالمزلاج؟

بدت متحيرة وقالت: نعم.

أوضح بوارو: أنا أقصد: هل أنت متأكدة أنه كان مغلقاً بالمزلاج وليس فقط مقفلاً بالمفتاح؟

- آه، فهمت ماذا تقصد. لا، لا أعرف، لقد قلتُ إنه كان مغلَقاً بالمزلاج قاصدة بذلك أنه كان موصَداً بثبات بحيث لم أستطع فتحه، وإن كنت أظن أن جميع الأبواب قد وُجدت مغلقة بالمزلاج من الداخل.

- إذن هل من الممكن أن يكون الباب مقفلاً بالمفتاح فقط؟

- آه، نعم.

- أنت بنفسك يا مدام لم يصادف أن لاحظت عندما دخلت غرفة السيدة إنغلثورب إن كان الباب موصداً بالمزلاج أم لا؟

- أنا... أنا أظن أنه كان كذلك.

- ولكنك لم تلحظيه؟

- نعم، فأنا لم أنظر إليه.

قاطعهما لورنس فجأة قائلاً: ولكني لاحظته بنفسي؛ لقد تصادف أن نظرت إليه فوجدت أنه كان موصداً بالمزلاج.

- آه، إن هذا يُنهي الموضوع.

بدا بوارو خائب الظن، ولم أستطع ضبط ابتهاجي لأنه -ولو لمرة- لم تَقُدْ إحدى «أفكاره الصغيرة» إلى شيء.

وبعد الغداء رجاني بوارو أن أرافقه إلى بيته فوافقت على مضض، وسألني باهتمام ونحن نسير في الحديقة: أنت منزعج، أليس كذلك؟

قلت ببرود: على الإطلاق.

- حسناً، لقد رفع هذا عبئاً ثقيلاً عن كاهلي.

لم يكن هذا ما كنت أريده، فلقد كنتُ آمل أنه سيلاحظ الجمود في تصرفاتي. ومع ذلك فإن العاطفة في لهجته وكلماته قد هدّأت من انزعاجي. ذاب الجليد بيننا وقلت: لقد أبلغت لورنس رسالتك.

- وماذا قال؟ لا بد أنه كان مرتبكاً جداً؟

- نعم، إنني متأكد تماماً أنه لم تكن لديه فكرة عن الذي كنت تقصده.

توقعت أن يخيب ظن بوارو، ولكنه ولشدة دهشتي ردّ بأن ذلك ما كان يتوقعه وأنه مسرور جداً، لكن كبريائي منعتني من أن أسأله أي سؤال. تحول بوارو إلى موضوع آخر قائلاً: إن الآنسة سينثيا لم تكن على الغداء اليوم. لماذا؟

- إنها في المستشفى، فقد استأنفت عملها هناك اليوم.

- إنها فتاة صغيرة وكادحة، وجميلة أيضاً. أودّ أن أرى صيدليتها، هل تظن أنها ستوافق على ذلك؟

- أنا متأكد أنها ستكون سعيدة بذلك. إن هذه الصيدلية مكان صغير وجميل.

- هل تذهب إلى هناك كل يوم؟

- عطلتها الأسبوعية هي يوم الأربعاء، وهي تعود إلى البيت يوم السبت أيضاً لتناول الغداء. هذه هي أوقات عطلها فقط.

- سأتذكر ذلك. تقوم النساء بأعمال كبيرة هذه الأيام، والآنسة سينثيا ذكية. آه، نعم، تلك الفتاة الصغيرة لديها عقل.

- نعم، وأعتقد أنها نجحت في امتحان صعب جداً.

- بلا شك، إنه لعمل مسؤول جداً. أظن أن لديهم سموماً قوية جداً هناك؟

- نعم، لقد أرتنا هذه السموم. إنها محفوظة في خزانة صغيرة مغلقة، وأظن أن عليهم أن يبقوا حريصين جداً، وهم يأخذون المفتاح دائماً قبل مغادرة الغرفة.

- بالطبع، وهل هذه الخزانة قريبة من النافذة؟

- لا، بل هي في الجهة المقابلة من الغرفة. لماذا؟

هز بوارو كتفيه باستهجان وقال: كنت أتساءل، هذا كل ما في الأمر. هل ستدخل؟

كنّا قد وصلنا إلى الكوخ، فقلت له: لا، أريد أن أعود إلى البيت. أريد أن أتمشى داخل الغابة على الطريق الطويل للعودة.

* * *

كانت الغابات حول ستايلز جميلة جداً، وبعد أن قطعت الطريق عبر المتنزّه المفتوح كان من الممتع أن أمشي ببطء خلال المساحات المكشوفة في الغابة الباردة. لم تكن في الجو أي نسمة هواء وكانت أصوات الطيور ضعيفة ومكبوتة، وسرت في طريق صغير، وأخيراً جلست تحت شجرة زان كبيرة وقديمة. هناك كانت أفكاري عن الإنسان لطيفة وطيبة حتى إنني سامحت بوارو بسبب سرّيته المزعجة. في الحقيقة لقد كنت في فترة سلام مع العالم، ثم تثاءبت وفكرت بالجريمة، وتثاءبت ثانية. فكرت أنه من المحتمل أنها لم تحدث قط. بالطبع كانت كلها حلماً سيئاً، وحقيقة الأمر هي أن لورنس هو الذي قتل ألفريد إنغلثورب بمضرب الكروكي، ولكن جون أثار ضجة بشأن هذه الجريمة لأنه راح يصرخ قائلاً: أقول لك إنني لن أرضى بذلك!

كان ذلك مناماً استيقظت منه فَزِعاً، وفي الحال أدركت أنني كنت في وضع حرج، فقد وجدت جون وماري كافيندش يقفان وجهاً لوجه على بعد أربعة أمتار مني فقط، وكان من الواضح أنهما يتشاجران. وأيضاً -وبصورة واضحة تماماً- لم يكونا عارفَين

بوجودي قربهما. وقبل أن أتحرك أو أتكلم أعاد جون الكلمات التي أيقظتني من حلمي: أقول لكِ يا ماري إنني لن أرضى بذلك.

ثم جاء صوت ماري بارداً ومسترخياً: وهل لك أي حق في انتقاد أفعالي؟

- سيكون هذا حديث أهل القرية! لقد دُفِنَت أمي يوم السبت الماضي فقط وها أنت تتسكعين مع الرجل.

هزّت كتفَيها استخفافاً وقالت: آه، إذا كنت تهتم بثرثرة أهل القرية فقط...

- ولكنها ليست ثرثرة. لقد تحمّلت ما يكفي من وجود هذا الرجل هنا، ثم إنه لاجئ بولندي على أي حال.

- إن كونه لاجئاً لا يعتبر شيئاً سيئاً، فإنه يُعادل (ونظرت إليه) حماقة الرجل الإنكليزي العادي.

نار في عينيها، ثلج في صوتها. لذلك لم أتعجب لرؤية وجه جون وقد تدفق الدم فيه كالمَدّ القرمزي وقال: ماري!

أجابت ولم يتغير صوتها: نعم؟

خمدت نبرة التوسّل في صوته وهو يقول: هل أفهم من ذلك أنك ستستمرين في مقابلة بورشتاين ضدّ رغبتي الصريحة؟

- إذا أردتُ أنا ذلك.

- أنت تتحدينني؟

- لا، ولكني أنكر حقك في انتقاد أفعالي. ألا يوجد لك أصحاب لا أريدهم أنا؟

تراجع جون خطوة إلى الوراء وانحسر اللون من وجهه ببطء، ثم قال بصوت غير ثابت: ماذا تقصدين؟

فقالت ماري بهدوء: أنت تعرف، أنت تعرف جيداً، أليس كذلك؟ لذلك ليس لك الحق في أن تُملي عليّ اختيار أصدقائي؟

نظر إليها جون ضارعاً وقد بدت على وجهه نظرة الهزيمة، وقال بغير ثبات: ليس لي الحق؟ أليس لي الحق يا ماري؟

ثم مدّ يديه وقال: ماري...

اعتقدت أنها قد اهتزّت للحظة، وظهر على وجهها تعبير أهدأ، وفجأة انقلبت مبتعدة بعنف وقالت: كلا!

كانت تبتعد عندما أسرع جون خلفها وأمسكها من ذراعها. كان صوته هادئاً جداً الآن: ماري! هل تحبين هذا الرجل بورشتاين؟

ترددَت، وفجأة ظهر على وجهها تعبير غريب. حررت نفسها بهدوء من ذراعه وأجابته من وراء كتفها: "ربما". ثم ذهبَت مسرعةً خارج الغابة الصغيرة تاركةً جون واقفاً هناك كما لو أنه قد تحول إلى حجر.

سرت إلى الأمام بحزم وأنا أدوس بعض الأغصان الميتة بقدمي، فالتفت جون ناحيتي، ولحسن الحظ فقد ظن أنني قد

وصلت الآن فقط. قال: أهلاً يا هيستنغز. هل أوصلت الرجل الصغير إلى كوخه بأمان؟ يا له من رجل صغير ظريف! هل هو جيد فعلاً؟

- كان يُعتبَر واحداً من أروع رجال التحري في زمنه.

- حسناً، إذن فأظن أن شيئاً ما سينتج عنه، ومع ذلك... يا له من عالم فاسد!

سألته: أتراه كذلك؟

- نعم! هناك هذا العمل البشع الذي حصل، ورجال سكتلنديارد يدخلون ويخرجون من البيت مثل العفاريت فلا تعرف أين سيظهرون في المرة القادمة، وعناوين صارخة في كل صحيفة في البلد... تباً لهؤلاء الصحفيين! هل تعلم أن حشداً كاملاً من الصحفيين كان يقف عند بوابة القصر وينظر من خلال السياج هذا الصباح، وكأنه صالة الرعب في متحف الشمع، ولكنه مجاني هنا! إنه لموقفٌ صعب، أليس كذلك؟

قلت ملطّفاً الجو: ابتهج يا جون! إن هذا الوضع لن يدوم إلى الأبد.

- ألن يدوم؟ لكنه سيدوم بما فيه الكفاية بحيث لن يمكننا رفع رؤوسنا مرة أخرى.

- لا، لا، إنك تبدو كئيباً بسبب هذا الموضوع.

- ثمة ما يكفي ليجعل الإنسان كئيباً، أن تُطارَد من قِبَل صحفيين أوغاد ويحدق إليك الحمقى أينما تذهب... ولكن هناك

ما هو أسوأ من هذا!

- ما هو؟

خفض جون صوته وقال: هل تساءلت يوماً يا هيستنغز مَن فعلها؟ إنه لكابوس بالنسبة لي. في بعض الأوقات لا أستطيع السيطرة على إحساسي بأنه حادث عَرَضي لأنه... مَن يستطيع أن يفعلها؟ إنغلثورب خارج الموضوع ولا يوجد أحد آخر، لا أحد... أعني ما عدا واحداً منا.

نعم، في الحقيقة كان ذلك كابوساً لأي شخص! واحد منّا؟ نعم، لا بدّ أن الأمر كذلك، إلا إذا...

خطرت في بالي فكرة جديدة، وبسرعة فكرت فيها. ازداد الفهم؛ إن أفعال بوارو الغامضة وتلميحاته جميعها تبدو ملائمة الآن. لقد كنت من الغباء بحيث لم أفكر بهذه الإمكانية من قبل، ويا لها من راحة لنا جميعاً!

قلت: لا يا جون، إنه ليس واحداً منا. كيف يكون ذلك؟

- أعرف، ولكن من يكون غيرنا؟

- ألا تستطيع أن تخمن؟

- لا أستطيع.

نظرت حولي بحذر وخفضت من صوتي وقلت هامساً: الدكتور بورشتاين؟

- مستحيل!

- ليس مستحيلاً.

- ولكن ما هي مصلحته من وفاة أمي؟

اعترفت قائلاً: هذا ما لا أفهمه، ولكني سأخبرك بالتالي: إن بوارو يعتقد ذلك أيضاً.

- بوارو؟ هل يعتقد أيضاً؟ كيف عرفت؟

أخبرته بدهشة بوارو الشديدة عندما سمع بأن الدكتور بورشتاين كان في قصر ستايلز في ليلة الجريمة، وأضفت: لقد قال لي مرتين: "إن هذا يغيّر كل شيء". وقد كنت أفكر: أنت تعرف أن إنغلثورب قال إنه وضع القهوة في البهو. حسناً، كان ذلك في نفس الوقت الذي وصل فيه بورشتاين تماماً، أليس من الممكن أنه أسقط شيئاً ما في القهوة وهو يمر بجانبها حين كان إنغلثورب يدخله إلى البهو؟

قال جون: يمكن أن تكون في ذلك مخاطرة كبيرة.

- نعم، ولكنه أمر ممكن.

- ثم كيف عرف أنها قهوتها؟ لا يا زميلي القديم، لا أظن أن هذا يكشف الفاعل.

ولكنني تذكرت شيئاً آخر فقلت لجون: أنت محق تماماً، إن الأمر لم يتم هكذا. استمع!

ثم أخبرته عن عينة الكاكاو التي أخذها بوارو لتحليلها، فقاطعني جون قائلاً: ولكن ألم يحلّلها بورشتاين بنفسه؟

- نعم، وهذه هي النقطة. ألا تفهم؟ بورشتاين حللها، وهذا

هو ما في الأمر! لو كان بورشتاين هو القاتل فلن يكون أسهل عليه من أن يستبدل بالعينّة كاكاواً عادياً ثم يرسله إلى الفحص، وبالطبع فلن يجدوا فيه أي إستركنين! ولكن أحداً لم يكن يحلم بالشك في بورشتاين أو يفكر بأخذ عينة أخرى ما عدا بوارو.

- نعم، ولكن ماذا عن الطعم المر الذي لا يمكن للكاكاو أن يُخفيه؟

- حسناً، ليس لدينا في ذلك إلا كلامه. وهناك احتمالات أخرى، فهو مشهود له بأنه أحد أعظم علماء السموم في العالم...

- واحد من أعظم علماء العالم في ماذا؟ قلها ثانية.

أوضحت قائلاً: إنه يعرف عن السموم أكثر من أي شخص تقريباً. حسناً، إن رأيي هو أنه ربما وجد طريقة ما لإخفاء طعم الإستركنين، أو ربما لا يكون السم هو الإستركنين أصلاً بل عقّار غامض لم يسمع به أحد من قبل ويسبّب الأعراض نفسها.

قال جون: نعم، يمكن أن يكون كذلك. ولكن كيف وصلَت يده إلى الكاكاو؟ إن الكاكاو لم يكن موضوعاً في الطابق السفلي.

اعترفت مُكرَهاً: نعم، لم يكن.

ثم فجأة خطرت ببالي إمكانية مرعبة وأنا آمل وأدعو الله أن لا تكون قد خطرت لجون أيضاً. نظرت إليه بطرف عيني فوجدته عابساً ومرتبكاً، فسحبت نفَساً عميقاً لأرتاح؛ ذلك لأن الفكرة المرعبة التي خطرت ببالي كانت كالتالي: إن الدكتور بورشتاين

كان يمكن أن يكون له شريك. إن امرأة بجمال ماري كافيندش لا يمكن أن تكون قاتلة في رأيي، ولكن بعض النساء الجميلات سمّمن أو قتلن أزواجهن ذات يوم.

وفجأة تذكرت المحادثة الأولى لي معها ونحن نتناول الشاي في يوم وصولي والبريق الذي ظهر في عينيها عندما قالت إن السم هو سلاح المرأة. كم كانت قلقة في مساء يوم الثلاثاء القاتل! هل اكتشفت السيدة إنغلثورب شيئاً بينها وبين بورشتاين وهددتها بأنها ستخبر زوجها؟ وهل كان دافع ارتكاب الجريمة هو منع إشهار ذلك الموضوع؟ ثم تذكرت تلك المحادثة الغامضة بين بوارو وإيفلين هاوارد. هل كان ذلك ما كانا يقصدانه؟ هل كان هذا هو الاحتمال المخيف الذي تحاول إيفلين عدم تصديقه؟

نعم، كل الفقرات تتطابق. فلا عجب أن اقترحت الآنسة هاوارد «طمس الموضوع». والآن فهمت جملتها التي لم تُنهِها عندما قالت: "إيميلي نفسها...". وفي قلبي كنت أتفق معها؛ أفلم تكن السيدة إنغلثورب لتفضل الموت دون الانتقام لها على هذا العار المخيف الذي سيلطخ اسم كافيندش؟

وفجأة قال جون: هناك شيء آخر.

جعلتني نبرة صوته غير المتوقَّعة أشعر بالذنب، وأضاف قائلاً: شيء يجعلني أشك ما إذا كان الكلام الذي تقوله صحيحاً.

سألته وأنا مسرور لأنه ابتعد عن موضوع كيفية وضع السم في الكاكاو: وما هو؟

- حسناً، إنها حقيقة أن بورشتاين قد طلب تشريح الجثة،

فهو لم يكن بحاجة لطلب ذلك وكان الدكتور ويلكنز مطمئناً تماماً بحيث يجعل المسألة تسير على أساس مرض القلب.

قلت متشككاً: نعم، ولكننا لا نعرف. ربما ظن أن ذلك سيكون أكثر أمناً له على المدى البعيد، فلربما تكلّم أي شخص حول الموضوع فيما بعد. ثم من الممكن أن يطالب مكتب التحقيق بنبش القبر، وحينها سينكشف كل شيء وسيقع في موقف حرج؛ حيث لا يمكن أن يصدّق أحدٌ أن رجلاً بشُهرته يمكن أن يُخدَع عن طريق الادعاء بأن وفاتها كانت نتيجة مرض القلب.

أقر جون قائلاً: نعم، هذا ممكن، ومع ذلك فإنني لا أفهم ما هو باعثه على الأمر.

ارتجفت وقلت: يمكن أن أكون مخطئاً تماماً. وتذكّر: كل هذا يجب أن يبقى سراً.

- آه، بالطبع، لا داعي لأن تقول هذا.

سرنا ونحن نتحدث، وحين مررنا عبر البوابة الصغيرة إلى الحديقة ارتفعت الأصوات قريبة منا حيث وُضع الشاي تحت شجرة الجميز، تماماً مثل أول يوم لوصولي. كانت سينثيا قد عادت من المستشفى فوضعتُ الكرسي بجانبها وأخبرتها عن رغبة بوارو بزيارة الصيدلية، فقالت: بالطبع أحب أن يزورني هناك، أرجو أن يأتي لتناول الشاي يوماً ما. سأحدد الموعد معه، إنه رجل ممتع. لقد جعلني بالأمس أرفع الدبوس عن ربطة عنقي ثم وضعه ثانية لأنه لم يكن مستقيماً كما قال.

ضحكت قائلاً: إن له هوَساً شديداً بهذه الأمور.

- نعم، أليس كذلك؟

بقينا صامتين لدقيقة أو اثنتين، ثم نظرنا في اتجاه ماري كافيندش، وقالت سينثيا وهي تخفض صوتها: سيد هيستنغز؟

- نعم؟

- بعد تناول الشاي أريد أن أتحدث معك.

جعلتني نظرتها نحو ماري أفكر. تخيلت أن التعاطف بين الاثنتين كان قليلاً جداً، وللمرة الأولى لاح في ذهني تساؤل عن مستقبل الفتاة. إن السيدة إنغلثورب لم توصِ لها بأي شيء، ولكني تصورت أن جون وماري من المحتمَل أن يصرّا على بقائها معهما في البيت حتى انتهاء الحرب على الأقل. وكنت أعرف أن جون يعطف عليها وأنه سيكون حزيناً إذا تركها تذهب.

عندئذ خرج جون من البيت الذي كان قد دخله قبل ذلك بفترة وجيزة، وقد ظهرت على وجهه المتسامح مسحة غضب غير معتادة، وقال: اللعنة على رجال التحري هؤلاء! لا أعرف ماذا يريدون؛ لقد دخلوا كل غرفة في البيت فأخرجوا كل الأغراض وعبثوا بها وقلبوها رأساً على عقب. حقاً إن هذا سيء جداً! أظن أنهم استغلوا فترة وجودنا جميعاً في الخارج. لا بد أن أكلم ذلك الرجل جاب عندما أراه في المرة القادمة.

دمدمَت إيفيلين: يا لهم من جمع من المحققين العباقرة!

وعلّق لورنس قائلاً إن عليهم أن يتظاهروا بفعل شيء على الأقل، ولم تقل ماري شيئاً.

وبعد تناول الشاي دعوت سينثيا للمشي، وانطلقنا ناحية الغابات معاً. وعندما أصبحنا في حماية الستارة الخضراء من عيون المراقبين سألتها: حسناً؟

ألقت سينثيا نفسها على الأرض ونزعت قبعتها، وقد حوّل ضوء الشمس الذي يخترق أغصان الأشجار شعرها الخرّوبي إلى لون ذهبي. قالت: سيد هيستنغز، إنك دائماً لطيف وتعرف الشيء الكثير.

وفي تلك اللحظة لاحظت أن سينثيا فتاة جذابة حقاً؛ أكثر جاذبية من ماري التي لا تقول أبداً كلاماً لطيفاً. سألتها بلطف: حسناً؟

ترددت سينثيا وقالت: أريد نصيحتك. ماذا عليّ أن أفعل؟

- تفعلين؟

- نعم. أنت تعلم أن الخالة إيميلي كانت تقول دائماً إنها ستترك لي شيئاً لإعالتي، لكن يبدو أنها نسيت أو لم تفكر أنها كانت على وشك الموت... وعلى أية حال فإنها لم تترك لي أي شيء. أنا لا أعرف ماذا أفعل. هل تعتقد أن عليّ أن أترك هذا المكان حالاً؟

- يا إلهي، لا! إنهم لا يريدون فراقك، أنا متأكد من ذلك.

ترددت سينثيا لحظة وهي تعبث بالعشب بيديها الصغيرتين ثم قالت: السيدة كافيندش تريد مغادرتي، إنها تكرهني.

صرخت بدهشة: تكرهك؟

هزت سينثيا رأسها بالإيجاب وقالت: نعم. لا أعرف السبب، ولكنها لا تتحملني. وهو مثلها.

قلت بحرارة: هنا أنت مخطئة، بل على العكس فإن جون يحبك.

- آه، نعم، جون. كنت أقصد لورنس. وبالطبع فأنا لا أهتم إذا كان لورنس يكرهني أو يحبني، رغم أن من المخيف أن لا يحبك أحد، أليس كذلك؟

قلت بحرارة: ولكنهم يحبونك يا عزيزتي سينثيا؛ أنا متأكد من أنك مخطئة. جون والآنسة هاوارد...

هزت رأسها بالإيجاب وقالت هي عابسة: نعم، إن جون يحبني على ما أظن، وإيفي بالطبع لأنها لا تؤذي ذبابة بالرغم من أسلوبها الفظ. ولكن لورنس لا يتكلم معي ما دام يستطيع ذلك، وماري تتظاهر باللطف معي بصعوبة رغماً عنها. إنها تريد من إيفي أن تبقى وتتوسل لها لكي تبقى، ولكنها لا تريدني و... أنا لا أعرف ماذا أفعل.

وفجأة انفجرت الطفلة المسكينة بالبكاء. ولا أعرف ما الذي تملّكني؛ ربما كان جمالها، وربما كان الإحساس بالارتياح لمصادفة شخص ليست له علاقة بالمأساة بصورة مباشرة، وربما الشعور بالشفقة الصادقة عليها بسبب وحدتها. وعلى أي حال فقد انحنيت إلى الأمام وأمسكت بيدها وقلت بارتباك: تزوجيني يا سينثيا.

وبصورة غير متوقَّعة كان ذلك علاجاً فعّالاً لدموعها، فقد نهضت في الحال وسحبت يدها بعيداً وقالت بقسوة قليلة: لا تكن أحمق!

انزعجت قليلاً وقلت: أنا لست أحمق، بل يشرفني أن تكوني زوجتي.

ولشدة دهشتي انفجرت سينثيا ضاحكة ودعتني بالعزيز المضحك، ثم قالت: هذا لطف بالغ منك، ولكنك تعلم أنك لا تريد ذلك!

- ولكني أريد ذلك فعلاً، فإن لي...

- لا يهمني ماذا لديك. في الحقيقة أنت لا تريد ذلك، ولا أنا أيضاً.

قلت بجمود: حسناً، إن هذا يحسم الموضوع بالطبع، ولكني لا أرى ما يستدعي الضحك فلا يوجد ما يُضحك بخصوص طلب الزواج.

قالت سينثيا: نعم، بالفعل، وربما في المرة القادمة يمكن أن توافق عليك فتاة أخرى. وداعاً، لقد أسعدتني كثيراً.

ثم اختفت بين الأشجار وعلى وجهها ابتسامة مرحة لم تستطع السيطرة عليها. والآن عندما أفكر بهذه المقابلة بعد كل هذا الوقت أكاد أصعق، لأنني لست راضياً عنها إطلاقاً.

وخطر لي فجأة أن أذهب إلى القرية وأبحث عن بورشتاين، فلا بد من وجود شخص ما ليراقب هذا الرجل، وفي الوقت ذاته

فمن الحكمة تهدئة أي مخاوف يمكن أن تُظهر له أنه في محل شك.

وتذكرت كيف أن بوارو يثق بدبلوماسيتي، وبناء على ذلك ذهبت إلى البيت الصغير حيث كنت أعرف أنه يسكن وقرعت الباب. جاءت امرأة كبيرة في السن وفتحت الباب، فقلت بأدب: مساء الخير، هل الدكتور بورشتاين هنا؟

حدقت إليّ وقالت: ألم تسمع؟

- أسمع ماذا؟

- عنه.

- وماذا عنه؟

- لقد أُخِذ.

- أُخِذ؟ مات؟

- لا، أخذه رجال الشرطة.

- هل تعنين أنهم اعتقلوه؟

- نعم، إن الأمر كذلك و...

لم أنتظر لأسمع منها أكثر، بل انطلقت إلى القرية لأبحث عن بوارو.

* * *

الفصل العاشر
الاعتقال

انزعجت كثيراً لأن بوارو لم يكن هناك، وأبلغني رجل بلجيكي عجوز فتح لي الباب أنه يظن أنه قد ذهب إلى لندن. صُعقت بشدة، فما الذي يفعله بوارو في لندن؟ هل كان قراراً مفاجئاً اتخذه أم أنه كان قد قرر ذلك حينما فارقني قبل ساعات قليلة؟ عدت أدراجي نحو قصر ستايلز منزعجاً قليلاً، فعندما يكون بوارو بعيداً لا أكون متأكداً كيف أتصرف. هل توقع اعتقال الرجل؟ ألم يكن هو السبب وراء اعتقاله على كل حال؟ لم أستطع العثور على حل لهذه الأسئلة، وماذا عليّ أن أفعل حتى ذلك الحين؟ هل أذيعُ خبر اعتقاله أمام أهل القصر أم لا أفعل؟ وعلى الرغم من أنني لم أعترف بذلك أمام نفسي فإن أفكاري بشأن ماري كافيندش كانت تُثقل عليّ؛ ألن يكون ذلك الخبر صدمة عنيفة لها؟ حتى هذه اللحظة كنت قد وضعت شكوكي حولها جانباً بصورة كلية، فلا يمكن أن تكون متورطة وإلا لكنت سمعت بعض التلميحات بهذا الشأن.

وبالطبع لم يكن ممكناً إخفاء خبر اعتقال الدكتور بورشتاين عنها إلى الأبد، فسوف يُعلَن في كل صحيفة في الصباح، ورغم

ذلك فقد ترددت في إعلامها بالخبر. لو كان بوارو موجوداً لكنت طلبت نصيحته. ما الذي طرأ على باله حتى يذهب إلى لندن على جناح السرعة بهذه الطريقة غير المبرَّرة؟ ورغماً عني ازداد رأيي بذكائه بصورة غير متصورة، فلم أكن أحلم بالشك بالدكتور ما لم يضع بوارو الفكرة في رأسي. نعم، من المؤكد أن هذا الرجل الضئيل كان ذكياً.

وبعد بعض التفكير قررت أن أُطلع جون على سري وأترك له القرار بخصوص إذاعة الخبر أو كتمانه بحسب ما يراه مناسباً. وعندما أبلغته الخبر صفر صفرة تعجب قائلاً: يا له من شرطي عظيم! لقد كنت محقاً إذن. لم أكن لأصدق في ذلك الوقت.

- إنك ستجدها فكرة غريبة في البداية فقط، ولكن انظر كيف أنها تجعل كل شيء متناسباً. والآن ماذا سنفعل؟ بالطبع سوف ينتشر الخبر غداً.

فكر جون ثم قال: لا تهتم، لن نقول أي شيء في الوقت الحالي. لا حاجة لذلك. فكما قلتَ فإن الخبر سَيُعرَف قريباً جداً.

ولكن ولشدة دهشتي، عندما استيقظت مبكراً في الصباح التالي وفتحت الصحيفة بلهفة لم أجد فيها كلمة واحدة عن موضوع الاعتقال! كان هذا محيّراً، واعتقدت أن جاب قد أراد -لسبب أو لآخر- أن يُبقي المسألة بعيدة عن حديث الصحف. وقد أزعجني هذا بعض الشيء لأنه أوحى بإمكانية اعتقالات أخرى قادمة.

وبعد الإفطار قررت أن أذهب إلى القرية وأرى إن كان

بوارو قد عاد، ولكن قبل أن أتحرك أطل وجه معروف من الباب الزجاجي وقال صوتٌ مألوف: صباح الخير يا صديقي!

صرخت متعجباً بارتياح وأنا أمسكه بيدي كلتيهما وأسحبه إلى داخل الغرفة: بوارو! إنني لم أكن مسروراً لرؤية أي واحد كما أنا الآن. اسمع، أنا لم أخبر أي إنسان سوى جون. هل هذا التصرف صائب؟

رد بوارو: يا صديقي، أنا لا أعرف عن أي شيء تتكلم.

أجبته بنفاد صبر: عن اعتقال الدكتور بورشتاين بالطبع.

- وهل اعتُقل بورشتاين إذن؟

- ألا تعرف ذلك؟

- أنا آخر من يعلم في هذه الدنيا. ولكنه...

توقف لحظة ثم أضاف: ورغم ذلك فأنا لست مدهوشاً، فنحن لا نبعد غير أربعة أميال عن الشاطئ بالطبع.

سألته متحيراً: الشاطئ؟ وما علاقة الشاطئ بالموضوع؟

هز بوارو كتفيه مستهجناً وقال: بالتأكيد إنه موضوع واضح!

- ليس بالنسبة لي. أشكّ في أنني غبي جداً، ولكنني لا أرى ما هي علاقة قرب الشاطئ بمقتل السيدة إنغلثورب.

رد بوارو وهو يبتسم: ليس له علاقة بمقتلها بالطبع، ولكننا نتكلم عن اعتقال الدكتور بورشتاين.

- حسناً، لقد اعتُقِل لقتله السيدة إنغلثورب...

صرخ بوارو بدهشة واضحة: ماذا؟ الدكتور بورشتاين اعتُقل لقتله السيدة إنغلثورب؟

- نعم.

- مستحيل! إن هذا سيكون مهزلة كبيرة! مَن قال لك ذلك يا صديقي؟

اعترفت قائلاً: حسناً، لم يخبرني أحد بذلك ولكنه اعتُقل.

- نعم، هذا محتمل، ولكن بتهمة التجسس يا صديقي.

صرخت: التجسس؟!

- تماماً.

- وليس لتسميمه السيدة إنغلثورب؟

رد بوارو بهدوء: ليس لتسميمه السيدة إنغلثورب بالطبع، إلا إذا كان صديقنا جاب قد فقدَ عقله.

- ولكن... ولكني ظننت أنك اعتقدت ذلك أيضاً؟

نظر إليّ بوارو نظرة توحي بالشفقة عليّ وهو يشعر تماماً بسخافة فكرتي هذه. سألته وأنا أحاول أن أكيف نفسي مع الفكرة الجديدة ببطء: هل تريد أن تقول إن الدكتور بورشتاين جاسوس؟

هزّ بوارو بالإيجاب وقال: ألم تشكّ في ذلك قط؟

- على الإطلاق.

- ألم يُثِر انتباهَك غرابة أن يأتي طبيب مشهور من لندن ويدفن نفسه في قرية صغيرة كهذه، ويكون ديدنه عادة المشي طول الوقت في الليل وهو بكامل ملابسه؟

اعترفت: لا، لم أفكر بشيء كهذا.

قال بوارو متفكراً: إنه ألماني المولد بالطبع، رغم أنه قد عمل طويلاً في هذا البلد بحيث لم يكن أحد ليفكر أنه غير إنكليزي. وقد حصل على الجنسية الإنكليزية منذ خمسة عشر عاماً تقريباً، إنه رجل ذكي جداً.

صرخت بسخط: الوغد!

- بل هو على العكس، رجل وطني. فكّر فيما سيخسره. إنني معجب بهذا الرجل.

ولكني لم أستطع النظر إلى المسألة بطريقة بوارو الفلسفية فصرخت ساخطاً: وهذا هو الرجل الذي كانت السيدة كافيندش تجوب معه أرجاء الريف!

علّق بوارو: نعم، ويجب أن أتخيل أنه قد وجدها مفيدة جداً، فما دامت الأقاويل مشغولة بربط اسمَيهما معاً فإن تصرفات الدكتور الأخرى تمر دون ملاحظة.

سألته متلهفاً: إذن فأنت تعتقد أنه لم يكن يهتم بها فعلاً؟

- هذا ما لا أستطيع قوله بالطبع، ولكن... أتريد أن أخبرك برأيي الخاص يا هيستنغز؟

- نعم.

- حسناً، إنه كذلك: إن السيدة كافيندش لا تهتم ولم تهتم قط مثقال ذرة بالدكتور بورشتاين!

لم أستطع إخفاء سعادتي وقلت: هل تعتقد ذلك حقاً؟

- إنني متأكد تماماً من هذه الحقيقة، وسوف أخبرك لماذا.

- نعم؟

- لأنها تهتم بشخص آخر يا صديقي.

- آه!

ماذا يعني بذلك؟ قاطع الدخول المفاجئ للآنسة هاوارد أفكاري؛ نظرَت بسرعة حول الغرفة لتتأكد من عدم وجود غيرنا فيها، وبسرعة أخرجت ورقة لفّ بنية قديمة من النوع الذي تُحزَم به الطرود، وهمست بهذه الكلمات الغامضة وهي تسلمها إلى بوارو: "فوق خزانة الثياب". ثم تركت الغرفة مسرعة.

فتح بوارو الورقة بلهفة وأظهر علامة رضا. نشرها على الطاولة وقال: تعال هنا يا هيستنغز. والآن قل لي: ما هو هذا الحرف الأول، «ل» أم «ج»؟

كانت الورقة من الحجم المتوسط يعلوها الغبار كما لو كانت متروكة لبعض الوقت، ولكن كان الشعار عليها هو الذي جذب انتباه بوارو. في أعلاها كانت تحمل خاتم «السادة باركسون»، وهي شركة معروفة لإنتاج ملبوسات مسرحية، وكانت مُعَنْوَنة باسم: (الحرف غير الواضح) كافيندش، قصر ستايلز، ستايلز

سينت ميري، إيسكس.

قلت بعد تفحص الورقة دقيقة أو دقيقتين: يمكن أن يكون حرف التاء أو اللام، ولكنه ليس الجيم بالتأكيد.

رد بوارو وهو يطوي الورقة مرة أخرى: جيد، أنا أيضاً أفكر بالشيء نفسه. إنه حرف اللام، ثِقْ بذلك!

سألته بفضول: من أين جاءت؟ وهل هي مهمة؟

- نوعاً ما. إنها تؤكد على حدس لي. لقد خمّنت وجودها ولذلك طلبت من الآنسة هاوارد أن تبحث عنها، وكما ترى فقد نجحَت في ذلك.

- ماذا كانت تعني بقولها: "فوق خزانة الثياب"؟

رد بوارو في الحال: تعني أنها وجدتها فوق خزانة الثياب.

قلت متأملاً: مكان غريب لورقة من أوراق اللفّ والتحزيم.

- على الإطلاق؛ إن سطح خزانة الثياب هو المكان المناسب لوجود أوراق اللف وصناديق الكرتون. أنا عادة أحتفظ بهذه الأشياء هناك، وإذا كانت مرتَّبة بشكل دقيق فليس فيها ما يؤذي العين.

سألته بحدة: بوارو! هل قررت شيئاً بخصوص هذه الجريمة؟

- نعم. أظن أنني أعرف كيف تم ارتكابها.

- آه!

- لسوء الحظ، ليس لديّ دليل أكثر من حدسي، ما لم...

وبنشاط مفاجئ أمسكني من ذراعي وجذبني إلى البهو وهو ينادي باللغة الفرنسية من شدة انفعاله: آنسة دوركاس، آنسة دوركاس؛ تعالي لحظة من فضلك!

جاءت دوركاس مسرعة من غرفة التموين وقد جذبتها الجَلَبة، فقال لها: عزيزتي دوركاس، لديّ فكرة، فكرة صغيرة، لو استطعتُ إثبات تعليلها فستكون فرصة رائعة! قولي لي: في يوم الإثنين، ليس الثلاثاء يا دوركاس بل الإثنين، اليوم الذي سبق المأساة، هل أصاب عطلٌ جرسَ السيدة إنغلثورب؟

بدت المفاجأة الشديدة على دوركاس وقالت: نعم يا سيدي، لقد تذكرت الأمر إذ تذكره أنت الآن. لقد حصل ذلك، ولكني لا أعرف كيف علمت به! لا بد أن يكون فأر قد قضم سلك الجرس، ثم جاء الرجل وأصلحه يوم الثلاثاء صباحاً.

عاد بوارو إلى غرفة الصباح بعد تنهيدة ارتياح طويلة وقال: انظر، لا يجب على المرء أن يسأل عن دليل خارجي. نعم، لا بد أن يكون المنطق كافياً. إنه لعزاء لنا أننا على الطريق الصحيح. آه يا صديقي، إنني الآن كعملاق منتعش، إنني أركض، إنني أقفز!

وفي الحقيقة كان بالفعل يركض ويقفز مرحاً بنشاط على طول الممر خارج الباب الزجاجي الطويل. وجاء صوت من خلفي قائلاً: ماذا يفعل صديقك الصغير المدهش؟

التفتّ إلى الوراء فوجدت ماري كافيندش قريبة مني، وابتسمَت فابتسمتُ أنا كذلك.

قالت: ما الأمر؟

- في الحقيقة لا أستطيع أن أخبرك. لقد سأل دوركاس بعض الأسئلة عن جرس وبدا أنه مسرور جداً لإجابتها بحيث راح يثب مرحاً كما ترين!

ضحكت ماري قائلة: يا للسخف! إنه ذاهب خارج البوابة، ألن يعود ثانية هذا اليوم؟

- لا أعرف. لقد تخلّيت عن محاولة تخمين العمل الذي سيقوم به لاحقاً.

- أهو مجنون يا سيد هيستنغز؟

- بأمانة لا أعرف. في بعض الأحيان أشعر بأنه مجنون، ثم وفي قمة جنونه أجد لجنونه منهجاً.

- آه، نعم.

رغم ضحكتها بدت ماري هذا الصباح مستغرقة في التفكير. بدت جادة، بل حزينة. وبدا لي أنها فرصة جيدة لأحدّثها في موضوع سينثيا، فبدأت معها بصورة لبقة كما ظننت، ولكني لم أمضِ بعيداً حتى أوقفتني بصورة حازمة قائلة: أنت محام ممتاز بلا شك يا سيد هيستنغز، ولكن موهبتك تتبدد عبثاً في هذه القضية، فلا يوجد أي خطر على سينثيا من ناحيتي.

بدأت أتلعثم بضعف مُعرباً عن أملي بأن لا تكون قد اعتقدت بأن... ولكنها أوقفتني عن الكلام مرة أخرى، وكانت كلماتها غير متوقَّعة إلى حد أبعد سينثيا ومشكلتها عن عقلي تماماً.

قالت: سيد هيستنغز، هل تظن أنني وزوجي سعيدان معاً؟

أدهشني ذلك السؤال كثيراً، وتمتمت ببعض الكلمات قائلاً إنه ليس من حقي التفكير بمثل هذا الموضوع. فقالت بهدوء: حسناً، سواء أكان ذلك من حقك أم لم يكن فسوف أخبرك بأننا لسنا سعيدَين.

لم أقل شيئاً لأنني رأيت أنها لم تكمل كلامها. بدأَت تتمشى ذهاباً وإياباً في الغرفة ببطء ورأسها ينحني قليلاً وقوامها النحيف المرن يتمايل بلطف عندما تتمشى، ثم توقفت فجأة ونظرت إليّ وسألت قائلة: أنت لا تعرف شيئاً عني، أليس كذلك؟ من أين جئتُ؟ ومَن كنت قبل زواجي بجون؟ في الحقيقة أنت لا تعرف عني أي شيء. حسناً، سأخبرك؛ سأجعل منك كاهن الاعتراف. إنك لطيف، أظن ذلك... نعم، أنا متأكدة أنك لطيف.

لم أبتهج كما يجب أن أفعل، فقد تذكرت أن سينثيا بدأت معي حديث صراحتها بنفس الطريقة تماماً. وأيضاً فإن كاهن الاعتراف يكون كبيراً في السن وليس هذا دور شاب.

قالت السيدة كافيندش: لقد كان أبي إنكليزياً ولكن أمي كانت روسية.

قلت: آه، الآن فهمت...

- فهمت ماذا؟

- تبدو فيك لمحة أجنبية ومختلفة.

- كانت أمي جميلة جداً على ما أظن. لا أعرف لأنني لم

أرَها قط؛ فقد ماتت بعد ولادتي بوقت قصير. وأظن أن وفاتها كانت مأساوية بعض الشيء، فقد أخذت جرعة مضاعفة من الدواء المنوِّم بطريق الخطأ. ومهما يكن الأمر فقد انكسر قلب والدي عليها، وبعد وفاتها بقليل ذهب للعمل في الخدمات القنصلية. وحيثما ذهب كنت أذهب معه، وعندما أصبحت في الثالثة والعشرين من عمري كنت قد طفت معظم أنحاء العالم تقريباً. لقد كانت حياة رائعة وقد أحببتها.

غطّت وجهَها ابتسامةٌ وأرجعت رأسها إلى الخلف، وبدت كأنها تعيش في ذكرى الأيام السعيدة تلك. ثم أكملت حديثها: بعد ذلك توفي والدي، وقد تركني في وضع سيء جداً فاضطررتُ إلى الذهاب والعيش مع عماتي الكبيرات في يوركشاير.

وارتعدَت ثم قالت: سوف تفهمني عندما أقول إنها كانت حياة قاتلة بالنسبة لبنت عاشت كما عشتُ... الضيق المستمر القاتل كان يدفعني إلى الجنون.

توقفت دقيقة ثم أضافت بنبرة مختلفة: ثم التقيت بجون.

- نعم؟

- يمكنك أن تتخيل أنه -ومن وجهة نظر عماتي- كان رجلاً مناسباً لي تماماً، ولكني أستطيع أن أقول بأمانة إن هذه الحقيقة لم تكن هي التي كانت تُرجّح الكفّة عندي؛ لا، لقد كان ببساطة طريقاً للهروب من الرتابة القاتلة في حياتي.

لم أقل شيئاً. وبعد لحظة استمرت في الكلام: لا تُسِئ فهمي. لقد كنتُ أمينةً معه تماماً؛ أخبرته بحقيقة أنني أميل إليه

كثيراً وأنني أرجو أن أحبه أكثر، ولكنني بأي حال من الأحوال «لم أقع في حبه» كما يقول الناس. وقد بيّن لي أن ذلك يرضيه، وهكذا تزوجنا.

سكتت وقتاً طويلاً وتكونت تقطيبة صغيرة على جبهتها. بدا وكأنها تنظر بتأمّل إلى تلك الأيام الماضية، ثم أضافت: أظن... بل أنا متأكدة أنه قد اهتم بي في البداية. ولكني أظن أننا لم نكن متوافقين جيداً، وقد تفرقنا منذ البداية تقريباً. إنه (مع أن هذه الحقيقة تجرح كبريائي، لكنها الحقيقة) قد ملّ مني سريعاً.

ولا بدّ أنني قد أبديت استنكاراً لقولها متمتماً ببعض الكلمات، ولذلك فقد استمرت بسرعة قائلة: آه، نعم، لقد فعل! إن هذا لا يهم الآن، فقد وصلنا إلى مفترق طريق.

- ماذا تقصدين؟

أجابت بهدوء: أقصد أنني لن أبقى في قصر ستايلز.

- أنت وجون لن تعيشا هنا؟

- جون قد يبقى هنا، أما أنا فسوف أرحل.

- هل ستتركينه؟

- نعم.

- ولكن لماذا؟

توقفت لفترة طويلة ثم قالت: ربما لأنني أريد أن أكون حرة.

ثم انطلقت صرخة صغيرة من بين شفتيها: أنت لا تعرف، لا تعرف كيف أصبح هذا المكان الكريه سجناً بالنسبة لي!

قلت: إنني أفهم، ولكن... ولكن لا تفعلي شيئاً متهوراً.

- آه، متهور!

كان صوتها تقليداً ساخراً لتحذيري لها، ثم فجأة قلتُ شيئاً وددت لو أنني عضضت لساني ولم أقله: هل تعرفين أن الدكتور بورشتاين قد اعتُقل؟

اكتسى وجهها ببرودة فورية تحولت إلى قناع لتخفي كل تعبير، وقالت: كان جون لطيفاً جداً بحيث أخبرني بذلك هذا الصباح.

سألتها بصورة باهتة: حسناً، وماذا تعتقدين؟

- أعتقد بشأن ماذا؟

- الاعتقال؟

- وماذا يمكن أن أعتقد؟ يبدو من الواضح أنه جاسوس ألماني؛ هذا ما قاله البستاني لجون.

كان وجهها وصوتها باردَين تماماً وغير مُعبّرَين. هل كانت مهتمة بالموضوع أم لم تكن؟ ابتعدت خطوة أو خطوتين ومسّت بإصبعها مزهريات الأزهار ثم قالت: إنها ميتة تماماً؛ يجب أن أنسقها من جديد. هل تمانع في أن أذهب؟ شكراً لك يا سيد هيستنغز.

ثم سارت أمامي بهدوء وخرجت بهزّة رأس صغيرة تعني

الانصراف. إنها بالتأكيد لا تهتم ببورشتاين، فلا توجد امرأة يمكنها أن تمثل هذا الدور من عدم الاهتمام البارد.

* * *

لم يظهر بوارو في الصباح التالي ولم تكن هناك إشارة لرجال سكتلنديارد، ولكن في وقت الغداء وصل جزء جديد من الدليل (أو غياب الدليل!). كنا قد حاولنا عبثاً تتبع أثر الرسالة الرابعة التي كتبتها السيدة إنغلثورب في مساء اليوم الذي سبق وفاتها، وكانت جهودنا غير مُجدية، ولذلك تخلينا عن المسألة آملين أن تظهر بنفسها في يوم من الأيام. وهذا هو ما حصل بالفعل، فقد وصلت رسالة بالبريد من شركة موسيقية فرنسية تُقرّ باستلام شيك من السيدة إنغلثورب وتأسف لأنها لم تكن قادرة على توفير سلسلة معينة من الأغاني الروسية الشعبية. وهكذا تم التخلي عن آخر أمل لحل اللغز عن طريق معرفة الرسائل التي بعثت بها السيدة إنغلثورب في ليلة الجريمة.

وقبل موعد الشاي ذهبت إلى القرية لأخبر بوارو عن خيبة الأمل الجديدة، ولكني لم أجده في البيت مما أزعجني مرة أخرى. سألت: هل ذهب إلى لندن مرة أخرى؟

قال زميله: لا يا سيد، لقد استقل القطار إلى تادمينستر ليزور صيدلية سيدة شابة.

قلت فجأة: يا له من أحمق! لقد قلت له إن يوم الأربعاء هو اليوم الذي لا تكون فيه هناك! حسناً، قل له أن يحضر عندنا غداً صباحاً، من فضلك؟

- بالتأكيد يا سيد.

ولكن بوارو لم يحضر في اليوم التالي، فبدأت أغضب. إنه يعاملنا بطريقة متعجرفة حقاً! وبعد الغداء سحبني لورنس جانباً وسأل إن كنت سأذهب إلى القرية لرؤيته، فقلت: لا، لا أظن أنني سأفعل ذلك. يستطيع أن يأتي إلى هنا إذا أراد أن يرانا.

- آه.

بدا لورنس مضطرباً. وكان في تصرفاته شيء غير عادي حيث بدت عصبيته ودهشته، مما أثار فضولي. سألته: ما الأمر؟ يمكنني أن أذهب إن كان هناك شيء خاص.

- ليس بالشيء الكثير، ولكن... حسناً، إن كنت ذاهباً فهل تخبره...

وخفض صوته لدرجة الهمس وهو يقول: أعتقد أنني قد وجدت فنجان القهوة الإضافي!

كنت قد نسيت تماماً تلك الرسالة الغامضة من بوارو، أما الآن فقد ازداد فضولي مجدداً. لم يقل لورنس أكثر من ذلك، فقررت أن أتخلى عن كبريائي وأبحث عن بوارو في كوخ ليستويز.

هذه المرة تم استقبالي بابتسامة، وكان السيد بوارو في الداخل. هل أصعد إليه؟ صعدت الدرج، وكان بوارو يجلس بجانب الطاولة ورأسه بين يديه. قفز من مكانه عندما دخلت، فسألته بقلق: ماذا في الأمر؟ هل أنت مريض؟

- لا، لا، لستُ مريضاً. لكنني أقرر مسألة ذات أهمية كبيرة.

فسألته مازحاً: تقرر أن تقبض على المجرم أم لا؟

ولكنْ -ولدهشتي- هز بوارو رأسه حزيناً وقال: «أن تتكلم أو لا تتكلم، تلك هي المسألة»، كما يقول شكسبير العظيم.

لم أهتم بتصحيح العبارة له، بل قلت: إنك لست جاداً يا بوارو؟

- بل جاد جداً، لأن أكثر الأمور أهمية على المحكّ الآن.

لم أعرف ماذا أقول، فسألته: وما هو؟

- سعادة امرأة يا صديقي.

قال بوارو هذه الجملة برزانة، ولم أعرف كيف أردّ عليه بالضبط.

قال مفكراً: لقد جاءت اللحظة، وأنا لا أعرف ماذا أفعل لأنني ألعب لعبة كبيرة. ولا أحد إلا أنا، هيركيول بوارو، يمكن أن يحاول أن يلعبها!

ضرب على صدره مفتخراً وهو يقول ذلك، وبعد توقف لبضع دقائق وحتى لا أفسد عليه مشاعره أعطيته رسالة لورنس. فصرخ: آه، إذن فقد وجد فنجان القهوة الإضافي؟ هذا جيد. إن لديه ذكاء أكثر مما يبدو عليه هذا السيد لورنس صاحب الوجه الطويل!

لم أكن شخصياً لأظن أن لورنس ذو ذكاء كبير، لكنني

امتنعت عن معارضة بوارو، بل عنّفته بلطف لأنه نسي تعليماتي بخصوص يوم عطلة سينثيا. قال: هذا صحيح، إن رأسي كالمنخل. ومع ذلك فإن السيدة الشابة الأخرى التي تعمل معها كانت لطيفة جداً؛ كانت آسفة لأن أملي قد خاب عندما لم أجد سينثيا وأطلعتني على كل شيء بألطف طريقة.

- آه، حسناً، هذا جيد إذن، ولا بد أن تذهب لتشرب الشاي مع سينثيا في يوم آخر.

ثم أخبرته بموضوع الرسالة فقال: أنا آسف لذلك، فقد علّقت الآمال على هذه الرسالة. ولكن لا، إن الأمر ليس كذلك. يجب أن تُحَلّ هذه المسألة كلها من الداخل.

ثم نقر على جبينه قائلاً: هذه الخلايا الرمادية الصغيرة... إن المسألة تعود إليها.

ثم سأل فجأة: هل أنت خبير ببصمات الأصابع يا صديقي؟

قلت بدهشة: لا، كل الذي أعرفه هو أنه لا يوجد تشابه بين أي بصمتين اثنتين.

- تماماً.

ثم فتح دُرْجاً صغيراً وأخذ منه بعض الصور فوضعها على الطاولة وقال: لقد رقمّتُها: «١» و«٢» و«٣»، فهل يمكنك أن تصفها لي؟

تفحصت الأدلة بتمهّل ثم قلت: جميعها مكبَّرة جداً كما أرى. رقم «١» هي بصمات أصابع رجل كما أظن نظراً لشكل

الإبهام والإصبع الأول. رقم «٢» هي بصمات سيدة، وهي أصغر بكثير ومختلفة تماماً في كل شيء. رقم «٣»... وتوقفتُ لبعض الوقت ثم قلت: في هذه الصورة يبدو عدد من البصمات المُختلِطة، ولكني أستطيع أن أميز بينها البصمة الموجودة في الصورة رقم «١».

قال: وهل تقع فوق الأخريات؟

- نعم.

- هل تميزها دون خطأ؟

- آه، نعم؛ إنها مماثلة لتلك الأولى.

هز بوارو رأسه بالإيجاب، ثم أخذ الصور مني بلطف وأعاد تخزنها. قلت: أظن أنك لن توضح المسألة كالعادة.

- على العكس. إن الصورة رقم «١» هي لبصمات السيد لورنس، ورقم «٢» لبصمات الآنسة سينثيا، وهي ليست ذات أهمية فقد حصلت عليها للمقارنة فقط. أما رقم «٣» فهي معقدة بعض الشيء.

- نعم؟

- إنها مكبَّرة كثيراً كما ترى. يمكن أن تكون قد لاحظت شيئاً كأنه لطخة تمتد على الصورة. ولا أريد أن أصف لك الجهاز الخاص والمسحوق والأشياء الأخرى التي استعملتُها؛ إنها عملية معروفة عند الشرطة، وعن طريقها يمكنك أن تحصل على صورة لبصمات الأصابع الموجودة على أي شيء خلال فترة قصيرة

جداً. حسناً يا صديقي، لقد رأيتَ بصمات الأصابع، ويبقى لي أن أخبرك بالشيء الذي كانت عليه.

قلت: استمر، إنني متشوق تماماً.

- حسناً؛ إن الصورة رقم «٣» تمثل سطحاً مكبَّراً جداً لزجاجة صغيرة كانت في أعلى خزانة السموم الموجودة في صيدلية مستشفى الصليب الأحمر في تادمينستر.

استغربت وقلت: يا إلهي! ولكن ماذا كانت بصمات أصابع لورنس كافيندش تعمل هناك؟ إنه لم يذهب قط قريباً من خزانة السموم في اليوم الذي كنا فيه هناك؟

- بلى، لقد اقترب منها.

- مستحيل! لقد كنا معاً طول الوقت.

هز بوارو رأسه بالنفي وقال: لا يا صديقي، كانت هناك لحظة لم تكونوا فيها معاً. لقد مرّت لحظة لم تستطيعوا أن تكونوا جميعاً معاً، وإلاّ لما وجدتَ ضرورة لتنادي السيد لورنس ليأتي وينضمّ إليكم في الشرفة.

اعترفت قائلاً: لقد نسيت ذلك، ولكنها كانت للحظة فقط.

- ولكنها طويلة بما فيه الكفاية.

- طويلة بما فيه الكفاية لأي شيء؟

صارت ابتسامة بوارو غامضة وقال: طويلة بما فيه الكفاية لرجل لطيف درس الطب في وقت ما لكي يشبع فضوله واهتمامه الطبيعي.

تقابلت عيوننا، ووجدت عيني بوارو غامضتين ومرحتين. ثم نهض عن مقعده ودندن قليلاً، وراقبته متشككاً ثم قلت: بوارو، ماذا كان يوجد في تلك الزجاجة الصغيرة؟

نظر بوارو عبر النافذة وقال من وراء كتفه: هيدروكلوريد الإستركنين.

واستمرّ يدندن لحنه، أما أنا فقد هتفت: يا إلهي!

قلتها بهدوء تام لأنني لم أفاجَأ إذ كنت أتوقع هذه الإجابة.

أضاف بوارو: إنهم قليلاً ما يستخدمون هيدروكلوريد الإستركنين الصافي لتحضير الحبوب. إن المحلول المُعتمَد، سائل هيدروكلوريد الإستركنين، هو الذي يُستخدَم في معظم الأدوية، ولهذا السبب بقيت بصمات الأصابع موجودة إلى الآن دون أن تزول.

- كيف تدبرت أمر أخذ الصور الفوتوغرافية؟

أوضح بوارو ببساطة: أسقطت قبعتي من الشرفة، وكان من غير المسموح للزوار أن ينزلوا إلى الطابق الأسفل في تلك الساعة. وهكذا، ورغم اعتذاراتي الكثيرة، كان على زميلة الآنسة سينثيا أن تنزل وتحضرها لي.

- إذن فقد كنت تعرف ما الذي ستجده؟

- لا، على الإطلاق. أدركت فقط أنه كان ممكناً -من خلال روايتك- للسيد لورنس أن يذهب إلى خزانة السموم، وكان يجب تأكيد هذه الإمكانية أو التخلي عنها.

- بوارو، إن ابتهاجك لا يخدعني! هذا اكتشاف مهم جداً.

- لا أعرف، ولكن هناك شيئاً واحداً يخطر ببالي، وهو قد خطر ببالك أنت أيضاً دون شك.

- وما هو؟

- أنه يوجد كثير من الإستركنين في هذه القضية. هذه ثالث مرة نصادفه، فقد كان في دواء السيدة إنغلثورب المنشّط إستركنين، وإستركنين باعه الصيدلي ميس في صيدلية ستايلز سينت ميري. والآن لدينا مزيد من الإستركنين، وقد تم أخذه من قِبَل أحد أهل المنزل. إن هذا مربك، وكما تعرف فأنا لا أحب الفوضى.

وقبل أن أتمكن من الرد عليه فتح أحد البلجيكيين الآخرين الباب ومدّ رأسه قائلاً: في الأسفل سيدة تسأل عن السيد هيستنغز.

- سيدة؟

هرعتُ إلى أسفل الدرج وتبعني بوارو. كانت ماري كافيندش تقف عند الباب، وأوضحَت قائلة: كنت أزور امرأة مسنة في القرية، وبما أن لورنس أخبرني أنك كنت مع السيد بوارو فقد ظننت أن بإمكاني أن أعرج عليك.

قال بوارو: يا حسرتي يا سيدتي، ظننت أنك جئت لكي تشرّفيني بزيارة!

وعدَتهُ وهي تبتسم قائلة: سأفعل ذلك يوماً ما إذا طلبتَ مني ذلك.

- هذا جيد، وإذا احتجتِ إلى كاهن اعتراف يا سيدتي...

جفلت ماري فجأة، وأكمل بوارو: فتذكري أن بابا بوارو في خدمتك دائماً.

حدقت إليه بضع لحظات كما لو أنها تريد قراءة معنى أعمق في كلماته، ثم استدارت فجأة خارجة وهي تقول: هيا، أتحب أن تمشي معنا يا سيد بوارو؟

- بكل سرور يا سيدتي.

كانت ماري تتكلم بسرعة وبانفعال شديد على طول الطريق إلى قصر ستايلز، وخطر ببالي أنها كانت عصبية بسبب عيون بوارو.

كان الجو قد تغير وأصبحت الرياح القوية أشبه بالخريفية في حدّتها، كانت الرياح التي تمر من خلال الأشجار تصدر صوت أنين كتنهّد مخلوق عملاق، وقد ارتجفَت ماري قليلاً وأغلقت أزرار معطفها الأسود. سرنا ناحية الباب الرئيسي لقصر ستايلز، وفي الحال عرفنا أن شيئاً ما قد حدث. جاءت دوركاس تركض لمقابلتنا وهي تبكي وتلوي يديها، ورأيت الخدم الآخرين يتجمعون خلفها وكلهم عيون وآذان.

قالت دوركاس: آه يا سيدتي، آه يا سيدتي! لا أعرف كيف أخبرك...

سألتها أنا بنفاد صبر: ما الأمر يا دوركاس؟ أخبرينا في الحال.

- إنهم هؤلاء الأوغاد من رجال الشرطة. لقد اعتقلوه، لقد اعتقلوا السيد كافيندش!

شهقت: اعتقلوا لورنس؟

رأيت نظرة غريبة في عيني دوركاس التي قالت: لا يا سيدي، ليس السيد لورنس بل السيد جون.

وراء ظهري سقطت ماري كافيندش بثقلها عليّ بعد أن صرخت صرخة مدوية، وبينما كنت ألتفت لكي أمسك بها رأيت الانتصار الصامت في عيني بوارو.

* * *

الفصل الحادي عشر
القضية إلى النيابة

عُقِدت جلسة محاكمة جون كافيندش بتهمة قتل زوجة أبيه بعد شهرين. وبالنسبة للأسابيع التي سبقت ذلك سأقول القليل، ولكن إعجابي بماري كافيندش قد ازداد خلال هذه الفترة، فقد وقفت إلى جانب زوجها وهي تستنكر مجرد فكرة اتهامه ودافعت عنه بالأظافر والأسنان.

عبّرت لبوارو عن إعجابي بها فهزّ رأسه بالإيجاب قائلاً بتأمل: نعم، إنها من ذلك النوع من النساء الذي يظهر معدنه الحقيقي وقت الشدة، فالشدّة تُظهر كل شيء جميل وحقيقي. إن كبرياءها وغيرتها قد...

قاطعته مستغرباً: غيرتها؟

- نعم، ألم تعرف أنها امرأة غَيورة بصورة غير معتادة؟ كما كنت أقول، فقد وضعت كبرياءها وغيرتها جانباً. إنها لا تفكر بشيء إلا بزوجها وبالمصير المرعب الذي يتربص به.

كان يتكلم بعمق، ونظرت إليه بجِدّ وأنا أتذكر آخر أمسية

عندما كان متردداً: هل يتكلم أو لا يتكلم، وأذكر تعاطفه مع «سعادة امرأة». شعرت بالابتهاج لأن القرار قد سُحِب من يده وقلت: لا أكاد أصدق حتى هذه اللحظة. لقد كنت أحسب أن لورنس هو الفاعل!

ابتسم بوارو وقال: أنا أعرف أنك كنت تعتقد ذلك.

- ولكن جون، صديقي القديم جون!

قال بوارو متفلسفاً: كل قاتل من المحتمل أن يكون صديقاً قديماً لشخص ما، إنك لا تستطيع الخلط بين العاطفة والمنطق.

- كان يمكن أن تُعطيني تلميحاً بذلك.

- ربما يا صديقي، لكنني لم أفعل ذلك لأنه كان صديقك القديم.

أحبطني هذا الكلام وأنا أتذكر كيف أفشيت لجون ما كنت أعتقده من آراء بوارو فيما يتعلق ببورشتاين. وعلى فكرة، فقد تمت تبرئة بورشتاين هذا من التهمة الموجَّهة إليه، وبرغم ذلك وحتى لو كان ذكياً جداً في هذه المرة بحيث لم تثبت ضده تهمة التجسس فإن أجنحته قد أصبحت مقصوصة جيداً بالنسبة للمستقبل.

سألت بوارو إن كان يظن بأن جون سوف يُجرَّم، ولشدة دهشتي رد بأنه على العكس، فإن من المرجح جداً أن تتم تبرئة ساحته.

قلت معترضاً: ولكن يا بوارو...

- آه يا صديقي، ألم أقل لك دائماً إنني ليست لديّ إثباتات. أن تعرف أن الرجل مذنب شيء وإثبات ذلك شيء آخر. وفي هذه الحالة لدينا أدلّة قليلة جداً، وهذه هي كل المشكلة. أنا -هيركيول بوارو- أعرف، ولكن تنقصني آخر حلقة من سلسلتي، وما لم أجد تلك الحلقة المفقودة...

هزّ رأسه بحزن، وبعد دقيقة أو اثنتين سألته: متى شككت بجون كافيندش لأول مرة؟

- ألم تشكّ به على الإطلاق؟

- في الحقيقة لم أفعل.

- ولا حتى بعد سماعك لتلك المحادثة المقتضَبة التي سمعتَها بين السيدة كافيندش وحماتها، وافتقارها إلى الصراحة في أثناء التحقيق؟

- نعم.

- ألم تجمع اثنين واثنين معاً، وتفكّر أنه إذا لم يكن ألفريد إنغلثورب هو الذي تشاجر مع زوجته (وأنت تتذكر أنه أنكر ذلك بعنف في التحقيق) فمَن يكون الرجل الثاني؟ وإذن فلا بد أن يكون إما لورنس وإما جون؟ ولكن لو كان ذلك الرجل هو لورنس فإن تصرف ماري كافيندش سيكون من المتعذر تعليله، أما لو كان جون فإن كل شيء سيكون قابلاً للتفسير بصورة طبيعية.

صرخت ونور الفهم يتدفق عليّ: وهكذا فإن جون هو الذي كان يتشاجر مع أمه ذلك المساء؟

- بالضبط.

- وأنت كنت تعرف هذا طوال الوقت؟

- بالتأكيد، فلا يمكن تفسير سلوك السيدة كافيندش إلا بهذه الطريقة.

- ورغم ذلك تقول إنه ربما يخرج بريئاً؟

هز بوارو كتفيه باستهجان وقال: بالتأكيد أقول ذلك. ففي مرافعات المحكمة سوف نسمع القضية من ناحية النيابة، ولكن على أغلب تقدير فإن محاميه سوف ينصحه بالاحتفاظ بدفاعه، وهذا الدفاع سيطلقه علينا خلال المحاكمة. و... آه، على فكرة، لديّ كلمة تحذير أريد قولها لك يا صديقي: يجب أن لا أظهر في القضية.

- ماذا؟

- نعم، فرسمياً ليست لي علاقة بها، وحتى العثور على آخر حلقة في سلسلتي يجب أن أبقى خلف الستار. يجب أن تعتقد السيدة كافيندش أنني أعمل لصالح زوجها وليس ضده.

قلت معترضاً: إن هذا يعني التصرف الماكر.

- أبداً؛ فان علينا أن نتعامل مع رجل ذكي جداً وعديم الضمير، ويجب أن نستخدم أي وسيلة في استطاعتنا وإلا فإنه سوف يتسرّب من بين أصابعنا! وهذا هو السبب الذي يجعلني حريصاً على البقاء في الظل، فجميع الاكتشافات قد توصّل إليها جاب، وهو الذي سوف يأخذ كل الشهرة. وحتى لو دُعيت

لإعطاء الشهادة (وابتسم ابتسامة عريضة وأكمل): فمن المحتمل أن أكون شاهد دفاع.

- أكاد لا أصدق ما أسمع.

أكمل بوارو: إنها مجرد مسألة شكلية. والغريب في الموضوع أنني أستطيع أن أقدم دليلاً يدحض أحد آراء المدعي العام.

- أي رأي؟

- الرأي الذي يتعلق بإتلاف الوصية. إن جون كافيندش لم يتلف تلك الوصية.

* * *

كان بوارو رجلاً مُلهَماً. لن أعرج على تفصيلات محاضر جلسات محكمة الشرطة لأنها تتضمن كثيراً من التكرار الممل، ولكني سأبيّن فقط أن جون كافيندش احتفظ بدفاعه، ولذلك فقد أُحيل إلى المحكمة الجنائية.

كنا جميعاً في لندن في شهر أيلول (سبتمبر)، واستأجرت ماري بيتاً في كنسِنْغتون، وكان بوارو من ضمن جماعة العائلة. أنا شخصياً حصلت على عمل في وزارة الحربية، وبذلك كنت أستطيع أن أراهم باستمرار. وفيما مرّت الأسابيع كانت حالة أعصاب بوارو تزداد سوءاً شيئاً فشيئاً، فإن تلك «الحلقة الأخيرة» التي تحدث عنها ما زالت مفقودة. وفي نفسي كنت آمل أن تبقى كذلك، إذ كيف ستكون حالة ماري إذا لم تتم تبرئة جون؟

في الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) ظهر جون كافيندش في

قاعة محكمة أولد بيلي بتهمة القتل العمد بحق إيميلي إنغلثورب. وقد ردّ على التهمة بأنه «غير مذنب»، وتولى الدفاعَ عنه السير إيرنست هيفْيوِذَرْ، المستشار القانوني المشهور للتاج الملكي البريطاني. وافتتح المدعي العام، السيد فيلِبس، القضية قائلاً إن القتل كان متعمَّداً وتمّ بدم بارد، ولم يكن أكثر ولا أقل من تعمّد دس السم لامرأة ودودة مطمئنة من قِبَل ابن زوجها الذي كانت بالنسبة له أكثر من أم، وكانت تعيله وترعاه منذ كان صبياً، وعاش هو وزوجته في قصر ستايلز برفاهية كبيرة محاطين بعنايتها ورعايتها، وقد كانت محسِنة كريمة لطيفة في معاملتها لهما.

ثم اقترح استدعاء الشهود ليشهدوا على أن المتهم كان مسرفاً مبذراً وموشكاً على الإفلاس، وكان أيضاً يقيم علاقة سرية مع السيدة رايكس، وهي زوجة مزارع مجاور. وقد وصل الأمر إلى مسامع زوجة أبيه فاتهمته بذلك في مساء اليوم الذي سبق وفاتها، ونشب بينهما شجار سُمِعت أجزاء منه. وفي اليوم السابق كان المتهم قد اشترى الإستركنين من صيدلية القرية وهو يرتدي ملابس غريبة منتحلاً شخصية رجل آخر كان يأمل أن تُلقى تبعات الجريمة عليه، وهو زوج السيدة إنغلثورب، حيث كان يغار منه غيرة شديدة. ولحسن حظ السيد إنغلثورب فقد استطاع أن يقدم دليلاً على رد التهمة لا يرقى إليه الشك.

وأضاف المستشار أنه مساء يوم السابع عشر من تموز (يوليو) وفوراً بعد المشاجرة مع ابنها كتبت السيدة إنغلثورب وصية جديدة، وقد عُثر على بقايا هذه الوصية في موقد غرفة نومها في الصباح التالي. ولكن الدليل اتضح وظهر أن الوصية قد كُتِبت لصالح زوجها، وكانت الفقيدة قد كتبت وصية لصالحه قبل

زواجها ولكن (وأشار السيد فيلبس بإصبعه إشارة معبرة) ولكن المتهم لم يكن على علم بها.

وتساءل: ما الذي دفع الفقيدة إلى كتابة وصية جديدة مع أن الوصية القديمة ما زالت موجودة؟ إنه لا يستطيع القول. لقد كانت السيدة كبيرة في السن وربما كانت قد نسيت الوصية السابقة؛ أو ربما (وقد بدا له هذا أكثر ترجيحاً) ربما علمت بالرأي القائل إنها قد صارت لاغية بمجرد زواجها، حيث كان هناك بعض الحديث حول هذا الموضوع، فالسيدات لسن دائماً على معرفة جيدة بالأمور القانونية. وكانت قبل سنة تقريباً قد كتبت وصية لصالح المتهم.

وقال إن الادعاء سوف يُقدّم الدليل على أن المتهم هو الذي قدم القهوة أخيراً إلى زوجة أبيه ليلة الجريمة، وبعد ذلك وفي المساء طلب إذناً بدخول غرفتها، وهي مناسَبة وجد فيها -بلا شك- الفرصة لإتلاف الوصية التي يمكن أن تُلغي الوصية التي كانت في صالحه. وقد تم اعتقال المتهم نتيجة للاكتشاف الذي قام به المفتش جاب (وهو ضابط ذكي جداً) في غرفته، وهو زجاجة مُطابقة لعبوة الإستركنين التي اشتُرِيَت من صيدلية القرية بواسطة السيد إنغلثورب المزعوم في اليوم السابق ليوم الجريمة.

ثم ختم قائلاً إن المسألة متروكة للّمحلفين لتقرير ما إذا كانت هذه الحقائق الدامغة تُشكل دليلاً ساحقاً على إدانة المتهم أم لا، ثم ألمح بأدب إلى أن المحلفين الذين لا يقرون ذلك لا يُفكرون بصورة صحيحة.

وأخيراً جلس السيد فيلبس ومسح جبينه.

أول شهود الادعاء كانوا في معظمهم الذين استُدعوا في التحقيق، وقد تم أخذ الدليل الطبي للمرة الثانية.

سأل السير إيرنست هيفيوذر الذي كان مشهوراً في جميع أنحاء إنكلترا بطريقته الحاسمة مع الشهود، سأل سؤالين فقط؛ قال: هل أفهم يا دكتور بورشتاين أن الإستركنين دواء سريع المفعول؟

رد بورشتاين: نعم.

- وأنك غير قادر على تعليل سبب تأخير مفعوله في هذه القضية؟

- نعم.

- شكراً لك.

وتعرّف السيد ميس على زجاجة الإستركنين التي قدمها إليه المحامي على أنها تلك التي باعها إلى «السيد إنغلثورب». وببعض التضييق عليه اعترف بأنه كان يعرف السيد إنغلثورب بالرؤية فقط وأنه لم يتكلم معه أبداً.

ولم يستجوب الدفاع ذلك الشاهد. ثم تم استدعاء ألفريد إنغلثورب الذي أنكر أنه اشترى السم، كما أنه أنكر أن يكون قد تشاجر مع زوجته، وشهد عدة شهود بصحة هذه الأقوال. ثم أُخذت شهادة البُستانيِيّن اللذين شهدا على الوصية، ثم استدعيت دوركاس.

ولأنها مخلصة لرجليها «الصغيرين» فقد أنكرت دوركاس

بشدة إمكانية أن يكون الصوت الذي سمعَته هو صوت جون، وقالت بتصميم إن السيد إنغلثورب هو الذي كان في حجرة الجلوس مع سيدتها. ظهرت ابتسامة حزينة على وجه السجين في قفص الاتهام، فقد كان الوحيد الذي يعرف جيداً أن تحدّيها الشجاع هذا كان عديم الفائدة، حيث إنه لم يكن من أهداف المحامي إنكار هذه النقطة، وبالطبع كان لا يمكن استدعاء السيدة كافيندش لتقديم إفادة ضد زوجها. وبعد أسئلة متنوعة حول مسائل أخرى سأل السيد فيلبس قائلاً: في شهر حزيران (يونيو) الماضي، هل تذكرين طرداً وصل إلى السيد لورنس كافيندش من شركة باركسون؟

هزت الآنسة دوركاس رأسها بالنفي وقالت: لا أتذكر يا سيدي؛ يمكن أن يكون كذلك، ولكن السيد لورنس كان خارج البيت في فترة معينة من ذلك الشهر.

- في حالة وصول طرد يخصه وهو خارج البيت، ماذا كنتم تفعلون بالطرد؟

- إما أن يوضع في غرفته أو يرسل له في مكان وجوده.

- بواسطتك أنت؟

- لا يا سيدي؛ مهمتي كانت تركه على طاولة البهو، فالآنسة هاوارد هي التي تهتم بكل شيء من هذا النوع.

تم استدعاء إيفيلين هاوارد، وبعد استجوابها بشأن نقاط أخرى تم سؤالها عن موضوع الطرد فردّت قائلة: لا أتذكر؛ طرود كثيرة كانت تأتي ولا أستطيع أن أتذكر واحداً بصفة خاصة.

- ألا تعرفين ما إذا كان قد أُرسل إلى السيد لورنس كافيندش وهو في ويلز أم أنه قد وُضع في غرفته؟

- لا أظن أن طرداً قد أرسل له؛ لو كان كذلك لتذكرت.

- افترضي أن طرداً قد وصل باسم السيد لورنس كافيندش ثم اختفى بعد ذلك، هل كنت ستلاحظين اختفاءه؟

- لا، لا أظن ذلك. ربما اعتقدت أن شخصاً ما قد تولى أمره.

- أعتقد يا آنسة هاوارد أنك أنت التي وجدت هذه الورقة البنية اللون؟

ورفع نفس الورقة المغبَرّة التي فحصها بوارو وأنا في غرفة الصباح في قصر ستايلز. قالت: نعم، أنا التي وجدتها.

- ولماذا كنت تبحثين عنها.

- رجل التحري البلجيكي الذي تم توظيفه للتحقيق في القضية طلب مني البحث عنها.

- وأين اكتشفتِها أخيراً؟

- فوق... خزانة ثياب.

- فوق خزانة ثياب المتهم؟

- أظن ذلك.

- ألم تجديها أنت بنفسك؟

- بلى.

- إذن فيجب أن تكوني على يقين أين وجدتِها؟

- نعم، كانت فوق خزانة ثياب المتهم.

- هذا أفضل.

وشهد أحد العاملين في شركة باركسون للملابس المسرحية بأن الشركة قد أرسلت بتاريخ ٢٩ حزيران لحية سوداء إلى السيد «ل كافيندش» بناء على طلبه، وقد تم الطلب بواسطة رسالة تضمنت حوالة بريدية. وقال إنهم لا يحتفظون بالرسالة، وقد أرسلوا اللحية كما هو مطلوب إلى السيد «ل. كافيندش» في قصر ستايلز.

نهض السير إيرنست هيفيوذر متثاقلاً وسأل: من أين جاءت الرسالة؟

- من قصر ستايلز.

- وهو نفس العنوان الذي أرسلتم الطرد إليه؟

- نعم.

وكالوحش المفترس هجم المحامي قائلاً: وكيف تعرف؟

- أنا... أنا لا أفهم.

- كيف تعرف أن تلك الرسالة قد جاءت من ستايلز؟ هل لاحظت ختم البريد؟

- لا، ولكن...

- آه، أنت لم تلاحظ ختم البريد! ورغم ذلك فأنت تؤكد بثقة شديدة أنها جاءت من ستايلز. في الحقيقة هل يمكن أن يكون أي ختم بريد آخر؟

- نعـ... نعم.

- في الحقيقة، ورغم أن الرسالة مكتوبة على ورق ملاحظات مختوم، فإنها يمكن أن تكون قد أُرسلت من أي مكان؟ من ويلز على سبيل المثال؟

اعترف الشاهد بأن ذلك ممكن، وأوضح السير إيرنست أنه قد اكتفى.

وشهدت إليزابيث ويلز، الخادمة الثانية في القصر، أنها تذكرت بعد أن ذهبت إلى النوم أنها قد أغلقت الباب الأمامي بالمزلاج بدلاً من تركه مغلقاً بالمفتاح فقط كما طلب السيد إنغلثورب، ولذلك نزلت مرة أخرى من غرفتها لتصحيح خطئها. وبعد سماعها ضجة خفيفة في الجناح الغربي وقفت تنظر في الممر، فرأت السيد جون كافيندش وهو يدق على باب السيدة إنغلثورب.

جعل السير إيرنست هيفيوذر من استجوابها عملاً سريعاً، وتحت قسوته التي لا ترحم عارضت نفسها دون أمل، وجلس السير إيرنست مرة أخرى وعلى وجهه ابتسامة رضا.

وبعد الاستماع إلى أقوال آني حول دهن الشمعة الذي وقع على الأرض وأقوالها بشأن رؤيتها للمتهم وهو يأخذ القهوة إلى حجرة الجلوس تم تأجيل المرافعات إلى اليوم التالي.

وفيما كنا ذاهبين إلى البيت تحدثت ماري كافيندش عن محامي الادعاء وهاجمته بمرارة: ذلك الرجل الكريه! أية شبكة تلك التي ألقاها حول عزيزي جون المسكين، وكيف قلب كل حقيقة صغيرة إلى أن جعلها تبدو على غير حقيقتها!

قلت مواسياً: حسناً، سيكون الأمر في الاتجاه الآخر غداً.

قالت متأملة: نعم.

ثم خفضت صوتها فجأة وقالت: سيد هيستنغز، أنت لا تظن... بالتأكيد لا يمكن أن يكون الفاعل هو لورنس. آه، لا، هذا لا يمكن!

ولكني كنت متحيراً، وحالما انفردت ببوارو سألته عما يظنه بشأن النتيجة التي يريد السير إيرنست الوصول إليها، فقال بوارو مُعجباً: آه! إنه لرجل ذكي ذلك السير إيرنست.

- هل تظن أنه يرى لورنس مذنباً؟

- لا أظن أنه يعتقد أو يهتم بشيء! لا، إن الذي يحاوله هو افتعال حالة ارتباك وفوضى في عقول المحلفين حتى ينقسموا في الرأي حول أي من الأخوين فعلها. إنه يسعى لتصوير أن هناك دليلاً ضد لورنس بمثل ما أن هناك دليلاً ضد جون، وأكاد أكون واثقاً أنه سوف ينجح في ذلك.

* * *

كان المفتش جاب هو الشاهد الأول الذي دُعي عند استئناف المحاكمة، وقد قدم معلوماته بإحكام وإيجاز. وبعد

وصف الأحداث الأولى أكمل حديثه قائلاً: وبناء على المعلومات التي تلقيتها أنا والضابط سمرهاي فقد فتشنا غرفة المتهم في أثناء غيابه المؤقت عن البيت، وقد وجدنا في خزانة أدراجه تحت بعض الملابس الداخلية ما يلي: أولاً نظارة أنفية بإطار ذهبي شبيهة بالتي يضعها السيد إنغلثورب (وقد تم تقديم النظارة إلى المحلفين) وثانياً وجدنا هذه الزجاجة.

وكانت هي تلك التي تم التعرّف عليها بواسطة مساعد الصيدلي في اليوم السابق؛ عبوة صغيرة من الزجاج الأزرق تحتوي على القليل من مسحوق بلوري أبيض مكتوب على مُلصَقها: «هيدروكلوريد الإستركنين. سم».

وقد اكتشف رجلا الشرطة دليلاً جديداً خلال فترة إجراءات محكمة الشرطة، وهذا الدليل قطعة طويلة من ورق النشّاف، وهي جديدة تقريباً. وقد عُثِر عليها في دفتر شيكات السيدة إنغلثورب، وبعد عكسها على مرآة ظهرت بوضوح الكلمات التالية: «... كل شيء أملكه حين وفاتي أتركه لزوجي العزيز ألفريد أنغـ...». وهذا يضع حداً للتساؤل عن حقيقة أن الوصية التي أُتلفت كانت لصالح زوج السيدة الفقيدة. ثم أخرج جاب الجزء المحروق من ورقة استُخرجت من موقد النار، وهذه -مع اكتشاف اللحية في العلّية- تكمل دليله.

ولكن استجواب السير إيرنست للشاهد لم يكن قد بدأ بعد. سأله: ما هو اليوم الذي فتشت فيه غرفة المتهم؟

- الثلاثاء، ٢٤ تموز (يوليو).

- أي بعد أسبوع من المأساة؟

- نعم.

- وقد وجدت هذين الدليلين -كما تقول- في خزانة الأدراج. هل كان الدرج مغلقاً بالمفتاح؟

- لا.

- ألا يسترعي انتباهك أنه من غير المحتمَل أن رجلاً ارتكب جريمة يمكن أن يحتفظ بأدلة الجريمة في درج غير مقفَل بحيث يمكن أن يجدها أي شخص؟

- ربما يكون قد وضعها هناك على عجل.

- ولكنك قلت قبل قليل إن التفتيش قد تَمّ بعد أسبوع كامل من وقوع الجريمة، أفلم يكن لديه الوقت الكافي لإبعادها وإتلافها؟

- ربما.

- لا توجد «ربما» في المسألة. هل كان لديه أم لم يكن لديه وقت طويل لإبعادها وإتلافها؟

- نعم، كان لديه.

- هل كانت الملابس الداخلية التي كانت هذه الأشياء مخبأة تحتها ثقيلة أم خفيفة؟

- ثقيلة.

- بمعنى أنها كانت ملابس داخلية شتوية. من الواضح أن المتهم لم يكن من المحتمَل أن يفتح ذلك الدرج؟

- ربما لا.

- أرجو الإجابة على سؤالي: هل يمكن للمتهم في أشد الأسابيع حرارة في صيف حار أن يذهب إلى درج يحتوي على ملابس داخلية شتوية؟ نعم أم لا؟

- لا.

- وفي هذه الحالة أليس من الممكن أن تكون الأشياء موضوع السؤال قد وضعها شخص آخر، وأن المتهم لم يكن يعرف بوجودها هناك؟

- لا أظن أن هذا أمر مرجَّح.

- ولكنه ممكن؟

- نعم.

- هذا كل ما لديّ.

وتبع ذلك أدلة أخرى: الدليل على الصعوبات المالية التي وجد المتهَم نفسه فيها في نهاية شهر تموز، ودليل علاقته العاطفية بالسيدة رايكس... مسكينة ماري، لا بد أن ذلك كان مَريراً وجارحاً لامرأة بمثل كبريائها.

ثم جلس لورنس كافيندش في مقعد الشهادة. وبصوت منخفض ورداً على أسئلة السيد فيلبس أنكر أنه طلب أي شيء من شركة باركسون في شهر حزيران (يونيو). فقد كان -في الحقيقة- يقيم في ذلك الوقت (بتاريخ ٢٩ حزيران) في مكان آخر؛ في ويلز.

وبدأ السير إيرنست بمشاكساته فوراً قائلاً: هل تنكر أنك قد طلبتَ لحية سوداء من شركة باركسون بتاريخ ٢٩ حزيران؟

- نعم.

- آه! في حالة حدوث شيء لأخيك، من سيرث قصر ستايلز؟

سبّبت وحشية السؤال توهّجاً في وجه لورنس الشاحب، وتمتم القاضي بصوت خفيف مبدياً تذمره من السؤال، بينما تقدم المتهم في قفص الاتهام بغضب إلى الأمام. ولم يهتم هيفيوذر بغضب موكِّله بل مضى قائلاً: أجب عن سؤالي من فضلك.

قال لورنس بهدوء: أظن أنه أنا.

- ماذا تقصد بقولك «أظن»؟ إن أخاك ليس لديه أطفال. أنت سترث القصر، أليس كذلك؟

- بلى.

- آه، هذا حسن.

قالها هيفيوذر بلطف شديد، ثم أكمل: وستَرِثُ أيضاً مبلغاً جيداً من المال، أليس كذلك؟

احتجّ القاضي قائلاً: في الحقيقة يا سير إيرنست، هذه الأسئلة ليست لها علاقة بموضوعنا.

انحنى السير إيرنست موافقا (فقد كان قد رمى سهمه) وأكمل: يوم الثلاثاء ١٧ تموز ذهبتَ -على ما أظن- مع ضيف آخر لزيارة صيدلية مستشفى الصليب الأحمر في تادمينستر؟

- نعم.

- وحين كنت وحدك لبضع ثوان، هل فتحت خزانة السموم وتفحصت بعض الزجاجات الموجودة فيها؟

- يمكن... يمكن أنني قد فعلت ذلك.

- سأوضح لكَ السؤال: هل فعلت ذلك؟

- نعم.

وبهدوء رمى السير إيرنست السؤال التالي: وهل تفحصت زجاجة معينة بذاتها؟

- لا، لا أعتقد ذلك.

- انتبه يا سيد كافيندش، إنني أعني زجاجة صغيرة تحتوي على هيدروكلوريد الإستركنين.

تحول وجه لورنس إلى لون ضارب للخضرة: لـ... لا، أنا متأكد أنني لم أفعل.

- إذن كيف تبرر حقيقة أنك قد تركت -على نحو لا يقبل الخطأ- بصمات أصابعك عليها؟

- أظن... أظن أنني ربما رفعت الزجاجة.

- وأنا أيضاً أظن ذلك. هل أخذت شيئاً من محتويات الزجاجة؟

- بالتأكيد لم أفعل.

- إذن لماذا رفعتها؟

- لقد درست الطب في السابق، ومثل هذه الأشياء تجذب اهتمامي طبيعياً.

- آه! فالسموم إذن «اهتمام طبيعي» بالنسبة لك، أليس كذلك؟ ورغم ذلك فقد انتظرت حتى تكون وحدك قبل أن تُشبع «اهتمامك»؟

- كان ذلك بمحض المصادفة. ولو كان الآخرون هناك لكنت سأفعل الشيء نفسه.

- ومع ذلك، لم يكن الآخرون هناك عندما حدث ذلك؟

- نعم، ولكن...

- في الحقيقة، في ذلك المساء كله كنت وحيداً لمدة دقيقتين فقط، وتصادف... أقول: تصادف أنك أشبعت «اهتمامك الطبيعي» بهيدروكلوريد الإستركنين خلال تلك الدقيقتين فقط؟

تلعثم لورنس بصورة تستدعي الشفقة قائلاً: أنا... أنا...

فقال السير إيرنست بهدوء معبِّر: ليست لديّ أسئلة أخرى يا سيد كافيندش.

تسبّب هذا المقطع القصير من الاستجواب في إثارة كبيرة في المحكمة، وتقاربت رؤوس كثير من السيدات الأنيقات اللاتي حضرن المحكمة بعضها من بعض، وارتفع همسهن عالياً مما جعل القاضي يهدد بغضب بإخلاء المحكمة إذا لم تهدأ القاعة فوراً.

لم تكن هناك أدلّة كثيرة أخرى، فقد تم استدعاء خبراء الخط لأخذ رأيهم في توقيع ألفريد إنغلثورب على سجلّ السموم الخاص بالصيدلية، وقد صرّحوا جميعهم بما لا يدع مجالاً للشك بأن ذلك لم يكن خطه بالتأكيد، وأدلوا برأيهم كوجهة نظر بأن ذلك التوقيع من الممكن أن يكون خط المتهم مع بعض التحوير. وباستجوابهم بواسطة الدفاع أقرّوا بأنه من الممكن أن يكون خط المتهم قد زُوِّر بطريقة بارعة.

لم يكن خطاب السير إيرنست هيفيوذر في افتتاح القضية من أجل الدفاع طويلاً، ولكنه كان مدعوماً دعماً قوياً بأسلوبه الحاسم. قال إنه لم يرَ طوال حياته العملية الطويلة تهمة قتل تعتمد على أدلة سطحية كهذه، فهي ليست كلها أدلة عَرَضيّة فحسب، بل إن الجزء الأعظم منها لم يتم إثباته عملياً. لقد عُثر على الإستركنين في دُرج في غرفة المتهم، وكان ذلك الدرج مفتوحاً كما أشار هو، وأقرّ بعدم وجود دليل يُثبت أن المتهم هو الذي أخفى السم هناك. لقد كانت تلك -في الحقيقة- محاولة خبيثة ماكرة من طرف شخص آخر لإلصاق الجريمة بالمتهم. ولم تكن النيابة قادرة على تقديم خيط من دليل لدعم ادّعائها بأن المتهم هو الذي طلب اللحية السوداء من شركة باركسون، أما الشجار الذي حدث بين السجين وزوجة أبيه فقد تم الاعتراف به بصراحة، ولكنه، بالإضافة إلى المشكلات المالية التي كان يعاني منه، قد تم تضخيمهما بشكل كبير.

ثم قال وهو يومئ إلى السيد فيلبس بعدم اكتراث: إن صديقي المُطّلع قد أعلن أنه لو كان المتهم بريئاً لجاء وأوضح أمام التحقيق أنه هو وليس السيد إنغلثورب الذي كان طرفاً في المشاجرة.

وأنا أعتقد أن الحقائق قد قُدِّمت بصورة خاطئة. إن الذي وقع في الحقيقة هو التالي: لقد أُخبِر المتهم وهو عائد إلى البيت مساء الثلاثاء بصورة جازمة بأن مشاجرة عنيفة قد حدثت بين السيد والسيدة إنغلثورب، ولم يُخامره أي شك في أن أحداً يمكن أن يخطئ في تمييز صوته من صوت السيد إنغلثورب، وقد استنتج بصورة طبيعية حدوث مشاجرتين مع الضحية. وجزم الادعاء بأنه في يوم الإثنين ١٦ تموز دخل المتهم صيدلية القرية منتحلاً شخصية السيد إنغلثورب. ولكن على العكس، فقد كان المتهم في ذلك الوقت في مكان منعزل يدعى غابة مارستون بعد أن وصلته رسالة مجهولة مكتوبةً بصيغة الابتزاز ومُهدِّدةً بكشف مسائل معينة أمام زوجته إذا لم يستجب للمَطالِب. ووفقاً لذلك ذهب المتهم إلى المكان المحدد، وبعد أن انتظر هناك بلا جدوى لمدة نصف ساعة عاد إلى المنزل. ولسوء الحظ لم يقابل في طريقه ذهاباً أو إياباً أحداً يمكن أن يشهد على صحة روايته تلك، ولكنه احتفظ بالرسالة لحسن الحظ، ويمكن أن تُقدَّم دليلاً على صحة أقواله. أما بالنسبة لموضوع إتلاف الوصية فقد كان المتهّم يعمل سابقاً في مهنة المحاماة، وكان يعلم تماماً أن الوصية التي كُتبت لصالحه قبل سنة قد صارت لاغية تلقائياً بزواج زوجة أبيه مرة أخرى.

وأخيراً قال السير إيرنست إن بإمكانه أن يقّدم الدليل الذي يوضح مَن الذي أتلف الوصية فعلاً، قائلاً إن ذلك يمكن أن يفتح صفحة جديدة تماماً في القضية. كما قال إن لديه أدلة ضد أناس آخرين غير جون كافيندش، وإنه يحبّ أن يوجّه انتباه المحلفين إلى حقيقة أن الأدلة ضد السيد لورنس كافيندش هي بمثل قوة الأدلة ضد أخيه، إن لم تكن أقوى!

ثم طلب المتهَم للشهادة.

وقد برأ جون نفسه جيداً وهو في موقف الشهود، وبفعل التدبير الحاذق للسير إيرنست قدّم روايته بصورة جيدة ومُحكَمة. وقد تم تقديم الرسالة المجهولة التي استلمها وسُلِّمت إلى هيئة المحلفين لفحصها. وبدا أن السهولة التي أقرّ بها بمشكلاته المالية وخلافاته مع زوجة أبيه قد أضفت قيمة على إنكاره للتهمة. وعند ختام استجوابه توقف لحظة ثم قال: أودّ توضيح شيء واحد. إنني أرفض تماماً ولا أوافق السير إيرنست في تعريضه بأخي، فأنا مقتنع بأن أخي ليس له شأن أكثر مني بالجريمة.

ابتسم السير إيرنست فقط، ولاحظ بعين حادة أن اعتراض جون قد أحدث وقعاً إيجابياً مؤثراً في هيئة المحلفين.

ثم بدأ الاستجواب المعاكس من محامي الادعاء: هل أفهم من كلامك أنك غير مقتنع بأن شهود التحقيق يمكن أن يكونوا قد أخطؤوا في تمييز صوتك من صوت السيد إنغلثورب، أليس هذا مثيراً للدهشة؟

- لا أظنه كذلك؛ لقد أُخبِرتُ بوقوع مشاجرة بين أمي والسيد إنغلثورب، ولم يخطر لي أبداً أن الموضوع لم يكن بهذا الشكل.

- ولا حتى عندما كررت الخادمة دوركاس مقاطع معينة من المحادثة، المقاطع التي تعرّفتَ عليها؟

- أنا لم أتعرف عليها.

- لا بد أن ذاكرتك ضعيفة على غير العادة!

- لا، ولكننا كنّا في حالة غضب نحن الاثنين، وأظن أننا قلنا أكثر مما كنا نقصد. ولذلك فلم أُعطِ إلا أقلّ الاهتمام لكلمات أمي الفعلية.

جاءت زفرة السيد فيلبس غير المُصدِّقة بمثابة الانتصار لمهاراته القضائية، ثم انتقل إلى موضوع الرسالة سائلاً: لقد قدّمتَ هذه الرسالة في الوقت المناسب تماماً. قل لي: ألا يوجد شيء مألوف بخصوص الخط؟

- ليس على حد علمي.

- ألا تظن أنها تحمل تشابهاً ملحوظاً مع خطك... مزيّفاً بإهمال؟

- لا أظن ذلك.

- أنا أقول لك بأن هذا هو خطك!

- لا.

- وأقول بأنك، وفي محاولتك لإثبات دليل براءة، قد اختلقت فكرة موعد خيالي لا يمكن تصديقه وكتبت هذه الرسالة بنفسك لتأييد كلامك!

- لا.

- أليس حقيقةً أنك في نفس الوقت الذي تزعم أنك كنت فيه تنتظر في مكان منعزل وغير مطروق، كنت في الحقيقة في صيدلية قرية ستايلز سينت ميري، حيث اشتريت الإستركنين باسم ألفريد إنغلثورب؟

- لا، هذا كذب.

- وأقول إنك كنت تلبس بدلة من ملابس السيد إنغلثورب وتضع لحية سوداء شُذِّبت لتصبح شبيهة بلحيته، وقد وقَّعتَ على السجل باسمه!

- هذا غير صحيح إطلاقاً.

- إذن فسوف أترك الحكم بالتشابه الملحوظ في الكتابة بين خط الرسالة، والسجل، وخطك أنت، لاعتبار هيئة المحلفين.

قال السيد فيلبس ذلك، ثم جلس بكبرياء رجل قام بواجبه.

بعد ذلك، وبسبب تأخر الوقت، تم تأجيل القضية حتى يوم الإثنين. وقد لاحظت أن بوارو بدا مثبط الهمة كثيراً، وقد ظهرت على عينيه تلك التقطيبة التي أعرفها جيداً.

سألته: ماذا في الأمر يا بوارو؟

- آه يا صديقي؛ إن الأمور تسوء، تسوء!

ورغماً عني شعر قلبي بالراحة، فمن الواضح أن هناك احتمالاً قوياً بأن تعلَن براءة جون كافيندش. وعندما وصلنا إلى البيت أبدى صديقي اعتذاره عن العرض الذي قدَّمَته ماري لشرب الشاي، وقال ملوّحاً بيديه: لا، أشكرك يا سيدتي، سوف أذهب إلى غرفتي.

تبعته، وكان ما يزال عابساً. ذهب باتجاه الطاولة وأخذ علبة صغيرة من ورق اللعب، ثم سحب كرسياً ناحية الطاولة. ولشدة دهشتي بدأ ببناء بيت من الورق!

ظهر الاستغراب على وجهي بصورة لاشعورية، فقال في الحال: لا يا صديقي، أنا لست في طفولتي الثانية! إنني أهدّئ أعصابي، هذا كل ما في الأمر. إن هذا العمل يتطلب دقة في حركة الأصابع، ومع دقة حركة الأصابع تأتي دقة عمل الدماغ، وهو أمر أنا بحاجة إليه في الوقت الحالي.

سألته: ما هي المشكلة؟

وبضربة قوية على الطاولة هدم بيته الذي بناه بعناية قائلاً: إنها يا صديقي أنني أستطيع بناء بيوت من ورق اللعب بارتفاع سبعة أدوار، ولكني لا أستطيع العثور على تلك الحلقة الأخيرة التي حدّثتك عنها.

لم أستطع قول أي شيء، ولذلك التزمت بهدوئي. وبدأ يبني بيتاً ببطء مرة أخرى، وكان يتكلم بارتعاش في أثناء ذلك: لقد بُني البيت هكذا، عن طريق وضع بطاقة فوق أخرى بدقة شديدة!

كنت أراقب البيت الورقي وهو يرتفع تحت يديه طابقاً فوق طابق، ولم يتردد أو يضطرب. كان في الحقيقة مثل خدعة الساحر. وقلت: إن لك يداً ثابتة، أظن أنني رأيت يدك تهتز مرة واحدة فقط.

قال بوارو بهدوء عظيم: كان ذلك في مناسبة كنت فيها غاضباً بلا شك.

- نعم، بالفعل؛ لقد كنتَ غاضباً جداً. هل تذكر؟ كان ذلك عندما اكتشفتَ أن قفل حقيبة أوراق السيدة إنغلثورب الموجودة في

غرفة نومها قد كُسِر، ووقفتَ بجانب الموقد وأنت تَصُفّ الأشياء بطريقتك المعهودة، واهتزت يدك كأنها ورقة شجر! وعليّ أن أقول...

ولكني توقفت فجأة لأن بوارو أصدر صرخة متحشرجة غير مفهومة، ومرة أخرى هدم بناءه الرائع، ثم وضع يديه على عينيه وهو يهز رأسه إلى الأمام وإلى الخلف، وكان واضحاً أنه يعاني من ألم مبرّح.

صرخت: يا إلهي! بوارو، ماذا حصل؟ هل أنت مريض؟

قال لاهثاً: لا، لا؛ إنها هي، إنها هي... لديّ فكرة!

تعجبت بعد أن ارتحت وقلت: آه! هل هي واحدة من أفكارك الصغيرة؟

ردّ بوارو بصراحة: لا، إنها فكرة ضخمة هذه المرة، مذهلة! وأنت... أنت الذي أعطيتني إياها يا صديقي!

وفجأة قبّلني بحرارة على كلا وجنتيّ وهو يمسكني بذراعيه، وقبل أن أصحو من دهشتي ركض خارج الغرفة.

وفي تلك اللحظة دخلت ماري كافيندش قائلة: ما الذي حصل للسيد بوارو؟ لقد اندفع بجانبي وهو يصرخ: "سيارة... بربّك دليني على سيارة يا سيدتي!" وقبل أن أجيبه اندفع خارجاً إلى الشارع.

أسرعتُ إلى النافذة. وبالفعل كان يندفع عبر الشارع مشيراً بيديه وبلا قبعة. التفتّ إلى ماري يائساً وقلت: سوف يوقفه رجل

شرطة بعد دقيقة، لقد ذهب إلى هناك، حول الزاوية!

تقابلت عيوننا وحدقنا عاجزين عن فعل شيء. قالت: ماذا يمكن أن يكون الأمر؟

هززت رأسي قائلاً: لا أعرف. كان يبني بيوتاً ورقية عندما قال فجأة إن لديه فكرة واندفع خارجاً كما رأيتِ.

فقالت ماري: حسناً، أتوقع أنه سيعود قبل العشاء.

ولكن الليل حلّ ولم يَعُد بوارو.

* * *

الفصل الثاني عشر
الحلقة الأخيرة

أثارت مغادرة بوارو السريعة اهتمامنا جميعاً بشكل كبير. وانقضى صباح الأحد ولمّا يظهر بوارو، ولكن في نحو الساعة الثالثة شدّ انتباهَنا صوتُ نفير سيارة قوي مستمر، فأسرعنا نحو النافذة لنرى بوارو وهو يخرج من سيارة بصحبة جاب وسمرهاي.

بدا الرجل الضئيل مُتغيراً وقد علت وجهَه علامةُ الرضا، وانحنى باحترام مبالَغ فيه لماري كافيندش قائلاً: سيدتي، أرجو أن تسمحي لي بعقد اجتماع صغير في الصالون. من الضروري أن يحضره الجميع.

ابتسمت ماري بحزن وقالت: أنت تعرف يا سيد بوارو أن لك كامل الحرية لتفعل ما تشاء.

- إنك لطيفة جداً يا سيدتي.

قادنا بوارو جميعاً إلى صالة الاستقبال وهو يبتسم، وقدّم الكراسي للجميع: الآنسة هاوارد هنا، الآنسة سينثيا، السيد

لورنس، دوركاس الطيبة، وآني... جيد! يجب أن نؤخر كلامنا بضع دقائق أخرى إلى حين وصول السيد إنغلثورب؛ لقد أرسلت إليه ملاحظة بهذا الخصوص.

نهضت الآنسة هاوارد من مقعدها في الحال وقالت: إذا جاء هذا الرجل إلى البيت فسوف أغادره!

ذهب بوارو ناحيتها ورجاها بصوت منخفض: لا، لا.

وأخيراً وافقت الآنسة هاوارد على العودة إلى مقعدها، وبعد بضع دقائق دخل ألفريد إنغلثورب الغرفة. وباجتماع المجموعة نهض بوارو عن مقعده كأنه محاضر مشهور وانحنى لجمهوره بأدب قائلاً: سيداتي وسادتي، كما تعرفون جميعاً فقد كلفني السيد جون كافيندش بالتحقيق في هذه القضية. وفي الحال تفحصت غرفة نوم الفقيدة التي بقيت مغلقة بناء على نصيحة الطبيبين، ولذلك وجدتُها بالضبط كما كانت عندما حدثت المأساة. وجدت أولاً خيوطاً من نسيج أخضر، وثانياً بقعة على السجادة بجانب النافذة، وكانت ما تزال رطبة. وثالثاً علبة فارغة من مسحوق البروميد. ولنتحدث أولاً عن قطعة النسيج الخضراء؛ لقد وجدتها معلقة بمزلاج الباب الرابط بين تلك الغرفة والغرفة المجاورة التي تشغلها الآنسة سينثيا، وقد سلّمتُ القطعة لرجال الشرطة الذين لم يعتبروها ذات أهمية كبيرة، كما أنهم لم يعرفوا ماذا كانت تلك القطعة أصلاً. لقد كانت قطعة ممزقة من كم اللباس الواقي الذي يُلبَس للعمل في الحديقة.

ساد الغرفةَ جوٌّ من الدهشة والإثارة، ثم تابع بوارو كلامه: حسناً، شخص واحد في ستايلز كان يعمل في الحديقة، وهي

السيدة كافيندش. ولذلك فلا بد أن تكون السيدة كافيندش هي التي دخلت غرفة الفقيدة من خلال الباب الموصل لغرفة الآنسة سينثيا.

صرختُ قائلاً: ولكن الباب كان مغلقاً بالمزلاج من الداخل!

- عندما تفحصت الغرفة، نعم، كان مغلقاً بالمزلاج. ولكن ليس لدينا في المقام الأول سوى كلامها هي عن هذا الموضوع، لأنها هي التي حاولت فتح ذلك الباب وادّعت بأنه موصَد بالمزلاج. وفي خِضَمّ الفوضى التي أعقبت ذلك كانت لديها الفرصة الكافية لتغلق الباب بالمزلاج. وقد حصلتُ على فرصة مبكرة لكي أتحقق من حدسي. سوف أقول أولاً إن القطعة الممزقة تتطابق بالضبط مع التمزّق الموجود في كم السيدة كافيندش. وأيضاً وفي أثناء التحقيق أعلنت السيدة كافيندش أنها سمعت وهي في غرفتها سقوط الطاولة المجاورة للسرير، وقد تحققتُ من هذا الزعم حينما طلبت من صديقي السيد هيستنغز أن يقف في الجناح الأيسر للبيت خارج باب غرفة السيدة كافيندش تماماً، فيما ذهبت أنا بنفسي بصحبة رجلَي الشرطة إلى غرفة الفقيدة. وبينما كنا هناك أوقعتُ الطاولة التي نتحدث عنها بصورة بدت وكأنها عَرَضية، ولكني وجدت -وكما كنت أتوقع- أن السيد هيستنغز لم يسمع أي صوت على الإطلاق. وهذا أكد اعتقادي بأن السيدة كافيندش لم تكن تقول الحقيقة عندما أعلنت أنها كانت ترتدي ملابسها في غرفتها عندما وقعت المأساة. بل إنني كنت مقتنعاً -في الحقيقة- بأنها كانت أبعد من أن تكون في غرفتها... لقد كانت السيدة كافيندش فعلاً في غرفة الفقيدة عندما

قُرع جرس الإنذار.

ألقيتُ نظرة سريعة على ماري. بدت شاحبة جداً ولكنها كانت تبتسم.

أكمل بوارو قائلاً: وقد تحققت من هذا الافتراض فوضعت التصور التالي: السيدة كافيندش في غرفة حماتها. سنقول إنها كانت تبحث عن شيء ما ولم تكن قد وجدته بعد، وفجأة تستيقظ حماتها وقد تملكتها أعراض المرض الشديد، فتحرك ذراعها وتقلب الطاولة المجاورة للسرير ثم تضرب الجرس بيأس. جفلت السيدة كافيندش وأسقطت شمعتها فانساب دهن الشمع على السجادة، فالتقطتها وتراجعَتْ بسرعة إلى غرفة الآنسة سينثيا وأغلقت الباب خلفها، ثم أسرعت خارجة ناحية الممر حتى لا يجدها الخدم حيث هي. ولكن كان الوقت قد فات، فقد سمعَت وقعَ أقدام في الردهة التي تصل بين جناحَي البيت. فماذا كان في استطاعتها أن تفعل؟

لقد أسرعت عائدةً إلى غرفة الفتاة الشابة وبدأت توقظها من نومها. ثم وصل أهل البيت مسرعين إلى الممر، وكانوا جميعاً مشغولين بالضرب على باب السيدة إنغلثورب، ولم يخطر ببال أحد أن السيدة كافيندش لم تأتِ مع بقية أهل البيت، ولكني -وهذه نقطة لها دلالتها- لم أجد أحداً رآها وهي تأتي من الجناح الآخر.

ثم نظر إلى السيدة كافيندش وقال: هل كلامي صحيح يا سيدتي؟

حنت رأسها وقالت: صحيح تماماً يا سيدي. وأرجو أن تكون متأكداً من أنني لو اعتقدتُ بأنني يمكن أن أقدم أي معلومة تخدم زوجي بكشف هذه الحقائق لما ترددت في الأمر، ولكن بدا لي أن هذه المسألة لا دخل لها بتحديد براءته أو إدانته.

- هذا الكلام صحيح إلى حد ما يا سيدتي. ولكنه أدّى إلى تنقية ذهني من الكثير من الاعتقادات الخاطئة، وتركني حراً لأرى الحقائق الأخرى بمغزاها الحقيقي.

وهنا صرخ لورنس: الوصية! إذن فقد كنت أنت يا ماري التي أتلفتِ الوصية؟

هزّت رأسها بالنفي، وهز بوارو رأسه بالنفي أيضاً وقال بهدوء: لا، هناك شخص واحد فقط من المحتمل أن يكون قد أتلف الوصية، وهو السيدة إنغلثورب نفسها!

قلت مستغرباً: مستحيل، فقد كتبتها فقط في ذلك المساء نفسه!

قال بوارو: ومع ذلك -يا صديقي- فقد كانت السيدة إنغلثورب بالفعل، لأنك لا تستطيع أن تفسّر حقيقة أن تأمر السيدة إنغلثورب بإشعال نار المدفأة في غرفتها في واحد من أشد أيام السنة حرارة إلا بهذه الطريقة.

أطلقت شهقة شديدة. كم كنا أغبياء لأننا لم نفكر إطلاقاً أن تلك النار لم تكن مناسبة! ومضى بوارو في الحديث: كان ذلك يوماً من الأيام الحارة، ورغم ذلك أمرت السيدة إنغلثورب بإشعال النار! لماذا؟ لأنها أرادت أن تحرق شيئاً ما، ولم تفكر

بأية طريقة أخرى إلا هذه. وكما تعلمون فإن أية أوراق مهمَلة ما كانت لتُرمى، وذلك بسبب اقتصاد الحرب المتقشف الذي كان يُطبَّق في قصر ستايلز، وإذن فلا توجد طريقة لإتلاف وثيقة سميكة كالوصية إلا الحرق.

حالما سمعتُ أن النار قد أوقدت في غرفة السيدة إنغلثورب توصلت إلى نتيجة مفادها أن ذلك كان لإتلاف وثيقة مهمة، ومن المحتمل أن تكون وصية، وهكذا فلم يكن اكتشاف الورقة المحروقة في الموقد مفاجأة بالنسبة لي. وبالطبع لم أكن أعرف في ذلك الوقت أن الوصية التي يدور الحديث بشأنها قد كُتبت في ذلك المساء فقط. وأعترف بأنني عندما علمت بالحقيقة وقعت في خطأ شنيع؛ فقد استنتجت أن تصميم السيدة إنغلثورب على إتلاف وصيتها كان نتيجة مباشرة للشجار الذي وقع في ذلك المساء، وبالتالي تكون المشاجرة قد حدثت بعد كتابة الوصية وليس قبلها.

وهنا كنت مخطئاً كما تعرفون، ولذلك اضطررت إلى التخلي عن الفكرة. ثم واجهت المشكلة من وجهة نظر جديدة: في الساعة الرابعة سمعت دوركاس سيدتها وهي تقول بغضب: "لا تظن أن الخوف من شيوع الخبر أو من الفضيحة بين زوج وزوجته يمكن أن يعيقني". لقد حدست (وكان حدساً صحيحاً) أن تلك الكلمات كانت موجَّهة إلى السيد جون كافيندش وليس إلى زوجها. ولكن وفي الساعة الخامسة، بعد ساعة واحدة، كانت تستخدم تقريباً نفس الكلمات، ولكن وجهة النظر تختلف هنا. إنها تعترف لدوركاس قائلة: "أنا لا أعرف ماذا أفعل؛ إن الفضيحة بين زوج وزوجته أمر شنيع". في الساعة الرابعة كانت

غاضبة ولكنها سيدة نفسها تماماً، وفي الساعة الخامسة كانت في محنة شديدة وتتكلم عن «صدمة عنيفة» تعرضت لها. وعند النظر إلى المسألة من الناحية النفسية توصلت إلى استنتاج واحد كنت مقتنعاً بأنه صحيح: إن «الفضيحة» الثانية التي تحدثت عنها لم تكن هي نفس الفضيحة الأولى، وإن الفضيحة الثانية كانت تعنيها شخصياً!

دعونا نرتّب المسألة من جديد: في الساعة الرابعة تتشاجر السيدة إنغلثورب مع ابنها وتهدده بكشف الأمر لزوجته (التي سمعت -فيما يبدو- الجزء الأكبر من المحادثة). في الساعة الرابعة والنصف تكتب السيدة إنغلثورب -على إثر المحادثة التي تمت حول صلاحية الوصايا- وصية لصالح زوجها، وقد شهد البستانيان على هذه الوصية. في الساعة الخامسة تجد دوركاس سيدتها في حالة ثورة وهيجان كبيرة، وكانت بيدها قطعة من ورق ظنت دوركاس أنها «رسالة»، وهنا أمرتها السيدة إنغلثورب بإشعال النار في موقد غرفتها.

إذن من المفترض أن شيئاً قد حدث بين الساعة الرابعة والنصف والساعة الخامسة فسبّب لها انقلاباً كاملاً في المشاعر، بحيث صارت مهتمة بإتلاف الوصية بقدر اهتمامها قبل ذلك بكتابتها. فماذا كان ذلك الشيء؟

على قدر علمنا فقد كانت وحدها تماماً خلال نصف الساعة الفاصلة، فلم يدخل إلى حجرة الجلوس تلك أحد أو يخرج منها أحد. إذن ما الذي سبّب هذا التغير المفاجئ في المشاعر؟ ليس باستطاعة المرء إلا التخمين، ولكني أعتقد بأن تخميني صحيح. لم يكن لدى السيدة إنغلثورب طوابع في أدراج مكتبها، ونحن

نعرف ذلك لأنها طلبت من دوركاس فيما بعد إحضار بعض منها. ولكن في الزاوية المقابلة من الغرفة كان يوجد مكتب زوجها وأدراجه مغلقة. وإذ كانت مهتمة بالعثور على بعض الطوابع، ووفقاً لنظريتي، فقد حاولَت فتح أدراجه باستخدام مفاتيحها. وأنا أعرف أن واحداً من هذه المفاتيح كان يمكن أن يفتح أدراج زوجها.

وهكذا فقد فتحَت الدُّرْج، وبينما كانت تبحث عن الطوابع وقع في يدها شيء آخر؛ تلك الورقة التي رأتها دوركاس في يدها. ومن ناحية أخرى اعتقدت السيدة كافيندش أن تلك الورقة التي كانت حماتها تتشبّث بها كثيراً كانت دليلاً خطياً على خيانة زوجها جون لها، وقد طلبتها من السيدة إنغلثورب التي أكدت لها بصدق تام أن لا علاقة لها بتلك المسألة. ولكن السيدة كافيندش لم تصدقها، فقد ظنت أن السيدة إنغلثورب كانت تتستر على ابن زوجها.

إن السيدة كافيندش امرأة حازمة تماماً، وخلف قناع تحفظّها كانت تغار على زوجها بجنون، وقد صممت على الحصول على تلك الورقة مهما يكن الثمن. وفي معرض هذا التصميم جاءت الفرصة لتساعدها، فقد حدث أن وجدت مفتاح حقيبة أوراق السيدة إنغلثورب الذي كان قد فُقِد في ذلك الصباح. وكانت تعرف أن حماتها تحفظ دائماً جميع الأوراق المهمة في تلك الحقيبة بالذات، ولذلك وضعت السيدة كافيندش خططها كما تفعل المرأة عادة بدافع الغيرة وهي يائسة. وفي وقت ما في المساء فتحت مزلاج الباب الذي يؤدي إلى غرفة الآنسة سينثيا، وربما تكون قد وضعت زيتاً على مفاصل الباب لأنني فحصته بعد ذلك

فوجدت أنه كان يُفتَح دون أن يُصدر أي صوت. وأحسب أنها قد أجّلت مشروعها إلى الساعات الأولى من الصباح لأن ذلك أضمن لها، حيث إن الخدم معتادون على سماع حركتها في غرفتها في ذلك الوقت. وهكذا ارتدت ملابسها كاملة، ملابس العمل في الحديقة، ثم شقّت طريقها بهدوء إلى غرفة السيدة إنغلثورب من خلال غرفة الآنسة سينثيا.

قاطعَتْه سينثيا قائلة: ولكني كنت سأصحو لو أن أحداً دخل إلى غرفتي؟

- ليس إذا كان قد تم تخديرك يا آنستي.

- تخديري؟!

- نعم.

ثم خاطبَنا جميعاً مرة أخرى قائلاً: أنتم تتذكرون أن الآنسة سينثيا كانت ما تزال نائمة رغم كل الجلبة التي حصلت في الغرفة المجاورة، وهذا أشار إلى أحد احتمالين: إما أن نومها كان مُصطنعاً (وهذا ما لم أصدّقه) أو أن غيابها عن الوعي حدث عن طريق أسباب صناعية. ولما وضعت هذه الفكرة الأخيرة في ذهني قمت بفحص جميع فناجين القهوة بعناية شديدة، متذكّراً أن السيدة كافيندش هي التي أحضرت القهوة للآنسة سينثيا في ليلة الجريمة. وأخذت عينة من كل فنجان وحللتها، ولكن لم أصل إلى نتيجة.

عددت الفناجين بعناية لأتأكد من عدم إبعاد أي منها. ستة أشخاص شربوا القهوة، والفناجين التي وجدتها كانت ستة أيضاً،

فأقررت لنفسي بأنني مخطئ. ثم اكتشفت أنني كنت مذنباً بسبب نقص خطير في معلوماتي، فقد تم إحضار القهوة لسبعة أشخاص وليس لستة، لأن الدكتور بورشتاين كان هناك في ذلك المساء! وقد غيّر هذا الأمر المسألة كلها، حيث يوجد الآن فنجان مفقود.

ولم يلاحظ الخدم شيئاً؛ حيث إن آني، خادمة المنزل التي أحضرت القهوة، أحضرتها في سبعة فناجين دون أن تعرف أن السيد إنغلثورب لم يكن يشربها، أما دوركاس التي رفعت تلك الفناجين في صباح اليوم التالي فقد وجدت ستة فناجين كالعادة، أو أنها بتعبير أدق وجدت خمسة، والسادس كان مكسوراً في غرفة السيدة إنغلثورب.

كنت واثقاً أن ذلك الفنجان المفقود كان فنجان الآنسة سينثيا، ويوجد لديّ سبب إضافي لهذا الاعتقاد متمثلاً في حقيقة أن جميع الفناجين التي عُثر عليها تحتوي على السكر الذي لم تكن الآنسة سينثيا تضعه في قهوتها أبداً. ولفت انتباهي كلام آني عن وجود بعض «الملح» على صينية الكاكاو التي كانت تأخذها إلى غرفة السيدة إنغلثورب كل ليلة، وبناء على ذلك أخذت عينة من ذلك الكاكاو وأرسلته إلى التحليل.

قال لورنس بسرعة: ولكن الدكتور بورشتاين فعل كل ذلك.

- ليس تماماً؛ فقد كان الطلب من المختبر أن يكتب في تقريره ما إذا كان الإستركنين موجوداً أم غير موجود. إنه لم يفحصها مثلما فعلت أنا بحثاً عن مخدِّر.

- بحثاً عن مخدر؟

- نعم، وها هو تقرير المختبر. لقد وضعت السيدة كافيندش مخدراً غير ضار ولكنه فعّال لكل من السيدة إنغلثورب والآنسة سينثيا، ومن المحتمَل أن تكون قد قضت دقائق حرجة وسيئة تبعاً لذلك! تصوروا شعورها عندما مرضت حماتها وماتت فجأة، وبعد ذلك مباشرة سمعت بكلمة «سم»! لقد كانت تعتقد بأن الدواء المنوِّم الذي وضعَته كان غير ضارّ إطلاقاً، ولكن لا شك أنها قد خافت -ولو للحظة بشعة واحدة- من أن وفاة السيدة إنغلثورب كانت بسببها. لقد استولى عليها الذعر، وبتأثيره أسرعت إلى الأسفل، وبسرعة أسقطت فنجان القهوة والصحن الخاصين بالآنسة سينثيا داخل مزهرية نحاسية كبيرة حيث اكتشفهما السيد لورنس فيما بعد.

إنها لم تجرؤ على لمس بقايا الكاكاو لأن كثيراً من العيون كانت تحيط بها. وتصوروا إلى أي مدى ارتاحت عندما ذُكِر موضوع الإستركنين، لأنها اكتشفت بعد كل ذلك أن المأساة لم تكن من فعلها. إننا الآن قادرون على تفسير تأخر ظهور أعراض سم الإستركنين كثيراً، ذلك لأن تناول المخدر مع الإستركنين سوف يؤخر مفعول السم لبضع ساعات.

توقف بوارو قليلاً. نظرت ماري إليه وبدأ لون وجهها يتحسّن شيئاً فشيئاً، ثم قالت: كل الذي قلته صحيح تماماً يا سيد بوارو. لقد كانت تلك أشد الساعات ألماً في حياتي ولن أنساها أبداً. ولكنك رائع، وأنا أفهم الآن...

- ماذا كان قصدي عندما أخبرتك أن بإمكانك الاعتراف

لبابا بوارو بأمان، إيه؟ ولكنك ما كنت لتثقي بي.

قال لورنس: الآن فهمت كل شيء؛ الكاكاو المخدِّر شُرِب بعد القهوة المسمومة، وهذا يفسر التأخير في ظهور مفعول السم.

- تماماً. ولكن هل كانت القهوة مُسمَّمة أم لم تكن؟ نأتي هنا إلى صعوبة صغيرة، حيث إن السيدة إنغلثورب لم تشربها قط.

صرخنا صرخة جماعية: ماذا؟!

- نعم. أتذكرون كلامي عن البقعة التي عُثر عليها على السجادة في غرفة السيدة إنغلثورب؟ كانت هناك بعض الأمور الغريبة بخصوص تلك البقعة؛ فقد كانت ما تزال رطبة وتنبعث منها رائحة القهوة القوية، وكانت مطمورة في نسيج السجادة، وقد وجدت بعض شظايا آنية صينية. كان الذي حدث واضحاً لي لأنني كنت قد وضعت حقيبتي الصغيرة على الطاولة بجانب النافذة قبل دقيقتين فقط، فقد مالت الطاولة فأسقطت الحقيبة على الأرض فوق تلك البقعة تماماً، وبالضبط وبنفس الطريقة وضعت السيدة إنغلثورب فنجان قهوتها على الطاولة عندما وصلت إلى غرفتها في الليلة السابقة، وقد لعبت الطاولة الغدّارة اللعبة نفسها معها.

الذي حدث بعد ذلك تخمين مني فقط: التقطت السيدة إنغلثورب الفنجان المكسور ووضعته على الطاولة الصغيرة بجانب السرير، ولأنها شعرت بحاجتها إلى شرب منبّه من نوع ما فقد سخّنت الكاكاو وشربته. والآن تواجهنا هذه المشكلة: فنحن نعرف أن الكاكاو لا يحتوي على الإستركنين، والقهوة لم تُشرَب

قط، ومع ذلك يجب أن يكون الإستركنين قد تم تناوله ما بين الساعة السابعة والساعة التاسعة من ذلك المساء. فما هو الناقل الثالث الذي كان موجوداً هناك؟ ناقل مناسب جداً لإخفاء طعم الإستركنين؟

نظر بوارو حول الغرفة ثم أجاب بصورة مؤثرة: إنه دواؤها!

صرخت قائلاً: هل تقصد أن القاتل قد وضع الإستركنين في دوائها المنشّط؟

- لم تكن به حاجة لوضعه لأنه موجود أصلاً في خلطة الدواء؛ إن الإستركنين الذي قتل السيدة إنغلثورب هو نفس الإستركنين الذي وصفه الدكتور ويلكنز للفقيدة. وحتى أوضّح هذه المسألة لكم أقرأ عليكم فقرة من كتاب لتركيب الأدوية وجدته في صيدلية مستشفى تادمينستر: "وصفة الدواء التالية مشهورة في الكتب الدراسية المقررة: «كبريتات الإستركنين + بروميد البوتاسيوم + ماء».

هذا المحلول يُرَسِّب خلال بضع ساعات الجزءَ الأكبر من ملح الإستركنين بصيغة بروميد غير قابل للذوبان على هيئة بلّورات شفافة. وقد فقدت سيدة في إنكلترا حياتها بعد تناولها مركّباً مشابهاً: إذ تجمّع الإستركنين المترسّب في القعر، وعندما أخذت آخر جرعة فقد ابتلعت الإستركنين كله تقريباً".

وبالطبع لم يكن البروميد داخلاً في وصفة الدكتور ويلكنز، ولكنكم تتذكرون أنني تحدثت عن علبة فارغة من مسحوق البروميد. إن جرعة من هذا المسحوق توضع في زجاجة دواء

مليئة يمكن أن تتسبب في ترسّب الإستركنين كله كما يصف الكتاب، ثم يتناول المريض هذا الإستركنين في آخر جرعة من جرعات الدواء. وسوف تعلمون فيما بعد أن الشخص الذي كان معتاداً على صبّ دواء السيدة إنغلثورب كان يحرص دائماً على عدم خض الزجاجة، بل كان يترك المادة المترسّبة في القاع دون تحريك.

خلال دراستي لهذه القضية وجدت أن الدلائل تشير كلها إلى أن المأساة قد خُطِّط لها أن تقع يوم الإثنين مساء، ففي ذلك اليوم كان سلك الجرس الخاص بالسيدة إنغلثورب قد قُطع، ومساء يوم الإثنين كانت الآنسة سينثيا تقضي الليل مع أصدقاء مما يعني أن السيدة إنغلثورب ستكون وحيدة في الجناح الأيمن وبعيدة تماماً عن أي نوع من أنواع المساعدة، ويمكن أن تموت حسب جميع الاحتمالات قبل طلب المساعدة الطبية لها. ولكن وبسبب استعجالها لتصل إلى حفلة القرية في الوقت المحدد فقد نسيت السيدة إنغلثورب أخذ دوائها، وفي اليوم التالي تناولت غداءها خارج البيت، وهكذا فقد تم تناول آخر جرعة من جرعات الدواء (الجرعة الفتاكة) بعد أربع وعشرين ساعة من الموعد الذي خطط له القاتل؛ وبسبب هذا التأخير فإن الدليل النهائي، آخر حلقة في السلسلة، هو بين يديّ الآن.

ووسط انقطاع الأنفاس من الدهشة أخرج ثلاث قطع مستطيلة رفيعة من الورق وقال: إنها رسالة بخط يد القاتل يا أصدقائي! ولو كانت أكثر وضوحاً في عباراتها بقليل لكان من الممكن أن تنجو السيدة إنغلثورب لو تنبّهت في الوقت المناسب، ولكن الذي حصل هو أن السيدة إنغلثورب قد أدركت أنها في

خطر، ولكنها لم تعرف طبيعة ذلك الخطر.

وبصمت قاتل ضمّ بوارو القطع الثلاث بعضها إلى بعض، وسلّك حنجرته ثم قرأ الرسالة:

> عزيزتي إيفيلين، سوف تقلقين لعدم سماعك شيئاً. إن الأمور جيدة، فقط ستكون الليلة بدلاً من الليلة الماضية. أنت تفهمين، سيأتي وقت جيد عندما تكون المرأة العجوز بعيدة عن الطريق. لا يمكن لأحد أن يلقي بالتبعة عليّ. لقد كانت فكرتك عن البروميد عبقرية، ولكن يجب أن نكون حذرين. إن خطوة خاطئة...

ثم أكمل بوارو حديثه قائلاً: وهنا انقطعت الرسالة يا أصدقائي؛ فقد تمت مُقاطعة الكاتب بلا شك. ولكن لا يوجد شك حول شخصيته. إننا جميعاً نعرف خط يده و...

قطعت الصمتَ في الغرفة ولولةٌ عالية أشبه ما تكون بالصرخة: أيها الشيطان! كيف حصلت عليها؟

انقلب كرسي، وقفز بوارو جانباً برشاقة، وبحركة سريعة منه سقط مهاجمه على الأرض بضجّة شديدة.

وقال بوارو بتألّق: سيداتي وسادتي، دعوني أقدم لكم القاتل؛ السيد ألفريد إنغلثورب!

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث عشر
بوارو يوضّح

قلت: بوارو، أيها الوغد العجوز، إنني أفكر في خنقك! إلى ماذا كنت ترمي من وراء خداعي بهذه الطريقة؟

كنا نجلس في المكتبة، وفي الغرفة السفلى كان جون وماري معاً من جديد، بينما وُضع ألفريد إنغلثورب والآنسة هاوارد قيد التوقيف. والآن وبعدما انفردتُ ببوارو أخيراً أمكنني أن أريح فضولي الذي ما يزال متّقداً.

لم يجبني بوارو للحظة، ولكنه قال في النهاية: أنا لم أخدعك يا صديقي، كل ما صنعته أنني سمحت لك بخداع نفسك.

- نعم، ولكن لماذا؟

- حسناً، من الصعب توضيح المسألة. أنت تعرف يا صديقي أنك رجل ذو طبيعة أمينة، وملامح وجهك شفافة بحيث يستحيل عليك إخفاء مشاعرك. ولو كنتُ قد حدّثتك بأفكاري لكان السيد إنغلثورب، ذلك الرجل الداهية، سيشم الرائحة منذ المرة الأولى التي تراه فيها، وبعدها كنا سنفقد فرصتنا في إثبات الجرم عليه.

- أعتقد أن لديّ دبلوماسية أكثر مما تظن.

توسل بوارو قائلاً: يا صديقي، أناشدك أن لا تغضب! لقد كانت مساعدتك قيّمة جداً. إن الذي جعلني أكتم هذه الأمور عنك هو طبيعتك الجميلة فقط.

دمدمت بهدوء بعض الشيء: حسناً، ما زلت أظن أنك كان يمكن أن تُلمّح قليلاً على الأقل.

- ولكني فعلت ذلك يا صديقي... عدة تلميحات، ولكنك لم تلتقطها. تذكّر، هل قلتُ لك مرة إنني أعتقد أن جون كافيندش مذنب؟ ألم أقل لك -على العكس من ذلك- إن من المؤكد أنه سوف ينتهي بالحصول على البراءة؟

- نعم، ولكن...

- ثم ألم أتحدث بعدها مباشرة عن صعوبة تقديم القاتل للعدالة؟ ألم يكن واضحاً لك أنني كنتُ أتكلم عن شخصين مختلفين تماماً؟

- لم يكن هذا واضحاً على الإطلاق.

استمر بوارو: ثم ألم أكرر لك منذ البداية، وأكثر من مرة، أنني لا أريد أن يُعتقَل السيد إنغلثورب الآن؟ كان لا بد أن توحي لك هذه الكلمة بشيء.

- هل تقصد أنك كنت تشك فيه منذ ذلك الوقت؟

- نعم، فهو أكثر مَن يستفيد من موتها. وعندما ذهبت معك إلى قصر ستايلز في اليوم الأول لم تكن لديّ أية فكرة عن كيفية

حدوث الجريمة، ولكن مِن الذي عرفته عن السيد إنغلثورب تصورت أنه سيكون من الصعب جداً العثور على أي شيء يربطه بها. وعندما وصلت إلى القصر عرفت في الحال أن السيدة إنغلثورب هي التي أحرقت الوصية. وأنت لا تستطيع أن تتذمر بشأن هذه النقطة بالذات يا صديقي، لأنني حاولت جاهداً أن أدخل في رأسك أهمية دلالة إشعال النار في غرفة النوم في وسط الصيف.

قلت بنفاد صبر: نعم، نعم؛ استمرّ.

- حسناً يا صديقي. كما قلت: كانت آرائي بالنسبة لجريمة السيد إنغلثورب مهزوزة جداً، وفي الحقيقة كانت هناك أدلة كثيرة ضده مما جعلني أميل إلى الاعتقاد بأنه لم يفعلها.

- ومتى غيرت رأيك؟

- عندما وجدت أنني كلما بذلتُ جهوداً أكثر لتبرئته بذل هو جهوداً كثيرة لإيقاع نفسه في السجن، ثم عندما اكتشفت أن إنغلثورب لم تكن له علاقة بالسيدة رايكس وأن السيد جون كافيندش هو الذي كان على علاقة بها في الحقيقة صرت متأكداً تماماً.

- ولكن لماذا؟

- لو كان إنغلثورب هو صاحب العلاقة بالسيدة رايكس لاستطعت أن أفهم صمته تماماً، ولكن عندما علمت أن القرية كلها تعرف أن جون هو الذي كان معجباً بزوجة المزارع الجميلة أدركت أن صمته لا بد أن يكون له تفسير آخر مختلف. كان من

الهراء التظاهر بأنه كان خائفاً من الفضيحة، فلا توجد أي فضيحة بخصوصه. موقفه هذا جعلني أفكر ملياً، وشيئاً فشيئاً توصلت إلى نتيجة مفادها أن ألفريد إنغلثورب كان يريد أن يُعتقَل! ومنذ تلك اللحظة كنت مصمماً بنفس تصميمه على أن لا يتم اعتقاله.

- انتظر لحظة. أنا لا أفهم لماذا يُريد أن يتم اعتقاله؟

- لأن قانون بلادكم ينص على أن الشخص الذي تتم تبرئته مرة لا يمكن أبداً أن يُحاكَم بنفس التهمة مرة أخرى. آه، إنها لفكرة ذكية فكرته تلك! إنه رجل صاحب منهج بالتأكيد. لقد عرف أنه من المتوقع أن يتم الاشتباه فيه، ولذلك فكّر بفكرة ذكية جداً هي اختراع عدد من الأدلة المصطنَعة ضده. وكان يتمنى أن يتم الاشتباه فيه ويتمنى أن يُعتقَل، وبعدها سوف يقدّم دليله الذي لا يُدحَض، وبعدها سيكون آمناً طوال حياته!

- ولكني ما زلت لا أفهم كيف دبّر مسألة إثبات عدم وجوده في مكان الجريمة، ومع ذلك ذهب إلى صيدلية القرية؟

نظر بوارو إليّ بدهشة قائلاً: هل هذا ممكن؟ يا صديقي المسكين! إنك لم تفهم بعد أن الآنسة هاوارد هي التي ذهبت إلى الصيدلية.

- الآنسة هاوارد؟!

- بالتأكيد. مَن غيرها إذن؟ لقد كان ذلك سهلاً جداً بالنسبة لها. إن طولها مناسب وصوتها خشن ورجولي، ثم إنها ابنة عم السيد إنغلثورب وبينهما شبه بعيد، ولا سيما في طريقة المشي والهيئة. كان ذلك في غاية السهولة.

- لكنني ما زلت متحيراً بعض الشيء حول كيفية تنفيذ مؤامرة البروميد.

- حسناً، سوف أوضح لك المسألة بقدر استطاعتي. أنا أميل إلى الاعتقاد بأن الآنسة هاوارد هي التي كانت العقل المدبر لهذه الجريمة. هل تذكر أنها قالت مرة بأن والدها كان طبيباً؟ ومن المحتمل أنها كانت تُركّب له الأدوية، أو لعلها قد أخذت الفكرة من أحد الكتب الكثيرة التي وجدتها قربها عندما كانت الآنسة سينثيا تدرس لامتحاناتها.

وعلى أي حال فقد كانت تعرف حقيقة أن إضافة البروميد إلى خليط يحتوي على الإستركنين يسبّب ترسيباً للأخير. ومن المحتمل أن الفكرة قد خطرت لها فجأة، وكان عند السيدة إنغلثورب علبة من مسحوق البروميد الذي كانت تأخذه عادة في الليل. ماذا يمكن أن يكون أسهل من إذابة جرعة أو أكثر من ذلك المسحوق بهدوء في زجاجة دواء السيدة إنغلثورب الكبيرة؟ إن المخاطرة من الناحية العملية أقرب إلى الصفر، ولن تحدث المأساة إلا بعد أسبوعين تقريباً. ولو رأى أي شخص أياً منهما وهو يمسك الدواء فإنه سينسى ذلك بعد هذه الفترة.

وقد دبرت الآنسة هاوارد مسألة مشاجرتها وغادرت البيت لأن مرور الوقت وغيابها عن البيت سوف يقضي على كل الشبهات. نعم، لقد كانت فكرة ذكية؛ فلو تركا الأمور بلا تدبير لكان من الممكن أن لا تشير أصابع الاتهام إليهما أبداً، ولكنهما حاولا أن يكونا أكثر ذكاء فكان ذلك سبب اكتشافهما.

لقد دبّرا الخطة بحيث يتم إلقاء الشبهة على جون كافيندش

عن طريق شراء الإستركنين من صيدلية القرية والتوقيع على السجل بخط قريب من خطه. ويوم الإثنين كانت السيدة إنغلثورب ستأخذ آخر جرعة من دوائها؛ ولذلك، وفي الساعة السادسة مساء من يوم الإثنين دبّر ألفريد إنغلثورب مسألة مشاهدته من قِبَل عدد من الناس في مكان بعيد عن القرية. وكانت الآنسة هاوارد قد دبرت مسبقاً قصة فاضحة حوله وحول السيدة رايكس لتفسير إمساك لسانه وصمته فيما بعد. وفي الساعة السادسة دخلت الآنسة هاوارد إلى صيدلية القرية وهي تنتحل شخصية ألفريد إنغلثورب (مع قصتها بشأن الكلب) وحصلت على الإستركنين، وكتبت اسم ألفريد إنغلثورب بنفس خط جون الذي درسته سابقاً بعناية. ولكي لا تفسد هذه الخطة إذا أثبت جون أن لديه دليلاً فقد كتبت له ملاحظة مجهولة المصدر (وأيضاً بخط شبيه بخطه) لتأخذه إلى مكان بعيد من غير المحتمل أن يراه فيه أحد.

وحتى ذلك الوقت كانت الأمور تسير جيداً. عادت الآنسة هاوارد إلى مدلاينهام وعاد ألفريد إنغلثورب إلى قصر ستايلز، ولا شيء يمكن أن يُعرّضه إلى الشبهة بأي حال. ولكن الآن تظهر عقدة؛ فالسيدة إنغلثورب لم تأخذ دواءها تلك الليلة، والجرس المقطوع، وغياب سينثيا (الذي دبره إنغلثورب من خلال زوجته)... كل هذه التدابير قد ضاعت.

وهنا يرتكب زلّته. السيدة إنغلثورب خارج البيت، وها هو يجلس للكتابة إلى شريكته التي يخشى أن تكون قد ذُعرت بسبب فشل خطتهما. ومن المحتمل أن تكون السيدة إنغلثورب قد عادت في وقت أبكر من المتوقع، فأغلق درج مكتبه بالمفتاح بسرعة وهو مضطرب. إنه يخشى أنه لو بقي في الغرفة لكان عليه

أن يفتح درجه ثانية، ومن الممكن إذن أن تلحظ السيدة إنغلثورب الرسالة قبل أن يخفيها، ولذلك فقد خرج وسار في الغابة وهو لا يتوقع أن السيدة إنغلثورب ستفتح درجه وتكتشف الوثيقة التي تُدينه.

ولكن، وكما نعرف، فان هذا هو ما حدث بالفعل؛ فقد قرأتها السيدة إنغلثورب وأدركت خيانة زوجها وإيفيلين هاوارد لها. ورغم ذلك، ولسوء الحظ، فإن العبارة التي تتعلق بالبروميد لم توحِ لها بالحذر. لقد عرفت أنها في خطر ولكنها لم تكن تعلم أين يكمن الخطر، ولذلك قررت أن لا تقول شيئاً لزوجها، وبدلاً من ذلك جلست وكتبت لمحاميها تطلب منه أن يأتي إليها في الغد، كما قررت أيضاً أن تتلف في الحال الوصية التي كتبتها لتوها. وقد احتفظت بالرسالة الخطيرة معها.

- إذن فقد كسر زوجها مفتاح الحقيبة بحثاً عن هذه الرسالة؟

- نعم، ومن المخاطرة الكبيرة التي أقدم عليها نعرف درجة أهميتها بالنسبة إليه. وباستثناء تلك الرسالة لم يكن هناك أي شيء على الإطلاق يمكن أن يربطه بالجريمة.

- شيء واحد فقط لا أفهمه: لماذا لم يمزقها في الحال عندما وجدها؟

- لأنه لم يجرؤ على أن يتحمل الخطر الأكبر، وهو خطر حمل تلك الرسالة شخصياً.

- أنا لا أفهم.

- انظر إلى الموضوع من وجهة نظره هو. لقد اكتشف أن لديه فقط خمس دقائق قصيرة يمكن أن يأخذها خلالها، وهي الدقائق الخمس التي سبقت وصولنا إلى مكان الجريمة؛ فقبل ذلك الوقت كانت آني تنظف الدرج وكان من الممكن أن ترى أيّ شخص يمر باتجاه الجناح الأيمن. والآن تخيل الأمر بنفسك: يدخل إنغلثورب إلى الغرفة ويفتح الباب بمفتاح باب آخر (فكل المفاتيح متشابهة)، ثم يسرع نحو حقيبة الأوراق فيجدها مقفلة بالمفتاح والمفاتيح غير موجودة. إن هذه مصيبة مرعبة بالنسبة له لأنها تعني أن وجوده في الغرفة قد يُكتشَف، ولكنه يشعر بقوة أنه يجب أن يغامر بكل شيء من أجل الحصول على قطعة الدليل التي تُدينه تلك. وبسرعة يفتح القفل بالسكين ويقلب الأوراق إلى أن يجد ضالته.

ولكن تظهر الآن معضلة جديدة: إنه لا يجرؤ على أن يحتفظ بقطعة الورق تلك معه، فمن الممكن أن يراه أحد وهو يغادر الغرفة وربما يتم تفتيشه، ولو عُثر على الورقة معه فإن ذلك هو الهلاك المحقق. ومن المحتمل أنه قد سمع في تلك اللحظة أيضاً أصوات السيد ويلز وجون وهما يغادران حجرة الجلوس في الطابق الأسفل، إذن يجب عليه أن يتصرف بسرعة. أين يمكن أن يُخفي هذه الورقة المرعبة؟ إنه لا يجد طريقة لإتلافها وهو لا يجرؤ على إبقائها معه. نظر حوله ورأى... ماذا تظن أنه رأى يا صديقي؟

هززت رأسي دلالة على عدم العلم فتابع بوارو: في لحظة واحدة مزّق الورقة إلى قطع طويلة رفيعة ولفّ كل واحدة منها حتى صارت مثل قلم قصير، ثم أدخلها بسرعة بين اللفافات

الأخرى الموجودة في المزهرية الموضوعة فوق رف الموقد.

صرخت صرخة تعجب، وقال بوارو: لا أحد سيفكر بتفتيش هذه المزهرية. وسوف يمُكنه فيما بعد، عندما تحين الفرصة، أن يأتي ويتلف هذه القطعة الوحيدة من الدليل ضده.

- إذن فقد كانت طول الوقت مخبَّأة داخل المزهرية في غرفة نوم السيدة إنغلثورب، تحت أنوفنا مباشرة؟

هز بوارو رأسه بالإيجاب: نعم يا صديقي، هناك اكتشفت «حلقتي الأخيرة»، وأنا مدين لك بفضل ذلك الاكتشاف الموفَّق.

- لي أنا؟

- نعم. هل تذكر عندما أخبرتني أن يدي اهتزت عندما كنت أصفّ التحف على رف الموقد؟

- نعم، ولكنني لا أرى...

- نعم، ولكنني أنا رأيت. لقد تذكرت أنني صففت جميع التحف على رف الموقد في وقت مبكر من ذلك الصباح عندما كنا معاً، وإذا كانت مصفوفة بالفعل فلا حاجة لصفّها مرة أخرى إلا إذا لمسها شخص ما خلال ذلك الوقت.

غمغمت قائلاً: إذن فإن هذا هو تفسير تصرفك الغير العادي في ذلك اليوم، فقد اندفعتَ خارجاً إلى قصر ستايلز ووجدتها لا تزال هناك؟

- نعم، وقد كان ذلك سباقاً مع الزمن.

- ولكني ما زلت لا أفهم لماذا كان إنغلثورب أحمق لهذه

الدرجة حتى يتركها هناك، علماً بأن كثيراً من الفرص كانت متاحة له لإتلافها.

- آه، أنت تظن ذلك، ولكن الحقيقة أنه لم تكن لديه أي فرصة. لقد تيقنتُ من ذلك.

- أنت؟

- نعم، هل تذكر عندما وبّختني لأنني أفشيت السر لأهل البيت؟

- نعم.

- حسناً يا صديقي؛ لقد رأيت أن هناك فرصة واحدة فقط، وحينها لم أكن متأكداً إن كان إنغلثورب هو المجرم أم لا، ولكن إذا كان هو فقد فكرت بأنه لا يمكن أن يحتفظ بالورقة معه بل سيخفيها في مكان ما، وبتوظيف تعاطف أهل البيت أستطيع فعلاً أن أمنعه من إتلافها. لقد كان تحت الشبهة في ذلك الوقت، وعن طريق كشف المسألة للجميع فقد ضمنتُ خدمات عشرة على الأقل من رجال ونساء التحري غير المحترفين الذين يمكن أن يراقبوه بلا توقف، ولما أيقن أنه تحت مراقبتهم فإنه لم يجرؤ على محاولة إتلاف الوثيقة، ولذلك اضطر إلى مغادرة البيت تاركاً إياها في داخل المزهرية.

- ولكن الآنسة هاوارد كانت لديها بالتأكيد فرص كافية لمساعدته.

- نعم، ولكن الآنسة هاوارد لم تكن تعلم بوجود الورقة. فبناء على خطتهما المعدة سلفاً لم تتكلم مع ألفريد إنغلثورب

قط، وكان يُفترَض أنهما عدوّان لدودان، وإلى أن تتم إدانة جون كافيندش لن يجرؤ أي واحد منهما على مقابلة الآخر. وبالطبع فقد بقيتُ أراقب السيد إنغلثورب آملاً أن يقودني عاجلاً أو آجلاً إلى مكان إخفاء هذه الورقة، ولكنه كان أذكى من أن يحاول. لقد كانت الورقة آمنة حيث كانت؛ وطالما لم يفكر أحد بأن ينظر هناك في الأسبوع الأول فلم يكن من المرجَّح أن يفعلوا بعد ذلك. ولولا ملاحظتك العظيمة لما كان بإمكاننا تقديمه إلى العدالة.

- ولكن متى بدأتَ تشتبه في الآنسة هاوارد؟

- عندما اكتشفتُ أنها كذبت في أثناء التحقيق بخصوص الرسالة التي استلمَتها من السيدة إنغلثورب.

- لماذا؟ وما الذي كذبت بشأنه؟

- هل رأيتَ تلك الرسالة؟ هل تتذكر شكلها العام؟

- نعم، تقريباً.

- إذن فأنت تذكر أن السيدة إنغلثورب قد كتبتها بخط مميز جداً وتركت مسافات كبيرة وواضحة بين كلماتها، ولكنك إذا نظرت إلى التاريخ في أعلى الرسالة ستلاحظ أن التاريخ «١٧ تموز» مختلف تماماً. هل تفهم ماذا أقصد؟

اعترفتُ قائلاً: لا، لا أفهم.

- ألا ترى؟ إن تلك الرسالة لم تُكتَب بتاريخ ١٧ تموز ولكن بتاريخ ٧ تموز، وهو اليوم الذي أعقب مغادرة الآنسة هاوارد. لقد أضيف الواحد بعد السبعة حتى تصبح ١٧ بدلاً من ٧.

- لكن لماذا؟

- هذا هو السؤال الذي وجّهته لنفسي: لماذا أرادت الآنسة هاوارد أن تطمس الرسالة التي كُتِبت بتاريخ ١٧ تموز (يوليو) وتُظهِر هذه الرسالة المزيَّفة بدلاً منها؟ لأنها لم تكن تريد أن تظهر رسالة ١٧ تموز. وهنا تساءلت مرة أخرى: لماذا؟ وفي الحال دخلت الشكوك في رأسي. هل تذكر كلامي حين قلت إن من الحكمة الحذر من الناس الذين لا يقولون الحقيقة؟

قلت بسخط: ورغم ذلك فقد أعطيتني سببين يؤكدان أن الآنسة هاوارد لا يمكن أن تكون قد ارتكبت الجريمة!

رد بوارو: وقد كانا سببين جيّدين جداً أيضاً، ولفترة طويلة بقي هذان السببان حجر عثرة بالنسبة لي، إلى أن تذكرت حقيقة واضحة جداً وهي أنها وألفريد إنغلثورب كانا ابنَي عم. إنها لا يمكن أن ترتكب الجريمة بمفردها، ولكن الأسباب التي ذكرتها لا تمنعها من أن تكون شريكة في الجريمة. ثم كان هناك كرهها غير الطبيعي الذي حرصت على أن تجاهر به أمامنا، وهو حرص مبالَغ فيه أثار شكوكي!

نعم، لقد جمع بينهما ارتباط عاطفي قبل أن يأتي إلى قصر ستايلز بفترة طويلة، وقد أعدّا مؤامرتهما الشائنة التي اعتمدت على أن يتزوج هذه السيدة العجوز الغنية والحمقاء نوعاً ما ويغريها بكتابة وصية تترك فيها أموالها له، ومن ثَمّ يتم التخلص منها بجريمة ذكية وماكرة. ولو كان كل شيء قد سار كما خططا له فربما كانا قد غادرا إنكلترا وعاشا معاً بأموال ضحيتهما المسكينة. إنهما في غاية الخبث والذكاء؛ فبينما تتجه الشكوك إليه تكون

هي قد أعدت الترتيبات: تصل إلى البيت فتُخبئ الإستركنين والنظارات في غرفة جون وتضع اللحية في العلّية، وهي تعرف أن ذلك كله سوف يُكتشَف عاجلاً أو آجلاً.

قلت: أنا لا أفهم تماماً لماذا حاولا إلصاق التهمة بجون، فقد كان من الأسهل لهما أن يلصقاها بلورنس.

- نعم، ولكن ذلك كان بلا تخطيط مسبَق؛ فقد ظهرت جميع الأدلة ضده بمصادفة بحتة.

قلت مفكراً: إن تصرفاته لم تكن موفَّقة.

- نعم، وأنت تعرف السبب بالطبع؟

- لا.

- ألم تعرف أنه اعتقد بأن الآنسة سينثيا كانت هي القاتلة؟

- قلت مستغرباً: مستحيل!

- ليس مستحيلاً على الإطلاق. أنا شخصياً كان لديّ نفس الرأي تقريباً؛ لقد كان ذلك في ذهني عندما سألت السيد ويلز السؤال الأول عن الوصية. ثم هناك مسحوق البروميد الذي حضّرَته وطريقتها الماهرة في تقليد شخصيات الرجال كما أخبرتنا دوركاس... في الحقيقة كانت الأدلة ضدها أكثر منها ضد أي شخص آخر.

- أنت تمزح يا بوارو!

- لا. وهل تحب أن أخبرك ما الذي جعل لورنس شاحباً جداً عندما دخل غرفة أمه لأول مرة في ليلة الجريمة؟ كان ذلك

لأنه -وبينما كانت أمه ترقد هناك وقد ظهر أنها تعرضت للتسميم- لاحظ من فوق كتفك أن باب غرفة الآنسة سينثيا لم يكن موصَداً بالمزلاج.

صرخت: ولكنه أعلن بأنه رآه موصَداً بالمزلاج!

قال بوارو: تماماً، وهذا هو الذي أكد شكي بأنه لم يكن كذلك. لقد كان يتستر على الآنسة سينثيا.

- ولكن لماذا يتستر عليها؟

- لأنه يحبها.

ضحكت وقلت: هنا أنت مخطئ تماماً يا بوارو! لقد حدث وأن عرفتُ أنه كان يكرهها، لا أنه كان يحبها.

- من قال لك ذلك يا صديقي؟

- سينثيا نفسها.

- إنها قليلة العقل، وهل كانت قلقة بسبب ذلك؟

- قالت إنها لم تكن تهتم إطلاقاً.

- إذن فإنها تهتم كثيراً بالتأكيد. إنهن جميعاً كذلك... النساء!

قلت: إن الذي قلته بالنسبة للورنس مفاجأة كبيرة لي.

- ولكن لماذا؟ إنه واضح جداً. ألم يكن وجه السيد لورنس يتجهم في كل مرة كانت سينثيا تتكلم فيها وتضحك مع أخيه؟ لقد وضع في رأسه أن الآنسة سينثيا كانت تحب السيد جون، وعندما

دخل إلى غرفة والدته ورآها قد سُمِّمت بصورة واضحة قفز إلى نتيجة مفادها أن الآنسة سينثيا كانت تعرف شيئاً عن المسألة. وكان على وشك اليأس، فسحق فنجان القهوة تحت قدمه وهو يتذكر أنها هي التي صعدت مع أمه في الليلة الماضية، فكان عازماً أن لا يترك فرصة لفحص محتوياته. ومنذ ذلك الحين تمسك بشدة تمسّكاً غير مُجْدٍ بنظرية «الوفاة لأسباب طبيعية».

- وماذا عن فنجان القهوة الإضافي؟

- كنت شبه متأكد من أن السيدة كافيندش هي التي أخفَته، ولكن كان يجب أن أتأكد من ذلك. لم يعرف السيد لورنس ماذا كنت أقصد، ولكنه توصل بعد تفكير إلى نتيجة تفيد بأنه إذا وجد فنجان قهوة إضافياً في أي مكان فإن الشبهة ستبتعد عن محبوبته. وكان صائباً تماماً.

- شيء آخر. ماذا كانت السيدة إنغلثورب تقصد بكلماتها وهي على فراش الموت؟

- كانت اتهاماً ضد زوجها بالطبع.

قلت متنهداً: عزيزي بوارو، أظن أنك أوضحت كل شيء. أنا مسرور لأن كل شيء قد انتهى نهاية سعيدة، حتى جون وزوجته اصطلحا.

- شكراً لي.

- ماذا تقصد بقولك هذا؟

- يا صديقي العزيز! هل تدرك أن المحاكمة هي -بكل

بساطة- الشيء الوحيد الذي أعادهما إلى صفائهما واتفاقهما مرة أخرى؟ كنت مقتنعاً بأن جون كافيندش ما يزال يحب زوجته، وأنها هي أيضاً كانت تحبه بنفس القَدْر، ولكنهما تباعدا كثيراً، وكل ذلك سببه سوء الفهم. لقد تزوجَته من غير حب، وكان يعرف ذلك. إنه رجل حسّاس، وما كان ليرغمها على حبه ويفرض نفسه عليها إذا كانت لا تريده. وعندما انسحب من حياتها استيقظ حبها له، ولكن كليهما كانا يتصرفان بكبرياء غير طبيعية، وكبرياؤهما العنيدة أبعدت كلاً منهما عن الآخر. وقد انزلق في علاقة عاطفية وهمية مع السيدة رايكس، كما أنها كانت تسعى متعمّدة إلى مصادقة الدكتور بورشتاين. هل تذكر يوم اعتقال جون كافيندش عندما وجدتَني أفكر مليّاً بقرار كبير؟

- نعم، لقد فهمت قلقك تماماً.

- اسمح لي يا صديقي، ولكنك لم تفهمه إطلاقاً. لقد كنت أحاول أن أقرر: هل أبرّئ جون كافيندش في الحال أم لا أفعل؟ لقد كان باستطاعتي تبرئته، مع أن ذلك كان يمكن أن يقود إلى الفشل في إدانة الجناة الحقيقيين الذين كانوا يتخبطون في الظلام لأن موقفي الحقيقي كان مخفياً حتى آخر لحظة... وهذا يفسر جزئياً نجاحي في المهمة.

- هل تعني أنه كان باستطاعتك إنقاذ جون كافيندش من المثول أمام المحكمة؟

- نعم يا صديقي. ولكنني قررت في آخر الأمر ما هو في مصلحة «سعادة امرأة»؛ فلا شيء غير تعرّضهما لخطر كبير كالذي تعرّضا له كان يمكن أن يعيد هاتين الشخصيتين المتكبرتين

إلى الالتقاء مرة أخرى.

نظرت إلى بوارو بدهشة صامتة. إنها لوقاحة كبيرة من هذا الرجل الصغير! مَنْ غير بوارو يمكن أن يفكر في محاكمة بتهمة القتل كطريقة لتجديد السعادة الزوجية؟!

قال بوارو وهو يبتسم لي: إنني أدرك أفكارك يا صديقي، لا أحد غير هيركيول بوارو يمكن أن يحاول عملاً مثل هذا! وأنت مخطئ في استنكارك لعملي، فإن السعادة والتفاهم اللذين يجمعان امرأة بزوجها أعظمُ شيء في العالم.

أعادتني كلماته إلى الأحداث الماضية. تذكّرت ماري وهي جالسة على الأريكة شاحبة ومنهكة، وبينما هي كذلك إذ جاء صوت الجرس وفتح بوارو الباب، وهزّ رأسه برفق وهو ينظر إلى عينيها المعذَّبتين ثم قال: نعم يا سيدتي، لقد أعدته إليك مرة أخرى. ثم تنحّى جانباً، وحين خرجتُ رأيت النظرة في عينَي ماري فيما كان جون يتلقّاها بذراعيه.

تذكرت ذلك المشهد فقلت بلطف: لعلك مُحِقّ يا بوارو. نعم، هذا هو أعظم شيء في العالم.

فجأة سمعنا صوت طرقة على الباب، وأطلّت سينثيا من الباب قائلة بتردد: أنا... أنا فقط...

قلت وأنا أثب واقفاً: ادخلي.

دخلت ولكنها لم تجلس. قالت: كنت... كنت أريد فقط أن أقول لكما شيئاً.

- نعم؟

تململَت سينثيا لبضع لحظات ثم هتفت فجأة: أيها الأعزاء!

ثم اندفعت خارجة من الغرفة مرة أخرى، فسألتُ دَهِشاً: ماذا يعني هذا؟

ردّ بوارو بفلسفة: إنه يعني أنها اكتشفت أن السيد لورْنس لا يكرهها كما كانت تظن.

- ولكن...

- ها هو.

وفي تلك اللحظة مرّ لورنس من أمام الباب، فناداه بوارو: إيه، سيد لورنس، يجب أن نهنئك، أليس كذلك؟

احمرّ وجه لورنس خجلاً ثم ابتسم بحرج. إن رجلاً واقعاً في الحب يكون ذا شكل مضحك، أما سينثيا فقد بدت فاتنة.

تنهّدت فقال بوارو: ماذا في الأمر يا صديقي؟

قلت بحزن: لا شيء؛ إنهما امرأتان سعيدتان!

أنهى بوارو الجملةَ قائلاً: لعلك كنت تطمع ببعض الاهتمام؟ لا تبتئس؛ فربما خرجنا معاً إلى الصيد مرة أخرى، وعندئذ... مَن يعرف؟

* * *

-تمت-

قَضيّة سْتَايْلز الغامِضَة

وصيّة مُمزَّقة بطريقة غامضة، وفنجان قهوة مهشَّم، ومغلّف قديم، وبقعة من الشمع على السجادة، وحوض نباتات زُرِع حديثاً بالأزهار...

هذه التفاصيل غير المترابطة التي أحاطت بجريمة قتل السيدة إنغلثورب الثرية، صاحبة قصر «ستايلز»، بدت أموراً صغيرة للكثيرين، لكنها أثارت فضول هيركيول بوارو، فبدأ رجلُ التحرّي البلجيكي تحقيقَه الأول مع صديقه هيستنغز، وربما أكثر تحقيقاته جاذبية.

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَي مليون نسخة!

Agatha Christie



The Mysterious Affair at Styles

POIROT

هيركيول بوارو

Agatha Christie



١

رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق الحصري بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم

الأجيال للترجمة والنشر

AJYAL Publishers

ISBN 2-1957-2713-1

9782195727136

US $ 4.00

سعر البيع ١٥ ريالاً